

المناهل



المناهل

تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب



ذوالقعدة 1394
نوفمبر 1974

العدد الأول
السنة الأولى





كان حرصنا وما زال قويا شديداً على أن تقوم الثقافة في مملكتنا على أمتن الأركان وأوثق الدعائم فعهدنا إلى وزيرنا في الشؤون الثقافية بتأسيس منطلق جديد لمختلف مرافق الوزارة ومدّها بنفس خليق أن يحرك العمل الثقافي تحريكاً يكمل أخذاً عظيماً وعطاءً كريماً ويحدث أسباب التعريف الكامل بالمواطنين من مواهب وكفايات وما يتوافر لبلادهم من نفائس وعلاقات وأصالة وطرافة . وما لبثنا أن علمنا أن العمل دائب بخطى ثابتة على الاهتداء بهدينا والاسترشاد بما رسمناه من توجيه وأقمناه من معالم الطريق . وقد أفضى هذا العمل إلى عبور وزارتنا في الشؤون الثقافية لمرحلة التنظيم والتأسيس وإلى الشروع في المرحلة التي نرجو من ورائها أن يفيد المثقفون ويستفيدوا وتتسع ميادين المعرفة وتنفسح آفاق الثقافة اتساعاً وانفساحاً تصبح معهما الآمال المعقودة بمختلف المجالات حقيقة ملموسة وأمر ملحوظ مشهود .

فامتدت العناية إلى وجوه ثقافية شتى وأخذت الوزارة على نفسها أن تحقق مشروعاً شاملاً ما تعلقت به الرغائب وتطلعت إليه الأمانى فوجهت نداءً إلى أرباب الفكر وذوي العرفان وأصحاب الملكات وهم والحمد لله معشر غفير - تهيب بهم أن يمدوها بما آتاهم الله من علم ووفقهم إليه من ابتكار لئلا تسنى لها أن تصدر مجلة تلتقي فيها قرائع الشباب والكهول ويشتري في رعايتها والحدب عليها إبداع المبدعين وضلعة الباحثين والدارسين ، وإن ما حظي به هذا النداء من جميل الاستجابة وكرمها ليفيض في قلبنا المسرة التي يلزمها التفاؤل والاستبشار .

وها هو العدد الأول من مجلة المناهل يطالع بطلعته القراء ويحمل
اليهم عصارة قلوب وعقول ويتلقاه الاشتياق إلى زلال الفكر والوجدان
بالترحيب والتأميل ، وأخلق بهذه الوسيلة من وسائل الثقافة وهذه
السبيل من سبل التعارف والتصادق والتنافس المعطاء والتبارك المخصب
أن يجتمع على جادتها من ترمسوا بالكتابة والبحث ومن قعد بقراءتهم
الاحجام فانزوى في غيب الخفاء إلى يومنا هذا حظ جزيل من التفكير
والتجبر جدير بأن يتبينه الناس .

والرجاء مكن أن تصبح المناهل مورد أغزيراً سائغاً من موارد المعرفة
يرده المثقفون باستمرار ويدرتوي منه على تراخي الأيام وتعاقب الأعوام
عشاق الأصيل والجديد والطريف والتليد .

والله المسؤول بعد هذا كله أن تؤدي المناهل في وطننا العزيز
وفي غيره من الأوطان على غرار شقيقاتها من موارد الفكر والعرفان
رسالتها في التعريف والتثقيف .

تقديم

محمد الصباغ

اخضرت الحقيقة ، وارتفع الحلم المنثور،
فاستقامت « المناهل » منظومة تعنّدل في
قصيدة مياه — أميرة بساتين وبرايا . فلا
حرقة صاد بعدها .

ليست هذه « المناهل » من دفقات أوانها ، ولا هي
من خاطرات يومها الحاضر ، فشرارة وردّها انبثقت
من ترب عهد دابر ، تقادمت عليه ذكرى حلم وثاب ،
احلولى — عهدئذ — فى خواطر فتية سباقه الى تلة الفكر
الصعبة المحروسة ، لتفجر مكنونات بجدتها « مناهل »
رية ثرة .

فتية جمعهم المداد في توريقة الكتب وطيائها ، تحت
قنديل : « الجاحظ » ، « والتوحيدى » ، و « ابن العميد » ،
وسواهم من ناثرى الجمان ، وناسجى الديباج ، رائعات
فتون ، تتحرك ، فتحرك الدوارس ، والآسان ،
ونطاف الزمن .

على ضوء ذلك القنديل المعتقد ، وعلى الهامه باتوا
يتنادون سمرة فكر ، جاشت آمالهم واكتنرت ، وشحت
مواردهم ونزرت ، وصولا الى مبتغاهم الذى يقرع بالحاح
خاطرهم الأدبى ، وضميرهم الوطنى الموار ، فى عهد
كانت خربة الأجنبى مسنونة مسلولة بجهالة من قحصة
شراراتها نحو الأقلام الزاحفة .

من هذا المدى الموتور ، المشحون بشتى الانفعالات ،
انبثقت « المناهل » نكرة رجاء ، ومطلب أمل ، ودفقة حنين ،
سالت حرى من جوارح مبدعيها الفتية ، وهم من تعرفون :
نضارة وشى ، ورمية حبر وندى ، على الأجهل والأبهى .

وحسبكم صاحب هذا المعدن ، وتلك البادرة المناهلية ،
. ذلكم المتألق امحمد أبا حنينى ، مختصر أندلس ، وقيامه

آياتها ، ومذہبات « أطواق حماماتها » فى هذه العدوة ،
مع خذنيه الناصعين ، عبد الرحمن الفاسى ، ومحمد بن
العباس القباچ ، وغيرهم من تلك العصابة .

من سبر هذا المعدن ، وأرومته ، تدفقت « المناهل »
وللكلمة — يومئذ — ملمس جدة ، وبهاء صباح ، قبل أن
تغدو اشتقاقاتها متداولة فى الابعاد .

والاسم — يا صاح — معنى وجرسا ، له فى رهيف
الحس ، حنين وطرب ، وفى العين مرمى أخضر بواح ،
ينطلق بك الى كل فائن ، ناصع ، زكى ، مرنان ، فواح ،
احتفظ به — ذخيرة — فى لفة شوق ، وذكرى ، وأمل ، الى
هذا الأوان ، الذى تفك فيه عقدته المزمنة المستعصية ،
فيفور زلالا ، سائغا ، ريقا ، فى مجرى اللهوات .

وهكذا يحفظ العهد المؤمل ، برورا به ، حتى يصبح
حقيقة تلمس ، تضم ، تشم ، ترتشف .



أقصوصة « المناهل » تلك ، تداعت الى فى جلسة
أدب حديثة العهد ، فأحببت أن تشاركنى فيها عائلة

« المناهل » كتابا وقراء ، ليقفوا على حقيقة ولادتها ،
وما قطعت من أعوام ، وهى سادرة فى ذاكرة الصمت الوفى
الامين ، الذى أصبح اليوم على هذه الصفحات ، جرية مياه
حروف تنهل ، ومهرجان نصاعة فى سطور تغرى بالقطف .

اخضرت الحقيقة ، وارتفع الحلم المنثور ، فاستقامت
« المناهل » منظومة تعندل فى قصيدة مياه — أميرة
بساتين وبرايا ، فلا حرقة صاد بعدها .



فالى فتية « المناهل » الألى اکتهلوا فى ميسان الرجاء
ومطله ، ينقش الشكر فى الندادة ، والصباحة ، والجنى ،
والقطاف ، وفى كل نثرة من نثراتها الخيرة ، والى كتابها
البررة ، خلاصة ما تحمل النحلات الى الخليات ، وما تجود
به هذه الزكيات ، والى قرائها سلال غلال مستطابة ان
شاء الله .

محمد الصباغ

الرباط

الشريف الإدريسي أعظم جغرافي أتى بعد بطليموس في القرون الوسطى

عبد الله شنون

يتصل نسب الجغرافي العظيم المعروف بالشريف الإدريسي ، ببني حمود ، الاشراف الادارسة الذين كونوا بعد انهيار الخلافة الاموية بالاندلس ، احدى ممالك الطوائف التي كانت قاعدتها مدينة مالقة الشهيرة .

ومن المعروف ان اجداد الحموديين هؤلاء، كانت لهم دولة بالمغرب هي دولة الادارسة التي انشأها ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بي ابي طالب على عهد هارون الرشيد ، واستمرت الى عام 375 هـ .

فمن هذه الاسرة العلوية العريقة ، ينحدر الشريف الإدريسي ،

وهو محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس بن يحيى بن علي بن حمود ، من اهل مدينة سبتة ، وبها ولد سنة 493 هـ . اذ كان سلفه قد استقروا بها بعد انقراض ممالك الطوائف بالاندلس ، والى نبوغه المبكر ، فانه نشىء تنشئة رفيعة ، وتلقى دراسته الاولى بمدينة سبتة ، اذ لم تبرح مركزا علميا هاما لوقوعها على الطريق بين المغرب والاندلس ، فهي محط الصادر والوارد من البلدين . وهكذا نجده يشد الرحلة للسياحة وطلب العلم ، وهو دون العشرين من عمره ، فيزور بلاد الاندلس وافريقيا الشمالية ، ومصر والشام ، ويتجول في آسيا الصغرى ، وقد كان فيها خلال سنة 510 هـ كما اخبر بذلك فى كتابه .

ولم تقتصر رحلته على البلاد الاسلامية، فقد زار فرنسا وخاصة بعض مدنها الواقعة على شاطئء المحيط الاطلسي وكذلك زار بعض مدن الشاطيء الانجائزي . وعلى ما يظهر فان رحلته كانت اوسع مما ذكرنا ، الا انه لا يتحدث عنها بتفصيل .

ولنستمع الى ما يقوله فى احد اشعاره مما ينبيء بطول رحلته :

ليت شعري اين قبري ؟ ضاع فى الغربة عمري
لم ادع للعين ما تشتاق فى بر وبحر

ونستفيد من شعر آخر له انه ربما كان ينوي الاقامة بالشرق ، الا ان امنيته هذه لم تتحقق لانه لم يجد ما يرغبه فى الاقامة ، ولذلك يقول :

ان عيبا على المشارق ان ار جمع عنها الى ذيول المغارب
وعيجب يضيع فيها غريب بعد ما جاء فكره بالفرائب
ويقاسي الظما خلال اناس قسموا بينهم هدايا السحاب

ان ما توحى به هذه الابيات الثلاثة اشياء كثيرة ، فهي مع بلاغتها التى تظهرنا على مقدرة الشريف الادريسي البيانية، وعارضته الشعرية، تدل على اعتداد كبير بالنفس ، لا جرم انه يرجع الى كرم ارومته واصالته فى الملك ، وثقافته المتميزة فى عصره ، وتدل على انه لم يلق التقدير اللائق به فى المشرق ، وخيبة امله فى اهله ، برغم ما هم عليه من بسطة حال واقتدار ، كما تدل على انه لم يكن راضيا عن مقامه بما سماه « ذبول المغارب » ونظن انه يعنى صقلية التى اتخذها دارا على كره منه ، وان كان صاحبها روجار لا يقصر عن غاية فى تكريمه وحسن معاملته كما سنبينه فيما بعد .

حياته العلمية

مما لا ريب فيه ان رحلته الطويلة قد افادته كثيرا وزادته علما الى علمه الذى حصله فى بلاده ، لاسيما فيما ظهر فيه نبوغه من علم الجغرافية وعلم النبات ، بل تميزه فيهما حتى اصبح من اعلامهما المشاهير . والجغرافية وعلم النبات هما مثل علم الحديث مما يزكو مع الرحالة وينمو بالتجول فى البلاد . فكما كان المحدثون يرتحلون للرواية عن حفاظ الحديث فى اقطار العالم الاسلامي ، كذلك الجغرافي والنباتي عليه من اجل التضلع فى هاتين المادتين ان يرتحل ويقف على عين الامكنة التى يصفها، والنباتات التى انما توجد فى اقليم دون اقليم ، ويتصل بعلم النبات علم الطب ، فقد كان الطبيب قديما صيدلانيا ومعالجا ولهذا لا نستغرب ان يكون الادريسي نباتيا وطيبيا فى آن واحد عارفا بمنافع الاعشاب واماكن وجودها واعيانها وطرق استعمالها ، الى كونه جغرافيا كبيرا ، فان هذه العلوم كلها مما يكتسب بالرحلة والضرب فى آفاق الارض .

واذا كان مؤرخوه - على قلتهم - اكثر ما يذكرونه بكتابه

الجغرافي واعماله فى وصف الارض ، فان بعضهم انما ذكره بصفته نباتيا كابن ابي أصيبعة وبكتابه فى هذا العلم .

وعلى كل فانه وان شارك فى العلوم الادبية والنظرية المنتشرة فى عصره فان حياته العلمية انما تتميز بعلو كعبه فى علم الجغرافية وعلم الطب والنبات ، وهي من غير شك الغرائب التى اتى بها فكره ، على ما المع اليه فى ابياته الشعرية المتقدمة .

مقامه بصقلية

وفى جزيرة صقلية تفتقت مواهبه العلمية وقام بعمله الخالد الذي عرف به فى التاريخ وكانت صقلية فى ذلك العهد قد خرجت من حكم المسلمين ، وخضعت لحكم النورمان المسيحيين وان كان المسلمون يكونون فيها اكبر جالية من السكان غير المسيحيين ، وكان ملوكها من النورمان وخاصة روجار الثانى الذى عاش الشريف فى اكنافه ، يتشبه بالمسلمين ويتظاهر بعباداتهم فى اللباس والهيئة وشارات الملك ، ويخالف عادة الافرنج فى كل ذلك . وكان يكرم المسلمين ويقربهم وينتفع بخبرتهم ومعارفهم . قال الصلاح الصفدي فى ترجمته من كتابه الوافى بالوفيات : (وهو الذى استقدم الشريف الادريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ليصنع له شيئا فى شكل صورة العالم) .

ولا شك ان شهرة الادريسي كانت قد سبقته الى صقلية حتى يمكننا ان نفهم كيف استدعاه روجار لهذا الغرض .

ويقول حسين مؤنس فى بحثه « الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس » ، ان احد قرابة الشريف ممن كان متوطنا فى صقلية وله ولاية

على بعض أعمالها ، ربما كان هو واسطة التعرف من روجار بالادريسي، وهو احتمال مقبول .

ويشير كراتشوفسكي في كتابه تاريخ الادب الجغرافي العربي، الى دلالة استدعاء روجار الشريف الادريسي بقوله : « وروجار ، وقد عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر ، كان على معرفة جيدة بالاثنتين ، وتكليفه لعالم عربي بالذات بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك ، لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية في ذلك العهد وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق » .

وعاش الادريسي في بلاط روجار معظما محترما مكفى الحاجة فقد رتب له هذا الملك - كما يقول الصفدي - كفاية لا تكون الا للملوك وكان يجيء اليه راكبا بغلة، فاذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معا .

واذا كان الشريف قدم الى صقلية في الاربعينيات من القرن السادس الهجري ، فان مقامه فيها قد دام الى ما بعد الخمسينيات من هذا القرن، وبذلك يكون قضى شطرا من عمره في هذه الجزيرة لا يقل عن 20 سنة .

جغرافية الادريسي

وجغرافية الادريسي اوكتابه نزهة المشتاق في اختراق الافاق هو اعظم عمل قام به في حياته وخلد به على مر الازمان ، وقد انجزه في صقلية تلبية لطلب صاحبها روجار كما سبق القول ، فانه لما استقر عنده عرض عليه رغبته في ان يؤلف له كتابا يصف مملكته وعمرانها ويذكر مسالكها وحدودها كما يذكر موقعها من بقية الممالك مع وصف هذه الممالك ايضا وذكر ما يتعلق بها من ذلك على وجه التحقيق وتجنب المزاعم الباطلة والخرافات والاهام ، فانه لم يجد ما يشفي غليله من ذلك لدى كتب



هذا نموذج من الخريطة الإدريسية يمثل بلاد المغرب ٦ وهو منقول عن مخطوط أكسفورد رقم 2 ، ونسبته إلى أن الجنوب يقع في أعلى الصفحة عكس المتعارف الآن في كتابة الخريط .

المؤلفين فى تقويم البلدان ولا من يجيب عن اسئلته فى هذا الصدد من العلماء المتواجدين فى بلاطه .

وشرع الادريسي فى العمل ، ولأجل ان يبنى على يقين كما فعل فى البلاد التى زارها بنفسه ، طلب من روجار ان يبعث الى اطراف مملكته ، بأشخاص كل من لهم عام بشيء من صفاتها واحوالها الى حضرته وتلقى ما يدأون به من معلومات فى هذا الشأن مما تتفق عليه كلمتهم ولا يختلف فيه خبرهم ، وكذلك بعث الى الممالك المجاورة بالسفار والمتجولين وقيد عنهم ما أخبروا به واستفادوه فى رحلاتهم . ولأجل التحقق من صحة اقوال هؤلاء المخبرين ولاسيما فى مادة العروض للبلاد المختلفة ، كان الادريسي يحضر ما سماه « لوح الترسيم » وهو على ما يظهر مشروع خريطة العالم التى وضعها فيما بعد ، فيمتحن عليه موقع البلدان واحدا فواحدا بواسطة بركار من حديد مقارنا ما عنده من معلومات بما قرره المؤلفون فى هذا العلم محققا بفاية العناية المواقع المذكورة ، مما جعله يصادف الصواب ولا يختلف عما حققه العلماء المعاصرون ، فى درجات العرض خاصة ، الا بفوارق يسيرة لا تعد شيئا بالنسبة الى تقدم وسائل البحث الحديث ، وكان هذا هو الاصلاح العظيم الذى ادخله الشريف الادريسي على خريطة العالم فجعلها تقرب من وضعها العلمى الصحيح ، وكان بذلك اعظم جغرافى اتى بعد بطليموس ، فوضع اول خريطة عالمية جامعة دقيقة على شكل دائرة من الفضة الخالصة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن اربعمائة رطل فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما . فلما كملت امر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطارها وسيفها وريفها وخلقجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع انهارها وعامرها وغامرها وما بين كل بلد منها من الطرقات المطروقة والاميال المحدودة والمسافات والمراسى على ما هو ممثل فى « لوح الترسيم » الذى اشرنا اليه آنفا ويأتوا به على هيأته وشكله ولا يفادروا منه شيئا .

ولما انجز هذا العمل انصرف الى انجاز كتابه « نزهة المشتاق »

الذى جاء بمثابة التفسير والشرح لخريطة العالم هذه ، وقد انتهى منه فى عام 548 هـ بعد ما صرف فى اعداده هو ، والخريطة الاساس ، نحو خمسة عشر عاما .

وقد كافاه روجار على هذا العمل مكافأة عظيمة ، وتنازل له عن مقدار الثلثين من الفضة التى دفعها له ليصنع منها الخريطة المذكورة ، اذ انه لم يستعمل منها الا نحو الثلث ، وقد بلغ وزن هذا الثلث فى تقدير بعض العلماء 150 كيلوغراما ، فيكون ما بقي معه 300 كيلوغرام وزاده روجار على ذلك حمولة مركب جاءه من برشلونة مشحونا بأنواع الاجلاب والطرف .

ومن المؤسف ان هذه الخريطة الفضية قد نهبت فى احدى الثورات التى نشبت فى الجزيرة سنة 555 اي بعد سبع سنوات فقط من وضعها ، وذلك فى عهد غليوم ولد روجار ولكن تفاصيلها بقيت فى كتاب النزهة لحسن الحظ ومنها استخرجت خريطته العامة .

ومن الجدير بالذكر ان الادريسي كان يرى ان الارض مكورة على شكل بيضة وانها منقسمة بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين شمالي وجنوبي ، المعمور منها هو الشمالي فقط ، أما الجنوبي فهو خلاء غير معمور الاجزاء صغيرا منه وذلك لشدة الحرارة ولعدم الماء فيه . وان كان هذا ليس رأي غيره من جغرافيي العرب الذين اثبتوا بالدليل ان النصف الجنوبي من الكرة مأهول بالسكان وان طبيعته لا تمنع من ذلك .

فخريطة الادريسي اذن انما تمثل النصف الشمالي من الارض وهي مبنية على نظرية الاقاليم السبعة التى درج عليها الجغرافيون القدامى ، ولكن عبقريته تتجلى فى تحديده لهذه الاقاليم بحسب درجات العرض تحديدا دقيقا .. كما انه فى الجزء الصغير الذى أضافه الى المعمور من القسم الجنوبي تحدث عن منابع النيل وبينها ببراعة علمية تدعو الى

الاعجاب . وهو لم يعن بإثبات خطوط الطول وانما قسم كلا من الاقاليم السبعة الى عشرة اقسام متساوية من الغرب الى الشرق ، وهذا التقسيم يسهل القيام بالمهمة ويعين على رسم الخريطة ، لاسيما وهو قد وضع لكل قسم من اقسام الاقاليم خريطة خاصة . وفعلنا فان المستشرق الالماني (ملير) جمع هذه الخرائط الصغيرة فى خريطة عامة واخرجها فى طبعة ملونة غاية فى الاتقان . ثم كان ان اعتنى المجمع العلمي العراقي بنقلها الى العربية واخرجها فى حلة قشبية ملونة بحجم مترين طولاً ومتر ونصف عرضاً .

ولا يزال العلماء فى العراق يعنون بالادريسي وكتابه ، فصدّقنا العلامة محمد بهجة الاثري يعد «النزهة» لاجراجها فى طبعة علمية لاثقةبها، والدكتور احمد سوسة الباحث العراقي المعروف كتب ترجمة موسعة للادريسي تخرج فى مجلد كبير تناول فيها تقدير عمله الجغرافي والخدمة الممتازة التى قام بها فى هذا الميدان ، وهي تحت الطبع الآن . كما ان بعض علماء الاستشراق فى ايطاليا قد اخرجوا مؤخرًا طبعة كاملة «للنزهة» وما زلنا لم نطلع عليها حتى نعرف قيمتها وان كان بعض اقسام الكتاب قد سبق نشره وترجمته من غير واحد من اهل العلم قبل اليوم بكثير .

ثناء وتقدير

وقد كثر ثناء العلماء من عرب واجانب على الادريسي وتقديرهم لعمله ، ونقتصر هنا على قول كارا دوفو فى كتابه « مفكرو الاسلام » : « ان الادريسي استعمل ملاحظاته الشخصية زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه واعمال المؤلفين قبله ، من مثل المسعودي وابن حوقل والمقدسي ، ولا شك ان ما كتبه عن البلاد الغربية كان احسن ما كتب عنها لانه اعطاها بحثاً من الطبقة الاولى .

اعمال اخرى للدريسي

كان روجار قد توفى حين انتهى الادريسي من تأليف كتابه « نزهة المشتاق»، ويظهر انه اضطر لعمل شيء باسم ولده غليوم الذى خلف اباه على الملك بصقلية . ويذكر المؤرخون انه الف له كتابا جغرافيا آخر اكثر بسطا من «نزهة المشتاق»، سماه «روض الانس ونزهة النفس» ولكن هذا الكتاب ضاع ولم يصلنا منه الا بعض المنقول فى تاريخ ابي الفداء .

وذكر ابن ابي اصيبعة ان للدريسي كتابا فى الادوية المفردة ، وهذا العمل يرجح ما قدمناه من معرفته بالطب وعلم النبات . وقد قال ابن ابي اصيبعة عنه فى هذا الصدد : « انه كان فاضلا عالما بقوى الادوية المفردة ومنافعها ومناباتها واعيانها ..»

وفاته

وتنتهي حياة الشريف الادريسي فى سنة 560 ببلده سبتة على ما يرجح ، لان احوال صقلية اضطربت بعد وفاة صديقه روجار ، ناهيك بالفتنة التى نشبت بها سنة 555 وسطا فيها الثوار على الخارطة الفضية التى افنى زهرة عمره فى صنعها ، واقتسموها فيما بينهم . فكيف تطيب له الحياة بعد ذلك فى هذا الجو ، مع القربة التى طالما اشتكى منها .

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن امته وعن خدمته للعلم احسن الجزاء .

عبد الله كنون

طنجة

في دروب الإيمان

إِعْتِرَافٌ وَضِرَاعَةٌ

محمد العزلي الخطابي

القيتني في بستان جلالك ذرة في خيط شعاع ، وجعلتني على مرمى
حصاة من جداول نعمك ، التفاح عن يميني ، وعرائش الكروم تظل
مسراي ، وزهور النارج تعطر حواشي أزاري .

وبعد ان صنعتني من قوتك ضعيفا وجعلتني بضعفي هذا قويا حينما
أسميتني انسانا تنوء الافلاك بما قدرتي على حمله خطت يمينك في كل
خلية من خلايا جسمي سؤالا مفتوحا على ما تحرك وما سكن من
موجوداتك .

واذ ابدعت حوالي الجمال والقبح فصورت الجمال بالوان الضحى
والقبح باصباغ الفسق عطشت جنور نفسي فعصرت من كروم بستانك
شرابا ملأت به دنان حياتي .

في الصباح الاول فتحت على الحياة عيني نقيتين وخالتين من
نهمة الفواية فوق بصري على تفاحة اصطبغت بحمرة وصفرة مع خضرة
فاتحة ، ورمقت ليمونا وخوخا وظلال صنوبر .

غضضت الطرف ، لحظة ، حياء منك الا ان الدم فار في قلبي
وتوترت العروق في أحشائي ودبت رعدة الحمى في بدني ، وما زلت كذلك
حتى فقدت زمام نفسي فدنست تفاح بستانك بشفتي واسناني . وبعد
ان عصرت في حلقي ليمونة ناضجة نصحت اطرافي بماء النبع المحرم .

وما لبث ان تراءت لي الحياة في صورة امرأة غضة تشتعل الاحلام
في خديها ، وترتوي الورود الحمراء من شفثيها وتتطر الرياحين بطيب
اعطافها ، امرأة صفتها انت بقدرتك لراحة نفسي ، ووهبتها الحسن
الندي ليتعلق بها قلبي فاغرق خاشعا في عبادتك .



في الليل اريتني من آياتك نملة تدب فوق حصي منشور ، واذا كنت
عاجزا عن ان ابصر الاشياء في الاضواء دست النملة بقدمي
فحطمتها .

وفي النهار حينما رايتك تقصف الاشجار بعواصفك ، وتمحق
الحرث بسيولك ، وتهدم البيوت والاعشاش بصواعقك ، وتفرق الدواب
بطوفانك ، اصابتنني لومة التدمير فخنقت البراعم ، ومزقت الزهور ووادت
فراخ العصافير . واذا رايتك بعد ذلك ترسل الرياح لواقع ، وتحيي
بمزناك الارض الموات ، وتنضج بنور شمسك الثمار ، وتكسي الطيور ريشا
والحملان صوفاً خجلت من عجزتي وجهلي ، واستعظمت غروري
وجراءتي .



كل ما هو جميل فهو منك ، ومنك ايضا كل ما هو طيب في نفسي ،
واطيب ما في نفسي عشق الجمال ، واجمل ما في كونك الجميل المرأة

الجميلة ، والخمرة المعصورة من كروم بستانك ، والعطر المستخلص من
رياحين عفوك . ورحمتك سر جمال الكون وسعت كل شيء حتى عظام
زلانسي .



ولكم دعوتك فاستجبت واستغفرتك فغفرت مع اني اتوب فلا اقنع
من فرط ضعفي ولغلبة انساني علي .

ولما كان لمحبتك في قلبي مكان لا يكبره سوى جلال قدرك فان
طمعي لا ينقطع في كل ما هو جميل عندك :

طامع في كريم نعمك ،
طامع في جميل عفوك
طامع في فيء كرسيك العظيم ...

ذلك لانني ، على كثرة ذنوبي ، غني بك وحدك ، قوي بك وحدك ،
لا اعتد بجبروت غيرك ((وانا على عهدك ووعدك ما استطعت)) واستطاعتي
محدودة بقدرتك ، ضعيفة بقوتك . وكل ما اقترفه فهو بيني وبينك ، وما
كان متصلا بك وحدك لا تقطعه زلة ولا تفصم عروته هفوة .



ايماني جمال نفسي ،
وحكمتك مرآة وجودي ،
وخشيتك طعام يومي ،

فكيف اقنط يا بارئي ولطفك سابق ، وعفوك لاحق ، وضعفي
ثابت ثبات عزتك وجلالك .

محمد العربي الخطابي

الرباط

نظراتي في القصة

عبدالمجيد ابن جلون

بدأت حياتي الادبية المبكرة شاعرا ، وكنت أجد في قرض الشعر راحة نفسية يغب على الظن أن مرجعها يتمثل في الرضا الذي يتزايد بقدر ما يتزايد دقة الانسان في القدرة على التعبير عما يعتل في نفسه من أفكار أو عواطف أو خلجات ، أو اقتناص للصور التي ترسم في هذه النفس ، وعندما يكون المرء في ميعة الصبا تتسم نفسه بالصفاء لقلة معلوماته وسطحيته ولضالة تجاربه وافتقارها الى التعمق والاحتكاك بالحياة وما فيها من جزئيات وتفاصيل ، وتعهد وتشعب وما فيها من ترابط وتفاعل وتنافر ، ثم لا يلبث ان يتسع افق الانسان الفكري والعاطفي مع مرور الايام ، فاذا بالمعالم التي كانت بارزة تتحول الى مجرد حلقات في سلسلة لا يكاد يتبين الانسان اولا لها من آخر ، ولا يلبث ان يأتي عليه حين من الدهر يخيل اليه فيه ان الحياة فقدت معناها من شدة التعقد والتشعب ،

وتبدو معانيها اكبر من ان يحاط بها ، وليس لها أي معنى على الإطلاق ،
فيمر المرء منا بفترة من فترات التيه هي أشبه بفترة المراهقة في حياتنا
الجسمانية ونحن نجتاز مرحلة التكوين .

وهذا هو الذي حدث لي بالضبط في مفتتح حياتي الادبية حينما بدأت
هذه الحياة بقرض الشعر ، يوم كانت تبدو لي الفكرة والصورة والعاطفة
والخالجة واضحة يمكن افراغها كاملة في قالب من قصيدة شعرية موقعة
مقفاة فيزداد الشعور بالرضا عن هذا الانتاج كلما استوفى تلك المعاني التي
تجيش بها النفس محدودة التجارب ، وكلما استوفى جمال التعبير والفن
والموسيقى .

ولما تبين لي ان الادب بمختلف فنونه تعبير جميل عن الحياة
وانعكاس لهذه الحياة بجميع ابعادها على الفكر الانساني والنفس الانسانية،
ولما تشعبت امامي الحياة بكل ما فيها من جمال ، وقبح وعمق ، وسطحية
وانسجام، وتناقض واتساع وضيق، واطمئنان وخوف، ورجاء وياس، وجدية
وعيث، وسعادة وشقاء، ولما كان انعكاس هذا كله واكثر جدا من هذا
كله على الفكر الانساني والنفس الانسانية متباينا يختلف باختلاف
الانسان، واختلاف المكان، واختلاف الزمان، ولما كانت المؤثرات المتشابهة نفسها
تعكس افكار ومظاهر وعواطف وحوالج وخيالات غير متشابهة، لاختلاف الناس
وحده فقط ، ولكن بالنسبة للفرد الواحد ايضا لان استعداده للتفاعل مع
الحياة في كلياتها وجزئياتها ليس استعدادا واحدا على مدار الساعة ،
بقطع النظر عن الملابس وعن الاستعداد للتقبل والتجاوب والانصهار ، او
عدم الاستعداد لذلك على الإطلاق ، وهذا الاستعداد نفسه متفاوت ومتراوح
يدور في قوته وضعفه مع الظروف والملابسات والاحوال ، ولا يأتي على
وتيرة واحدة مهما توحدت هذه الظروف والملابسات والاحوال .

ولما كانت النفس الانسانية ذاتها قابلة للامتداد والانكماش لاسباب
تظل متسمة بطابع الغموض والابهام ، مهما تعمق فيها علم النفس وحللها
وعاد بها الى بواعثها القديمة احيانا او بواعثها الحديثة القريبة احيانا
اخرى ، اقول انه عندما اتضح لي هذا كله وغير هذا كله من الجزئيات

المتشعبة التي لا مجال هنا لتتبعها ، ولا داعي اليه في نفس الوقت ، بدا لي - وقد أكون على غير حق في هذا - أن الشعر ضيق المجال بالنسبة لاية جزئية من جزئيات الحياة - بل وبالنسبة لاية خالجة صغيرة من الخوارج التي تعتمل في النفس الانسانية ، وان التعبير الجميل المنطلق المستوعب الذي يستطيع ان يعكس الحياة باوسع معانيها ، وبأضيق هذه المعاني ايضا ، يجب ان يبحث له عن متنفس غير الشعر بتوقعاته وموازينه وقوافيه ، فان الذي وجدت نفسي في أثره لم يكن تغنيا ، وانما وجدت نفسي في أثر التعبير عن الحياة ما وسعني التعبير ، بكل ما فيها من عموميات وكل ما فيها من تفاصيل بطريقة الحياة نفسها ، على نحو ما أشرنا اليه في مقدمة هذا الحديث .

يضاف الى ذلك ان للشعر العربي تقاليد عريقة قديمة مقيدة ، وتاريخا لم يمسه التطور الذي مس جوانب الادب الاخرى ، ولم تنزل حركة التجديد في الشعر تتخطى الى اليوم لان الذين قيدوا الشعر العربي منذ عشرات القرون احكموا نقييده ، ليس من ناحية الميزان والقافية فحسب ، ولكن من حيث الموضوعات التي ظل يتناولها عبر هذه القرون ايضا ، وقد حاول الكثيرون ان يثوروا على الشعر العربي في الازمنة الحديثة ، ولكن ثورتهم كانت ثورة هدم اكثر منها ثورة بناء فالقى بعضهم الميزان الشعري ، وابقى التفعلة والقافية والقي آخرون التفعلة وحدها ، بل ذهب غيرهم الى الغاء ذلك جميعا ، فلم يعد هناك فرق بين النثر والشعر في غير طريقة رسم السطور ، فقل الشعر المرسل او الشعر الحر ، وقد نسي هؤلاء جميعا أن للشعر اصولا في جميع اللغات ، وهو نثر اذا لم تكن له هذه الاصول مهما كانت الطريقة التي رتبنا بها سطوره .

والموضوعات التي تناولها الشعر العربي وثيقة الاتصال بهذه الاصول ، التي وضعت بعد استقصاء هذه الموضوعات ، وعلى ضوء منها ، فلو عرف الشعر العربي مثلا الملحة المطولة لما كان هناك بد من ادخال تغيير على هذه الاصول والقواعد الشعرية ، فنحن نصطدم حينما نريد ان نتوسع في فهم الشعر بالقواعد التي وضعها له علماء العروض ، لان هذه القواعد وضعت على اساس مما سلف ، لا على اساس مما يمكن ان ياتي في

المستقبل ، فهي قوانين وضعت بعد استقصاء لما قيل ، وليست قوانين مطلقة وضعت لتشمل ما يمكن ان يقال مثل النحو والصرف على حد سواء ، وقد عجزت - الى الآن - جميع المجهودات التي بذلت لادخال تغيير على قواعد هذا الشعر ، فتأثرت بذلك الى حد بعيد الموضوعات التي ظل يتناولها ، لانها جزء من هذه القواعد كما رأينا .

ولعله من غير المصادفة في شيء ان يكون الفنان الاديبان اللذان اصابا النجاح اليوم في الادب العربي ، الفأدران على التعبير تعبيرا دقيقا عما يدور في الفكر والنفس معا ، وهما فنان جيدان لم يعرفهما الادب العربي القديم ، ولذلك فانه لم يتمكن من نقييدهما ، وهما فن المقالة وفن القصة كما نعرفهما اليوم وفن القصة هو الذي يعيننا في هذا الحديث .

واذا كان الادب العربي القديم لم يعرف فن القصة على النحو الذي عرف هذا الفن الادب العربي الحديث فليس معنى ذلك ان القصة كانت غريبة عن العرب القدماء ، فقد كانوا يعرفون القصص المقتربة بامثالهم ، كما عرفوا القصص المقتربة بالاحاجي ، وكانت ترد في اشعارهم بعض الصور القصصية ، كتلك التي كانت ترد في شعر عمر بن أبي ربيعة ، ولعلمهم عرفوا بعض القصص المطولة التي كانوا يرونها اولا ، ثم دونوا بعضها ثانيا وهي التي كانوا يسمونها بايام العرب ، ووردت اقاصيص دينية مختلفة في القرآن الكريم ، وما كادت اسبابهم تتصل بأسباب الادب الفارسي حتى اخذوا يلمون بالقصص الذي كان يشتمل عليه هذا الادب ، ولم يكن هذا القصص يدور حول تاريخ الفرس وايامهم وامثالهم فحسب ، وانما كان يدور حول الحيوانات ايضا ، وهي القصص التي كانت تستخلص منها العبر التي تضرب لبني الانسان - وعلى راس ذلك كتاب كليله ودمنة المشهور .

وبالرغم من ان الادب العربي القديم عرف هذا النوع من القصص العربية الحديثة لم تستند اليه ، ولم يضع علماء الادب القدماء قواعد لها ، ولذلك جاءت متحررة ومتأثرة مباشرة بفن القصص ، كما عرف في

اللغات الحية الحديثة ، ومتأثرة مباشرة أيضا بالحياة اليومية في الاقطار العربية ، بل أصبحت أكثر الفنون الادبية جميعا اتصالا بهذه الحياة ، ولذلك فان من الممكن الذهاب الى ان حداثة فن القصة - بالمعنى الذى نعرفه اليوم - فى الادب العربي الحديث هي مصدر تحرر هذا الفن ، ولو كان معروفا عند القدماء لكان من الجائز أن يضعوا لها قيودا مثل القيود التى وضعوها للشعر ، فظل يرسف فيها الى اليوم دون ان يستطيع التخلص منها .

ولقد رج فن كتابة المقالة والقصة بالادب العربي لأول مرة فى الحياة اليومية ، فاصبحت هذه الحياة مصدرا لهما وباعثا عليهما ، بعد ان كانت ((المناسبة)) بصفة عامة المصدر والباعث الرئيسيين لفنون الادب العربي فى تاريخه ، وعن طريق ارتباط الادب العربي الحديث بالحياة اليومية تخلص من الروح البدوية التى ظلت عالقة به او ببعضه حتى فى ازهى عصور الحضارة العربية وتخلص من الرياء والمداينة والتعلق من ناحية ، وتخلص من المباهاة والفخر والادعاء والتبجح من ناحية اخرى ، لان خوض المشاكل اليومية والتعبير عنها يوميا وتحليلها ومحاولة ايجاد حل لها ، ومعالجة موضوعات الفقر والجهل والمرض خلص الادب بصفة تكاد تكون نهائية من قبضة ((المناسبة)) التى كانت تدفع الادب الى السير فى مؤخرة قافلة الحياة العربية يتسقط الفتات ، ويفاخر بالاحياء والاموات ، وقد اصبح اليوم يشق طريقه الى مقدمة هذه الحياة ليكون لها من الهداة ، بعد ان كان يقتصر على السير فى مؤخرتها او على هامشها ، وحينما ، اصدر مثل هذه الاحكام وغيرها اقصد الى الصفة العامة بطبيعة الحال لان محاولة اصدار احكام مفصلة على ادب يكاد يتجاوز عمره الف سنة ، محاولة لا يمكن ان تخلو من ظلم واعتداء .

وكان من الطبيعي ان يسبق فن كتابة المقالة فن كتابة القصة تاريخيا ، ولكنها كانت تمهيدا لكتابة القصة فى نفس الوقت ، فقد استيقظ الكتاب العرب فى القرن الماضي على بلادهم وهي ترسف فى اكثر من مشكلة ، ولكن هذه المشاكل كلها كانت تتركز فى مشكلتين كبيرتين ، تتمثل احدهما فى انحطاط المستوى الثقافى والتخلف عن قافلة الحضارة والتخبط فى

اعلال فكرية يصاحب ذلك كله شعور مركب معقد بالمكانة الممتازة والمركز المرموق مع الشك في اتجاه الآخرين في الحياة ان لم يكن مع الاحتقار لهذا الاتجاه ، وتنمثل ثانيتهما في تخلف اقطار العالم العربي تخلفا خطيرا عن التقدم الغربي سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا بصفة خاصة ، فكان عليها لذلك ان تخضع للحكم الاجنبي وان تعيش طبقا لمشيئة الغير ، وان تخضع لنظمه وتفكيره واسلوبيه، عن ارادة من الجانبين تارة ، وعن غير ارادة منهما معا تارة اخرى ، ولا يكاد يحل القرن العشرون حتى نجد ان استقلال هذه الدول جميعا قد ذهب بالتدريج في مهب الرياح ، ولما عرف العالم العربي الصحافة قفز فن كتابة المقالة الى المقدمة بعد ان اصبحت له بواعث جديدة في العمل على تنوير القراء وتحرير عقولهم من القشور والاوهام ، ثم في دفعهم الى التفكير في مستقبل بلادهم والعمل على تحريرها ، وما زالت دائرة هؤلاء القراء تتسع الى ان اخذت تتحول بالتدريج - وما تزال - الى الطبقات الشعبية وما زالت دائرة الموضوعات التي كانت تتناولها هذه المقالة تتسع ايضا حتى اخذت تشمل الحياة اليومية فافسح ذلك كله المجال في آخر المطاف الى فن كتابة القصة كما نعرف هذا الفن اليوم في ادبنا العربي الحديث ، وهو يسعى بخطى ثابتة نحو النضج والتمانة والاكتمال .

وليس من المستغرب في شيء ان يكون لتاريخ الادب العربي انعكاس على تاريخ الادباء العرب انفسهم كافراد انعكاسا قد يكون جزئيا احيانا وكاملا احيانا اخرى ، ولذلك فليس من عجب في شيء ان تتدرج حياتي الادبية من قرض الشعر الى كتابة المقالة الى كتابة القصة ، وحينما اقول المقالة اعني الكتاب ايضا فالكتاب لا يعدو ان يكون مجموعة مقالات تسمى فصولا يضمها موضوع واحد ، او موضوعات مختلفة في نهاية المطاف ، وهو لا يكتب دفعة واحدة وانما يوضع في اول الامر فصولا او مقالات .

كان من الطبيعي ان اناثر بتجاربتي في قرض الشعر وكتابة المقالة حينما اخذت اعالج فن القصة او ان اعمل على استغلال هذه التجارب بتعبير اصح ففي ميدان الشعر كنت اتجه الى وحدة القصيدة والى محاولة وضع صورة مكتملة للموضوع الذي اعالجه ، مع محاولة الابتعاد عن الموازين

الطنانة التي جعل منها دهر طويل استعملت خلاله في التفخر والهجاء طبولاً جوفاء لا تناسب المعاني الهادئة والتصوير المستأنس والهمس اللطيف ، كل ذلك مع انتهاج الأسلوب السهل الذي يكاد يقترب من النثر ، دون اخلال بالقواعد ، مع الابتعاد على اللفظ المعقد الحوشي او غير الشعري ومع محاولة انتقاء اللفظ السهل ولكن دون المبتذل ومراعاة جانب الموسيقى والاشراق في هذا الانتقاء .

ولا شك ان العمل على الاقناع الواضح هو حجر الزاوية في كتابة المقالات ، وخصوصاً منها تلك التي تستهدف التنوير والاستنهاض وتستهدف في نفس الوقت رسم آفاق المستقبل والغاء الصوء عليها ، ولذلك لا اعدو الحقيقة اذا قلت ان ممارستي للقصيدة وممارستي للمقالة على نحو ما اشرت ، هي التي مهدت امامي طريق كتابة القصة على ضوء من الفن والاقناع كما تراءى لي ذلك على اقل تقدير ، محاولاً الاقتداء بما في المقالة من فكرة وما في القصيدة من جمال ، الى جانب العمل على ان يكون القراء على اوسع نطاق ، مع المحافظة على المستوى لا على اضيق نطاق ، ومع استهداف الطبقة المثقفة التي قد تكون في غنى بثقافتها وما وصلت اليه من افكار قد تكون متعصبة لها عن هذا الذي اخذت اتجه في كتاباتي اليه فللقاعدة الاولى التي يجب ان نضعها نصب اعيننا قبل ان نرفع القلم للكتابة هو اننا لا نرفع هذه الاقلام لنملأ بها الرفوف وانما لنملأ بها العقول ، وانما نكتب لغير المثقفين قبل ان نكتب للمثقفين ، وان صفحة واحدة يقرأها الملايين ليطمئنا بجمالها ، ويقتنعوا بما ترمي اليه من فكرة ، ويضعوا اليد على ما قصدت اليه من وراء حوار او تصوير اجدي علينا من كتاب ضخيم يقتنيه متخصص في هذه المرحلة التي نجتازها من حياتنا الثقافية الحضارية اذا لم يخطئني التعبير ، خصوصاً وان دائرة القراء في العالم العربي لا تزداد الا اتساعاً ، وان هدفنا اليوم من حياتنا الادبية هذه لا تستهدف الجودة وحدها ، وانما تستهدف الى جانب ذلك ان يضطرد تأثيرها على الطبقات الشعبية وان تتمكن من الشروع في رفع مستوى هذه الطبقات في سبيل التمتع بالادراك والجمال .

ويمكن القول بصفة عامة على ضوء مما اسلفنا ، ان القصيدة اذا

كانت تتمتع بالقدرة على ان تشتمل على النعمة والصورة ، وان المقالة اذا كانت تتمتع بالقدرة على المنطق والافناع فان في استطاعة القصة - التي اعتبرها مرحلة ثالثة بعدهما - ان تتمتع بذلك كله في نطاق اوسع ، لانها اقرب الى الحياة الواقعية منهما فهي تصوير واقعي لها ، وان يكن هذا التصوير هادفا ، ففي الوقت الذي يتسع فيه صدر القصيدة للمجال من خيال يتراءى وفي الوقت الذي تتشبت فيه المقالة باسباب المنطق والاستنتاج واصدار الحكم تتمتع القصة بهذا كله ، ولكن حريتها فيه اوسع لانها تتقيد بالواقع اكثر مما تتقيد بأي شيء آخر وليس عند الواقع بأس من ان يختل المنطق ويفسد الاستنتاج ، وان لا يكون هناك أي حكم على الاطلاق ، لان الواقع الذي نكاد القصة ان تتقيد به مليء بالمفاجآت وبالمظالم وبالاختلال وبخيبة الآمال ، ولذلك جاءت القصة اقرب الى الحرية من القصيدة ذات القيود واقرب الى الفن والجمال من المقالة ذات المنطق والاستدلال .



وعناصر القصة عندي بعد ذلك ، على ضوء تجاربي الخاصة في كتابتها ، وعلى ضوء تجاربي من قراءتها تعبير ، وتصميم وسياق وتحليل وتصوير ، وقد مكنتها هذه العناصر مجتمعة ومتفرقة من حرية لا يكاد يتمتع بها فن ادبي آخر ، ولا يكاد كاتب القصة يبحث عن فنه في غير نفسه ولو كان ذلك علم النفس ذاته - حتى يفقد كثيرا من حريته وبمقدار تساؤل هذه الحرية تتضاءل القيمة ، لان القصة تقوم على اساس من التجربة الذاتية التي تستند الى الملاحظة الدقيقة ، والتتبع اليقظ ، والربط الواعي بين الافكار والمشاعر والاحداث حينما ترتبط ، والفصم بينها حينما تنفصم ، ولكن القصة فوق هذا وذاك اوسع مجالا من ان تحشر في تحديد ، او يلزم بها تعريف على ان ذلك لا يمنعنا من ان نقف وقفة قصيرة عند كل عنصر من العناصر التي تستند اليها ، ان لم يشجعنا ذلك عليه :

(1) التعبير : التعبير مادة القصة الخام ، كما هو المادة الخام لكل فن ادبي ، ونحن نعرف ان اللغة كائن حي تمر الفاظها كالكائن الحي ،

بمراحل الطفولة والشباب والشيخوخة والموت ولذلك فان تدوين هذه اللغة على ممر العصور ضرورة جوهريّة لا يتمتع بها الادب العربي لان اللغة العربية ما تزال مدونة في معاجم قديمة اتى عليها زمن طويل من الدهر ، ماتت خلاله كمية كبيرة من الفاظها التي لم تدون في نفس الوقت بطرق سلمية اختلطت فيها الاسماء بالصفات ، وفي خلال هذا الزمن الطويل من الدهر ولدت كمية كبيرة جدا ايضا من الالفاظ التي لم تدون، ووجدت كمية كبيرة جدا من الاشياء لا الفاظ تدل عليها في هذه اللغة ، فاتجه البحث الى التنقيب عن الفاظ اشبه بها في تلك المعاجم القديمة تارة ، والى نقلها كما هي من اللغات الاخرى تارة اخرى، والفت مجامع للغة العربية هنا وهناك لتحقيق الغرض الاول وترك حبل الغرض الثاني على غاربه يفعل به الادباء ما شاءوا .

وقد كان من المعقول في هذا التيه ان يظهر الرأي الذي يذهب الى القول بان العرى قد انفصلت بين اللغة العربية ، تلك التي لم تدون منذ مئات السنين وبين الحياة الواقعية التي تطورت تطورا ماديا ومعنويا ، أصبحت معه هذه اللغة لطول ركودها عاجزة عن ملاحقته ولذلك فان اللهجات العامية العربية التي لاحقت هذا التطور راضية او كارهة أصبحت اقدر على التعبير من اللغة العربية ، ولا مجال هنا للاشارة الى ما في ذلك من ظلم للغة العربية التي لا يمكن ان يطعن عدم الاهتمام بها اهتماما يتلاءم مع التطور الذي اصاب الاشياء ، في مرونتها وقابليتها لملاحقته ، فموقف هؤلاء شبيه بموقف الذين يخطون بين الاسلام والمسلمين .

واذا كان لكل فن من فنون القول لغته ، او لون من ألوان اللغة خاصة به ، فان لغة القصة هي التي تهمننا هنا ، وقد رأينا مجال اتساع القصة ومدى الحرية التي تتمتع بها ، فان لغتها ايضا مستعدة من ذلك الاتساع وهذه الحرية .

اما فيما يتعلق باحياء اللغة العربية فانني اتصور ان من مصلحة وحدة هذه اللغة التي يهددها حتى المتشبهون بها ، لانهم يذهبون في احيائها

طرائق قندا ، فانه يجب ان ينشأ مجمع عربي واحد يضم ادباء وعلماء
ولغويين من سائر البلاد العربية ، على ان تتلخص مهمة هذا المجتمع في :

1 - مراقبة السائر من الالفاظ الجديدة وتدوينها ، لا التنقيب عن
الالفاظ القديمة الميتة في المعاجم التاريخية ، لان الالفاظ اللغوية مرآة
للحاضر بفهمه وذوقه واستصاغته ، دون سواه وبذلك تصبح اللغة العربية
- مثل اللغات الحية الاخرى - اداة من ادوات تعبير شعب كامل ، لا اداة
من ادوات تعبير اوتوقراطي لفرد منه او افراد ، وهذا ما نسميه
بديمقراطية اللغة .

2 - تتبع اللهجات العامة وتعبيراتها ، لان هذه اللهجات في عمقها
امتداد للغة العربية وليست خروجاً عليها ، وذلك للمحافظة على ما بينها
من انسجام وتدوين الاعم من الفاظها وتعبيراتها ، والعمل الدائب على
التقريب بطرق الاعلام المختلفة بين اللغة العربية وهذه اللهجات حتى
تتقارب ثم تندمج على قدر الامكان .

3 - فتح المعجم العربي امام الالفاظ الاجنبية ، كما كان مفتوحاً في
عصور هذا المعجم الذهبية ، مع العمل على تعريبها كما كان العرب القدماء
يفعلون ، ثم فتح هذا المعجم على نفس الطريقة امام مئات من اسماء الزهور
والاشجار والنباتات والاسماك والحيوانات والمصطلحات . الخ . حتى
يفتح ذلك كله امامها مجال الشمول والتعبير الدقيق ، ولا يقفل في وجهها
موضوعات انسانية تعالجها او مناطق جغرافية ترمي الى الدخول اليها
والاضطراب فيها واكتساب التجربة منها والحياة على مستوى عالمي .

4 - والموضوع الرابع - وهذا اثاره موضوع جانبي وليس استقصاء -
هو موضوع كتابة الاسماء الاجنبية ، فهناك حروف في اللغات الاخرى لا
وجود لها في اللغة العربية ، وهناك حروف في اللغة العربية لا وجود لها في
هذه اللغات ، ولست ادري كيف لم يستطع العرب ان يوحّدوا طريقتهم في
كتابة هذه الاسماء ، ويكفي ان نستدل على ذلك باسم « هامنجواي » تكتب
بالكاف وبالجيم وبالفين ، وكان من البسيط ان يتفق العرب على وضع

كل حرف زائد في ابجديتهم في موضع كل حرف نافص كما يوجد في اللغات الاخرى كما فعل الاتراك والايروانيون والباكستانيون ، وهو موضوع تافه يخجل المرء من الاشادة اليه ، ولكنه لم يتحقق الى الآن يضاف الى ذلك كثير من اسماء الافطار والمدن والمعالم الجغرافية التي نكتب بطرق تكاد تكون مختلفة باختلاف افطار العالم العربي .

وبالرغم من هذه الصعوبات التي يصطدم بها الادباء والكتاب فانني ظلت اعتقد، وما ازال، ان هذه اللغة خاضعة للتذليل والسيطرة ، وقادرة على اداء ادق المعاني واعوص التعبيرات متى ما بذل الانسان جهدا صادقا لتملك ناصيتها ، وان التراث العربي القديم بما يشتمل عليه من ذخائر وكنوز كفيل بأن يذل امامنا بالممارسة والتعمق والمواظبة كل هذه الصعوبات ويمكننا من ملكة التعبير ، وربما كانت اللغة العربية من اقدر اللغات على التعبير الدقيق متى ما اسلست لمن تبحر فيها القيادة .

وقد عكفت منذ سنوات في مفتتح حياتي القصصية على ترجمة اقاصيص مختلفة من الادب الروسي والادب الانجليزي والادب الامريكي، وكنت القي في ذلك صعوبات في اول الامر ، وبالجهد المتواصل لانت قناتها ، ولكن اللغة العربية كانت في حالي العسر واليسر قادرة على الاداء ولا اذكر انني اضطرت الى تحوير او مراوغة او حذف ، ولا للجوء الى الابتعاد عن سلاسة الاسلوب ولا سلامة التعبير .

(2) التصميم : يختلف تصميم القصة باختلاف طولها او قصرها، كما يختلف هذا التصميم باختلاف تاريخ القصة ايضاً وكان يقال ان تصميم القصة يتكون من تمهيد ثم عقدة ثم تنتهي بانفراج هذه العقدة ولكن القصة الحديثة لم تعد تعتمد في جوهرها على تعاقب الاحداث والسرد ، وبذلك اصبحت الاحداث تحتل المرتبة الثانية من هذا التصميم بل انك تكاد تعثر اليوم على قصص خالية من الاحداث وتعاقبها ، ولا تشتمل الا على موقف واحد يظل القاص يتناوله بالتصوير والتحليل الى ان تنتهي القصة دون ان يتغير الحادث او المنظر فالتصميم الهندسي على ذلك فقد اليوم كثيرا من اهميته التاريخية في كتابة القصة الطويلة والقصيرة معا ، كما فقد

هذه القيمة ايضا التصوير المسهب التي اعتاد كتاب القصة ان يتناولوا به المسرح الذي تدور عليه حوادث قصصهم ، او البيئة التي تتم فيها هذه الحوادث في مقدمة هذه القصص .

ولقد جعلت من الاستعمار الموضوع الذي دارت حوله القصص القصيرة الاولى التي كتبتها فكتبت مجموعة (وادي الدماء) تناولت في قصصها القصيرة المظالم التي عانتها مختلف طبقات الشعب المغربي على يده وخصوصا منها الطبقات التي كانت تقيم في البوادي وعلى الشواطئ وتحترف الزراعة والرعي والصيد وبعض الحرف المتواضعة ، كل ذلك الى جانب المكر الذي كان يتدرع به الافراد الذين قذف بهم الاستعمار الى المغرب او جاعوا في ركابه بحثا عن الربح الرخيص والثراء العاجل على حساب حتى الطبقات الفقيرة من المغاربة ، ثم كتبت مجموعة اخرى تحت عنوان (صراع في ظلال الاطلس) صورت فيها وفي أحداثها جانبا آخر من الحياة في ظل الاستعمار هو جانب المقاومة والبلاء الذي أصبح على الشعب المغربي ان يخوضه في مقاومة هذا الاستعمار وضروب البطولة التي كان يتفنن المغاربة في ابدائها لاجل الصمود في وجه الاستعمار وقساوته ، بعد ان تبين لهم ان لا حياة كريمة او غير كريمة ما داموا يعيشون في ظل جبروته وطيانه .

ولا شك ان الاستعمار كان من أكبر المشاكل التي عاناها العالم العربي في النصف الاول من القرن العشرين ، وكان من المآسي التي عاناها هذا العالم وعانا بسببه رجل الشارع ورجل البادية بصفة خاصة اقصى ضروب المحن والنكبات وكانت تفاصيل هذه النكبات تدور في صمت وعلى مبعدة من اقلام القصاصين ، ولما كانت معظم هذه القصص قد كتبت في مصر يوم كنت مقيما بها فانه لم يكن لي فيها يد من ان اعمل على تصوير البيئة المغربية وبعض عاداتها وتقاليدها الى جانب تحليل النفسية المغربية المضمونة ، واقول انه لم يكن بد من ذلك لان القراء من اخواننا في الشرق الاوسط لم يكونوا يعرفون عنا نحن هنا في المغرب العربي الا نورا اقل من القليل ، وعلى ذلك فان هذه القصص نزعنا الى تصوير تفاصيل ما كان يعانيه الفرد المغربي في الحياة القاسية اللة التي فرضت عليه، وكانت هذه

القسوة تمس من حياته جوانب صغيرة كان يظن لصغرها انها بعيدة كل البعد عن ان تتأثر كل هذا التأثير البالغ بويلات الاستعمار وتصرفاته العدوانية وحينما اقول ويلات الاستعمار اقصد بالتأكيد ايضا تلك الويلات التي حملها معهم اولئك الذين جاءوا في ركابه ليزاحموا المغاربة في كسب اسباب الرزق باليادين التي تتسع واليادين التي تضيق على حد سواء .

ثم كتبت بعد ذلك قصة واقعية - هي ترجمة ذاتية - تحت عنوان ((في الطفولة)) في جزئين ، صورت فيها حياة طفل مغربي عاش فترة من حياته في مدينة منستستر بإنجلترا وجزءا آخر من هذه الطفولة في مدينة فاس بالمغرب ، اشتملت فصولها على مقارنة يقوم بها طفل بين الحياتين المختلفتين ، كما تضم كثيرا من الصور الاجتماعية عن الحياة في مدينة فاس بالمغرب ، اشتملت فصولها على مقارنة يقوم بها طفل بين الحياتين المختلفتين ، كما تضم كثيرا من الصور الاجتماعية عن الحياة في مدينة فاس خلال الثلاثينيات على نحو ما وجدها الطفل وتصورها بعد عودته الى مدينة آبائه واجداده ، ولما كانت فصول هذه القصة قد كتبت لتنشر في مجلة (رسالة المغرب) التي كانت تصدر في مدينة الرباط في مفتتح الخمسينيات ، وكانت مجلة اسبوعية - فقد عمدت الى ان اجعل من كل فصل منها وحدة متكاملة ، وان كانت مدرجة كحلقة في سلسلة الكتاب بيد ان نشرها اسبوعيا على هذه الصورة كان كفيلا بأن يضمن استمتاع القاريء بها ولو نسي حلقة سابقة نشرت منذ اسبوع او لم يكتب له الاطلاع عليها او خطر على بال الرقيب الفرنسي ان يحذف حلقة من هذه الحلقات .

واذن فقد كانت هناك عوامل خارجية خلال الحياة غير الطبيعية التي عشتها خلال شبابي هي التي فرضت علي ان الجأ الى اسلوب معين في تصميم هذا القصص الذي كتبتة في ذلك الحين ، وقد اجتهدت ما وسعني ان لا يكون لذلك اي اثر على طابعه الفني ، وعملت على ان اوفق في ذلك فعسى ان اكون .

(3) السياق : يستمد القصصيون الحوادث التي تدور حولها

قصصهم من الواقع تارة ، ومن الخيال تارة اخرى او من الواقع والخيال معا ، فهم يبتكرون احيانا هذه الحوادث ليفرغوا فيها افكارهم وعواطفهم وملاحظاتهم وخوالجهم ، وهم يتتبعون حوادث الواقع احيانا اخرى ليستنتجوا منها هذه الافكار والعواطف والخوالج ، ولذلك فان حوادث القصة فى الحالتين ليست مقصودة لذاتها ، لان القصة الادبية ليست خرافة يقصد منها سرد حوادث لا هدف لها ، وانما هي تأتي فى بعض الاحيان زبدة لدراسة دقيقة مفرغة فى هذه الحوادث ولذلك فان الاتجاه بالقصة فى طريق الوقائع والمفاجآت واثارة الفضول والاغراق فى المبالغة والمباغنة ، وجعل القصة اداة لاثارة الدهشة والاستغراب والامعان فى تقرير القاريء وايهامه ، ثم خطفه بعد ذلك فى سراديب ملتوية غير متوقعة - خروجاً بالقصة الرفيعة عن المستوى الذى يجب ان لا تحيد عنه اذا ما ارادت المحافظة على طابعها الادبي وسمو مقامها فى الملاحظة والتفكير .

والقصة ايضا ليست شريطة من اشربة الاخبار يسرد فيها الحادث تلو الآخر سردا سريعا متلاحقا ، كما تفعل النشرات الاخبارية ، وما ترويه بعض الصحف من انباء الفضائح وشدة يقظة رجال الشرطة وبراعتهم ، وجراة اللصوص ومغامراتهم والحوادث المثيرة التى لا يقصد منها غير استثارة فضول القراء ولا تمس بعد ذلك عقلهم ولا خيالهم ولا عواطفهم من قريب او بعيد وانما القصة هي التى تنساب فى سياقها متمهلة وهي تصور وتحلل وتلاحظ وتفكر لتخرج منها وقد ايقظت فيك عاطفة او جلت لك غامضا ، او استثارت انتباهك الى ما يكتنفك من معاني كبيرة او صغيرة اعتدنا ان نمر بها مر الكرام وجعلتك اقرب الى فهم الطبيعة الانسانية بما تشتمل عليه من فضائل العمالقة او نقائص الاقزام ، ويكون الاكثار من سرد الحوادث دائما على حساب التأمل وعمق العاطفة ونصاعة التفكير وحسن التناول ، لان كثرة السرد تصرف عن كل ذلك صرفا .

ولذلك فان القصة الادبية اليوم تتجه الى التخفف ما امكن من الحوادث وتكاد تتحول فى بعض الاحيان الى دراسة علمية او نفسية ، ولا تكاد تشتمل فى بعض الاحيان الاخرى على أكثر من موقف او مشهد او حادث واحد مجرد ، ينسج حوله الكاتب قصته الادبية كاملة .

فالاسلوب القصصي بهذا المعنى يرتفع بفن القصة الى مستوى الذروة في عالم الادب لانه فن سهل التناول ، خال من التعقيد الذي قد يعتور الشعر ومن فجاجة الدراسة التي قد تعتور المقالة فلفه القصة السهلة واسلوبها السلس والحرية الوسعة التي تتمتع بها وقربها من الحياة الواقعية وسمو مقصدها وتنويعها الدائم - عادة - بالفضائل الانسانية كالحب والوفاء والتضحية والنبل .. الخ ، كل ذلك يجعلها اقرب الى قلوب القراء وادنى الى استجلابهم وارضائهم ولذلك فان من الملاحظ ان قراءة القصة اقدر من القراءة الاخرى على الانصراف الى الاستمتاع بقراءتها لساعات اطول من الساعات التي ينصرف فيها غيرهم من القراء الى الفنون الادبية الاخرى ، ولذلك ايضا فان من غير المستغرب ان تستهوي اكبر عدد من القراء على مختلف مشاربهم في مستوى الذوق والتفكير .

(4) التحليل : كان للتقدم الذي اصابه علم النفس الحديث اثره الواضح على كتابة القصة الادبية فقد مكن كتاب هذه القصة من التعمق في فهم دقائق النفس الانسانية سواء في حلها او في يقظتها وفي نائرها بالبيئة والوراثة والمجتمع والتربية ولذلك فلا غرابة ان يكون كتاب القصص قد استفادوا استفادة كبيرة من علم النفس فاستطاعوا بواسطته ان يغوصوا في النفس الانسانية ويلموا ببواطن ما يعتمل فيها سواء كان ذلك يتعلق بالشعور او باللا شعور ، بما يطفح فوق السطح او ما يرسب في الاعماق وان يمكنهم ذلك من ان يضعوا ايديهم بوضوح على النماذج البشرية التي جعلوا منها ابطلا لهذه القصص ، وان يتمكنوا من تحليل النفس الانسانية تحليلا دقيقا شاملا .

واذا كان هناك اهتمام خاص في الادب العالمي عامة وفي الادب العربي خاصة بالطبقات الكادحة والمغلوبين على امرهم والذين شردوا من ديارهم ، فان ذلك طبيعي ومعقول ، لان الفرد العربي في القرن العشرين لا يزال نهبا للظلم والكدر والتشرد ، ويعاني من ذلك ضروبا لعله لم يعرف لها مثيلا في التاريخ ، يضاف الى ذلك ان من شأن انتشار مبادئ الانصاف والعدالة والمساواة والتطلع الى حياة افضل، ان يبعث الادب القصصي الى البحث عن ابطاله بين الطبقات الشعبية التي تكون بدون ريب السواد

الاعظم من الشعب في سائر البلاد العربية ويوشك ان ينعكس ذلك على فنون الادب العربي عموما ، وفن القصص منه خاصة ، بعد ان جرفه التيه في معركة استرجاع مجد الماضي الضائع وحرية الحاضر المسلوقة ، ولا شك ان في ذلك انعكاسا للظروف التي يجتازها العالم العربي من ناحية ، والظروف التي تكتنف الشباب في مختلف انحاء العالم من ناحية اخرى .

بيد انني اود ان الاحظ هنا ملاحظتين :

اولاهما : ان هناك طبقة من الكتاب تفرق في الاتجاه الى التحليل النفسي اغراقا يكاد يحول القصة الى درس مكشوف في علم النفس ، وان كان الاتجاه لم يؤثر الى الآن تأثيرا كبيرا على القصة العربية ، وقد يرجع ذلك الى ان هذا الاتجاه يمثل ضربا من ضروب الرفاهية لعل العالم العربي لا يزال في غنى عنها .

وثانيتهما : اقتناص النماذج البشرية التي تقوم بدور البطولة في هذه القصص ، والتي توضع على مشرحة التحليل النفسي ، من الذين تتسم نفسياتهم بالشذوذ والعقد النفسية ، والذهاب فريسة للتعاسة المادية والروحية ، والتدهور الاجتماعي ، والفقر وبمختلف العاهات التي سلطت على هذه الطبقات الفقيرة ويبدو ان هذا طبيعي ايضا فان ادب القصة يجب ان يعكس على مرآته هذه الحياة ، ولكن الامعان في ذلك والاقتصار عليه والانصراف اليه من جوانب الحياة الاخرى في العالم العربي المعاصر، يوشك ان يجعل من هذا الادب القصصي فنا طافحا بالنقمة والمرارة والقنوط يردد نغمة واحدة متكررة تكاد تخل بالتوازن العاطفي وتفتح ابواب الخير على مصاريعها ، وتطمس في نفس الوقت - من حيث تدري ولا تدري - معالم التطلع ومواصلة العمل المنطقي في رجاء ، لا مجرد التخبط في ياس .

(5) التصوير : واذا كان التحليل يعني بابرار ما يعتمل في باطن النفس الانسانية فان التصوير القصصي يعني بابرار ما يحيط بهذه النفس الانسانية في العالم الخارجي ، وهو يستند الى الوصف والتعليل ودقة الملاحظة ومحاولة النفاذ في نفس الوقت الى العمق ، لا الاقتصار على السطح ، مع التجسيم والتلوين والكشف عن الاسرار الكامنة والقاء الضوء

على الخبايا فى كل ما يتعلق بجمال او قبح ، بخير او شر بصادق او كاذب باصيل او زائف . . الخ ولذلك فان فن التصوير فى القصة ليس فنا فوتوغرافيا ينقل ما يبدو كما يبدو دون زيادة ولا نقصان ، وانما هو ادنى الى فن الرسم يعتمد فى ابرازه وفى ألوانه وابعاده وتعمقه على الكلمة الصائبة ، والعبارة المشرفة التى نقتنص المعنى المراد كله بدقة ، عن طريق التعبير المناسب الجميل .

ولا يقتصر التصوير على الاهتمام بالمظاهر المادية التى تتمثل فى البيئات الطبيعية والاجتماعية وما يضطرب فى هذه البيئات من أناس أو حيوانات أو طيور أو أدوات أو وسائل ، وانما يعمل التصوير على ان ينفذ الى الاعماق ليبرزها لتظل من خلف الاشياء الظاهرة ولذلك فان التصوير ايضا يشمل المعاني المجردة لا الاشياء المادية وحدها فهو وثيق الصلة بالتحليل النفسى آنف الذكر ولذلك فانه يصدق هنا ايضا ما عرضت له فى موضوع التحليل الذى لا يعد ان يكون تصويرا باطنيا ، من ان الاختصار على الصور القائمة يحشر الحياة الواسعة فى زاوية ضيقة ويحجر افقا متراميا ، وينشر فى نفوس القراء الكآبة واليأس وبالتالي الاختلال العاطفي والتخبط فان الدنيا طاغية - مهما تصطحب النكبات والصور الداكنة - بالوان من الصور لا تخلو من بهجة وحبور ولا ينبغي ان يتحول عمق شعورنا بالنقص الى احلال اليأس فى هذا الشعور محل الرجاء ، ولا ان يطمس فينا معالم الادراك السليم فتميل الى القول بان البلاد العربية غير ناهضة ولا متحررة ، ولا باحثة فى صدق عن اسباب حياة افضل ، وتختلف فيها على التوالي الطبقات الواعية طبقات اعمق ادراكا واوسع علما واراهف وعيا ، ولا يحسن ان يفتننا عصر التمهض الذى نجتازه عن عصر الاستقرار والتألق الذى نسعى اليه ، ولن نبريء نفوسنا من التجني اذا ما مضينا نقدم الى قرائنا الصور التى تطفح بالمآسى المفزعة ، بعضها ظلمات فوق بعض فاننا اذا كنا فى حاجة ماسة الى معرفة اسباب القنوط لفي حاجة امس الى معرفة اسباب الرجاء ، وهذا هو الاتجاه الذى احسب ان من الواجب على كتاب القصص العرب ان يتولوه فيما يقدمونه الى قرائهم فى هذه القصص من صور نابضة بالحياة فى اوسع معانيها لا فى حيز ضيق فقط من هذه المعاني فالقصة كما راينا تكاد تكون اقرب فنون الادب الى التمتع بالحرية والمرونة والحياة .

القصر الكبير أول حاضرة في المغرب

عبد العزيز بن عبد الله

أسس الفينيقيون مدينة ليكس Lix (us) عام 1101 قبل الميلاد وهي أول حاضرة عرفها المغرب بالإضافة الى مدينة أوتيكا Utique قرب تونس الخضراء التي شيدت في نفس السنة ، وقد أقيمت على انقاض ليكس في عصر الامبراطورية الرومانية الاولى (Haut-Empire) قبل الميلاد مدينة طارفة سميت ليكسوس ما لبثت ان تجددت في عهد البزنطيين Bas-Empire ثم قامت في العهد الاسلامي مدينة تشمش (✱) في الطبقة الرابعة من نفس الموقع غير ان الرومان الذين كانت سياستهم التوسعية تتدرج في مراحل من الشاطئ الى قلب البلاد — ما لبثوا ان أسسوا (كما أسس قبلهم الفينيقيون عاصمة قرطاج Carthage عام 814 قبل الميلاد) مدينة Oppidum Novum وهي القصر الكبير التي يمكن أن تعتبر أول حاضرة في المغرب ما زالت قائمة

ومن المدن الاثرية الهامة ليكسوس الواقعة على مسافة أربعة كلم . شمالي العرائش وعلى الضفة اليمنى لنهر لوكوس وهي فينيقية الاصل احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهي معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس أو تشمس التي يقال بأن حدائق هسبيريدس Hespérides ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها في الجزر الخالدات وهي الجزر « السعيدة » السبع التي احتلها الاسبان في القرن الخامس عشر، ويرى علماء الآثار أن هذه المدينة تحتوي على كنوز فنية لا تقدر لذلك أولى المسؤولين من الاثريين هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة وقد عثر على البناء الفينيقي في الطبقة السفلى على عمق بضعة أمتار وفوقه البناء الروماني على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحراة وفنائنه ، اما النماذج الاثرية القديمة فهي اوان من الفخار تطور صنعها فدهنت أيام الفينيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل متنوعة كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوي على غرف مستطيلة كالغرف المغربية الحالية وأرضها مبلطة بالفسيفساء المرمرى وهذه المدينة التي تنقسم الى عدة احياء كل حي بسوره الخاص تعتبر (هي ومدينة شالة) المدينتين الوحيدتين الواقعتين في مركز بحري هام وكانت مستودعاتها الغنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيت .

وقد سبق لنا ان نظمنا قصيدة اشرنا فيها الى هذه المدن الرومانيّة بعنوان « نوفوم » أو القصر الكبير ، جاء فيها :

« نوفوم » (1) ثانية الحواضر ارغلي في العزبين توائم الاقمار
اختارك الرومان حاضرة الهنا نزاحة عن لكسس وقفار
مهد الحضارة جنة الدنيا التي عرفت بـ « هسبريد » في الامصار
جرت ذيول الفخر في خيلائها فغدت « وليلي » — طمرة الاغمار
بذت عواصم «تنجس» و « تمودة » وتموسيدا انعم بها من دار

ما ان بدا قصر العوارف في الدجى الا بدا فيض من الانوار
او اينعت وضح النهار كرائم الا سما ومضى من الاسرار
يا بلدة اكرم بها من بلدة يا موطن الاطهار والاخيار
اليمن نبع فيضه واليسر ثمر ت عينه والسيل خير نضار
الخير انت شعاره والنبيل ان ت دثاره والبيت خير مزار
العقد انت نظامه والفضل ان ت جماعه والجود خير منار
فيك الاجنة راضعات للتقى فيك الجنان لواقع الازهار

وقد كانت مدينة القصر الكبير مهبط رجالات العلم والفكر والتصوف في افريقيا الشمالية في مختلف العصور ومن مظاهر رفعتها تعدد الاسماء التي اطلقت عليها ومنها قصر كتامة وسوق كتامة وقصر دنهاجة (2) وقصر عبد الكريم (3) أو ابن عبد الكريم أو القصر ، ويرجع اطلاق قصر كتامة الى مجدد بناء المدينة عبد الكريم الكتامي (4) وقد أشار البكري (ص 110) الى أن كتامة كانت حاضرة ادريس بن القاسم بن ابراهيم على نهر أولكس ، ولعل من مجالي هذا الصيت انصباب اسم « قصر كتامة » على مدينة بالجزيرة الخضراء (حسب ياقوت) والقصر الكبير احدي دوائر اقليم تطوان تضم جماعات بوجديان والعوامرة وقصر ابجير والقلعة والطلبة وتاطفت وريسانة ويظهر أن معالم المدينة قد توالى تجديدها حتى قيل بأن المنصور الموحي هو بانيها (5) ولا نطيل بسرد الاحداث الحضارية التي كان القصر الكبير مسرحا لها في شتى المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ويكفي دليلا على غزارة مادة هذا الموضوع كثرة من تناوله بالبحث والتمحيص في مختلف العصور (6) ويرى بعض المؤرخين القدامى مثل بلين Pline ان ناحية القصر الكبير هي مركز الحدائق العذنية المشهورة في التاريخ باسم Hespérides المحتوية على تفاح الخلود حسب الاساطير وبعضهم جعلها في جزر ساحل الاطلنطيك كالجزر الخالدات وقد اطنب هؤلاء المؤرخون في التنويه بخصب هذا الاقليم الذي كان ينتج نسبة عالية من المحاصيل

ببذور قليلة ويرجع ذلك الى توافر الأسمدة الكيماوية الطبيعية التي خلفها البحر عند انحساره بعد أن غمر هذه الاقاليم الى ممر تازة .

ومن جملة من ابرز أهمية القصر كمركز اقتصادي صاحب مـرآة المحاسن (ص 142) وقد كانت تشكل في سوس الأدنى (7) في القرن الثالث الهجري ممر القوافل التجارية (8) التي كانت تصل الاندلس وبصرة المغرب وبصرة العراق عن طريق افريقية أو سـجلـمـاسة (9) وكان نهر لكوس ميدانا لأعظم معركة عرفها المغرب هي معركة وادي المخازن التي فقد البرتغال اثرها استقلاله طوال نيف وستين سنة وقد سمي هذا النهر بأسمير (10) وهو اسم أطلق على وادي أبي رقرق (11) كما يطلق الآن على نهر في منتصف الطريق بين تطوان وسبتة وقد انتشرت حول القصر الكبير مدن وقرى مثل العرائش (12) وفروجة (13) والبصرة على نفس المسافة (ما بين 30 ميلا و 30 كيلومترا) (14) وهو ما سمي بالمرحلة وكانت البصرة أهم مركز لصنع الكتان في المغرب (15) تسمى أيضا بالحمراء لحمرة ترابها (16) وبيصرة الذبان لوفرة البانها وامتازت الى جانب ثرائها الاقتصادي بجمال نسائها (الذي فاق جمال نساء المغرب) وروعة عمرانها وتكاثر الاندلسيين والبرابرة في رحابها وقد أسست في نفس الوقت الذي تم فيه تجديد بناء « أصيلا » (17) وهدمها أبو الفتوح صاحب افريقية من قبل العزيز بالله عام 368هـ (18) ولعل مما يثير الانتباه في تاريخ العمران بالمغرب تماس الحواضر في مسافات لا تزيد على مرحلة وقد لاحظ ابن حوقل ان بين البصرة ومدينة الاقلام (19) اقل من مرحلة كما لاحظ ابن عذاري ان بينها وبين القصر مرحلة وكذلك مدينة جنيارة (20) وماسينة أو ما سـنة وهي مدينة عيسى بن حسن الحجام (21) وقد أشير الى مدينة أخرى بأعلى الجبل تسمى «كرت» تبعد عن البصرة بمرحلة وكانت خربة أيام البكري (22) ومدينة الخجر جنوبي البصرة قرب ماسنة أسسها الادارسة ، ولذاك اختار الادارسة البصرة عاصمة لهم ومرسى لنشاطهم الاقتصادي (23) كما كانت امتدادا لمركز قديم اختير في عهد الرومان بفضل موقعه المثالي وهو اما Valentia أو Banassa (24) وقبل أن نستعرض بعض رجالات هذه المنطقة نشير الى مدينة القصر الصغير (25) التي تعددت أسماؤها كذلك وهي قصر مصمودة (26) وقصر الهجاز حيث كان المجاهدون يهرون الى

الاندلس (27) وقد نزل بها المنصور الموحيدي عام 586 م (28) وبناها قبل ذلك مكان قصر مصمودة (29) واستولى عليها البرتغال عام 862 هـ (أو 863 م (30) حيث أقاموا برج سينار (31) ثم أخلوها عام 1551 م (958 هـ) (32) ويتجلى من فسيفساء العلماء الذين كان القصر مسقط رؤوسهم أو مهبطا لهم ان رواد الفكر من المغرب العربي والاندلس خاصة ومن الشرق عامة انتجعوا رحابه في مختلف العصور وهاكم نماذج لهذه النخبة :

— ابراهيم بن أحمد بن محمد بن علي الزواري التونسي الذي استوطن القصر واتخذ مركزا للبحث والتدريس وتردد عليه الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وقد توفي بفاس عام 961 هـ / 1553 م بعد أن عمر مائة وستا وثلاثين سنة (33) .

— ابراهيم بن علي بن عبد الرحمن المعروف بالصياد القصري السريفي (1008 هـ / 1600 م) (34) .

— ابن الخباز عبد الرحمن بن محمد القصري له « بذل العلم والسود في شرح تفصيل العقد » (خم 5942 / 887) (أي الخزانة الملكية بالرباط)

— ابن رشيق عبد الوهاب بن يوسف بن محمد بن خلف ولد عام 587 هـ بقصر عبد الكريم وتوفي عام 650 هـ / 1252 م بسفح جبل المقطم اخذ عن بلديه عبد الجليل صاحب « شعب الايمان » وكان متصدرا بالجامع العتيق بمصر (35) .

— ابن عسكر محمد بن عبد الله بن عمر (986 هـ / 1578 م) (36) صاحب « دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير مشائخ القرن العاشر » (خق = خزانة القرويين) 1300 خع أي الخزانة العامة بالرباط 386) طبعة فاس 1309 هـ / 1891 م .

— ابن عطية يونس الونشريسي قاض قصر كتامة وشيخ ابن الخطيب وهو من رجالات القرن الثامن الهجري (37) :

- ابن غازي العثماني المكناسي محمد بن أحمد الهبطي (919 هـ / 1513 هـ) أصله من بني عثمان من كتامة قرب القصر الكبير .
- ابن مخلوف عبد الله بن أبي مدين شعيب أصله أيضا من بني عثمان كان من خاصة يوسف بن يعقوب المريني وأبي ثابت مكلفا بوضع العلامة على الرسائل وحساب الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر قتل بدسياسة بني وقاص .
- أبو بكر بن عثمان بن صالح المسراتي (38) المراكشي قاضي انفا بتامسنا وقصر كتامة وأزمور وحصن القاهرة بالأطلس ولد في حدود 710 هـ / 1310 م .
- أحمد بن إبراهيم الجرفطي مفتي القصر الكبير (39) وتوجد مخطوطة في خم 5483 فيها « تقاييد في الأوقاف » منسوبة إلى أحمد القصري .
- أحمد بن محمد الطرون بن عبد الرحمن الفاسي القصري (40) (961 هـ / 1553 م)
- أحمد بن محمد بن هابيل العبدري القصري المعروف بالاشقر (41)
- الجيلاني بن عبد السلام الغرابلي القصري (1074 هـ / 1663 م .
- حسونة القصري الرباطي كان تاجرا بتونس (42) (1199 هـ) / 1784 م .
- سالم القصري له « الروض الناشر على نظم الامام ابن عاشر » (مكتبة تطوان 120) .
- سليمان بن علي بن سعيد القصري الغماري أبو الربيع قرأ بفاس وأقام بالاسكندرية ثم المدينة المنورة حيث توفي عام (714 هـ / 1314 م) .
- عبد الجليل بن موسى القصري شيخ ابن رشيق المذكور الذي توفي عام 650 هـ له « شعب الايمان » خم = 4066 وخع 2325 د (146 ورقة مبتورة الاول)

— عبد الرحمن بن محمد بن أبي المحاسن يوسف الفاسي (43) ولد عام 972 هـ بالقصر وتوفي عام 1036 هـ / 1626 م .

— عبد الرحمن التنتلي القصري المعروف بالفرمي له شرح على كتاب « الضبط في القراءات » لمحمد الخراز خم 2248 د (مجموع 201 — 219) وقد أشار صاحب «شجرة النور» (ص 299) الى عبد الرحمن ابن محمد القصري كما أشار الأستاذ محمد داود في تاريخ تطوان (ج 2 ص 286) الى عبد الرحمن بن عبد السلام القصري .

— عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري (44) .

— عبد الرحمن بن محمد القصري له « بذل العلم والود في شرح تفصيل العقد » (والتفصيل لابن غازي العثماني القصري) ملحق كشف الظنون م 1 ص 174) / المكتبة الوطنية بتونس (3622 م) .

— عبد الكريم بن عمران القصري قاضي مراكش (45)

— عبد الله بن عبد الحق الأنصاري تربي بقصر عبد الكريم (46)

— عبد الله بن علي القصري عامل سلا (47)

— عبد الله بن عبد الواحد الورياجلي عالم قصر كتامة (48)

— عبد الله بن محمد الحضرمي القصري (49)

— عبد الواحد بن طلحة العروسي من أمراء بني عبد الحميد أصحاب قصر كتامة الذين انقضوا حوالي 950 هـ (مرآت المحاسن) وهو صاحب الشيخ أبي الرواين (50)

— العربي بن رحمون القصري (تاريخ تطوان ج 2 ص 305)

— علي بن أحمد بن أبي قوة بن إبراهيم بن سلمة الأزدي الداني (51)

قاضي قصر كتامة كان محدثا كثيرا ضابطا ثقة له رد على ابن غرسية في رسالته الشعبية توفي بمراكش 608 هـ / 1211 م وقد كتب في تفضيل العجم على العرب ابن غرسية هذا كما كتب ابن عرس وأبو عامر بن عبد الله السبكي (52) .

— علي بن خلف المشهور ببو غالب الانصاري السلمي دفن في القصر (53) توفي عام 568 هـ (أو 573 م / 1177 م)

— علي بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالمراكشي الأقاوي من بني صالح بسوس قاضي القصر الكبير في عهد السلطان مولاي رشيد توفي بمكناسة عام 1090 هـ / 1675 م

— علي بن يوسف أبي المحاسن الفاسي (54) توفي بالقصر عام 1030 هـ 1621 م

— عيسى بن الحسن المصباحي أبو مهدي دفن الدعاع على وادي مضامن ناحية القصر استشهد خلال وقعة الرملة بأبي غاص (فحص طنجة قرب قنطرة عصماء عام 982 هـ / 1574 م .

— عيسى بن مريم المتنبّي القصري (55)

— فتح بن موسى بن حماد نجم الدين الأموي الجزيري القصري الشافعي ولد بالجزيرة الخضراء ودخل بغداد ودمشق ومصر وولي قضاء أسبوط ودرس بالنظامية (56) (663 هـ / 1265 م)

مصنفاته :

(1) نظم المفصل للزمخشري

(2) الوصول الى السؤل (المجلد الأول في نظم سيرة ابن هشام 8183 بيتا) يوجد مجلده الخامس في خم 1668 .

- (3) نظم اشارات ابن سينا .
- (4) منظومة في العروض
- محمد بن ابراهيم القصري الشدادي (57)
- محمد بن ابراهيم بن يوسف القصري السبتي (58)
- محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي الشافعي أصله من قصر كتامة (59) له شيوخ ببغداد ودمشق والأندلس ومصر وهو صاحب الوتریات فی المدح النبوی ورد علی مراكش صدر 655 هـ وأقام بها بعد ذلك توفي بتونس عام 663 هـ / 1264 م وقد خمس وترياته محمد الفاطمي الصقلي (طبعت بفاس)
- محمد القصري الوصي المريني على فاس (60)
- محمد بن عبد الرحمن القصري (61)
- محمد بن عبد الله القنيطري القصري (62) (1062 هـ / 1652 م) له تكمیل « زهر الرياض في رد ما شنعه القاضي عياض » (لمحمد بن محمد بن عبد الله الخيزري) خم 28 (ضمن مجموع)
- محمد بن عبد المجيد اقصابي (1364 هـ / 1945 م) عارف بالقراءات أتمها في القصر الكبير (63) له عدة مصنفات في التوقيت والقراءات والحساب وتاريخ المغرب والنحو والفرائض والتصوف والعروض .
- محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن الشيخ التاودي بن سودة (64) قاضي قصر كتامة (1299 هـ / 1881 م .
- محمد بن علي الخطيب القصري (65) (955 هـ / 1549 م) راجع محمد بن علي القصري في عنوان الدراية ص 108 .

- يونس بن طربية القصري (66) من قصر كتامة تولى قضاء طرابلس الغرب والتدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة عام 641 هـ/1243م. ومن البصريين الذين عاشوا في البصرة أو تناسلوا من أهلها :
- ابراهيم بن أحمد البصري السبتي (67) (513 هـ / 1119 م)
- أحمد بن حذافة البصري (68)
- ابن رشونة أبو هارون عمران بن عبد الله العمري البصري (69) (313 هـ / 924 — 925 م)
- سعيد بن خلف الله بن ادريس بن سلمان البصري (70).
- عثمان بن سعيد بن حمادة البصري (71)
- القاسم بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل والي البصرة (72).
- يحيى بن خلف الصدفى السبتي أصله من بصرة المغرب رحل إلى المشرق وحدث كثيرا ودخل الاندلس مجاهدا وتاجرا وتوفي بسببة (73) وهناك عائلات في المغرب تحمل هذه الصفة كعائلة بصري بمكناس (74) تلك عجالة نستشف من خلالها مدى ضخامة الدور الذي قامته مدينة القصر الكبير كأول مدينة في المغرب .

(+) راجع إفريقيا الشمالية للادريسي (ص108) - الاستقصا ج 2 ص 15 - المغرب للبكري ص 112 (سماها تشومس وهي مدينة ميمون بن القاسم الادريسي .

(1) Tissot - Géographie... p. 162 et 343

الذي لاحظ (ص 5) ان مدينة القصر الكبير مبنية في معظمها بأدوات ازلية العهد وتوجد على احدى قواعد منارة الجامع الكبير كتابة كشفت منذ عام 1871 م وهي تشهد بوجود ضريح في ذلك المكان .

Mouliéras, Le Maroc inconnu T. 2 - p. 537

(2) خلافا للبكري ووفقا لابن خلدون في العبر ج 1 ص 291 من الترجمة .

(3) وصف افريقيا للادريسي ص 51 وقد التبس الامر على ياقوت الحموي في معجم البلدان (ج 7 ص 106) حيث ذكر أن قصر عبد الكريم يقع قرب سبتة ولعله يقصد القصر الصغير .

(4) دوكانستر (ج 1 ص 175) نقلا عن البكري والافرانسي .

(5) راجع جغرافية الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي Léon l'Africain (خلافا لصاحب الاستقصا ج 1 ص 187) وقد حدد الادريسي (افريقيا الشمالية ص 52) موقع مدينة بين تاورة وبني زياد على مسافة ربع ميل من مكناسة تسمى القصر ولعله يعني مدينة اخرى كانت تحمل نفس الاسم لا سيما وأنه اشار ص 53 الى قصر عبد الكريم على نهر اولكس.

(6) راجع تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جوليان (ص 474 و 736) والوثائق المغربية .

Archives marocaines T. 2 - p. 1 (n° 2)

Hesperis 1937 - p. 321 (n° 4)

Sources inédites de l'histoire du Maroc

Saadiens - 1ère Série

T. 1 p. 37 - 668

T. 2 p. 277 - 467

T. 3 (Introduction et p. 580).

وقد ذم القصر لاسباب شخصية الشريف محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي دفين المدينة المنورة (1311 هـ) .

(7) سوس الادنى يمتد من ملوية الى ام الربيع والاقصى من درن الى وادي نول (الجدوة ص 8) 6 وربما شمل سهول الاطلنطيك من الاطلس الى جبال الريف بالبحر المتوسط (روبير مونطاني - البربر والمغزن ص 27) .

(8) لاحظ ابن خرداذبة في جغرافيته في القرن الثالث الهجري ان التجار الصقالبة كانوا يجولون خلال العالم مارين بسوس الادنى عن طريق طنجة ومن هناك يتجهون الى افريقية ومصر .

(9) اطلق هذا الاسم على نهر باقصى جنوب المغرب (راجع ما ورد عن عرب الخلط في لكوس في Archives marocaines T. 4 et T. 5

(10) راجع نزهة المشتاق للادريسي (وصف افريقيا ص 47) والمغرب في بلاد افريقية والمغرب (ص 106) وهو جزء من المسالك طبع بالجزائر عام 1911 بتحقيق دوسلان .

(11) راجع كتاب الجغرافية لمحمد بن ابي بكر الزهري (ص 192) طبعة دمشق 1968 .

- (12) تحدثت مصادر كثيرة عن العرائش من أهمها الذخيرة السنية (ص 97) التي ذكرت انها أسست عام 657 هـ على يد يوسف بن علي ، والسلوة (ج 1 ص 266) ونشر المثنائي (ج 2 ص 137) والاستقصا ج 3 ص 105 (الذي أشار الى استيلاء الاسبان عليها باعانة الشيخ المامون عام 1019 هـ) و (ج 2 ص 15 و ج 4 ص 34) حيث أرخ تحريرها ب 1100 هـ والاتفاقات الدولية للاستاذ Caille (ص 278) وقد طالبت بها اسبانيا أيام المنصور السعدي (دوكا ستر ج 2 ص 82 - قسم فرنسا) حيث تدخل الترك لحمل المغرب على عدم تسليمها (ص 98 و 114) .
- (13) قرية أشار اليها الزياتي في الترجمانة الكبرى (ص 476) .
- (14) ذكر الادريسي في افريقيا الشمالية (ص 109) ان ما بين البصرة وتشمش اقل من مرحلة وقد أشار البكري (ص 114) الى اصادة التي تبعد عن يجاجين بستة أميال فقط في قبيلة بني مسارة .
- (15) البيان المغرب لابن عذارى (ج 1 ص 133 و 330 الذي لاحظ انها على وادي سبو) تاريخ ابن خلدون (ج 6 ص 156) وصف افريقيا للادريسي (ص 109) معجم البلدان لياقوت (ج 4 ص 440) .
- (16) الغرب للبكري (ص 110) .
- (17) اوازيلا (راجع وصف افريقيا الشمالية للادريسي ص 109) اوزاييلي (معجم البلدان ج 1 ص 217) .
- (18) البيان المغرب (ج 1 ص 330) .
- (19) صاحبها هو أحمد بن عيسى جنون الذي نقل عام 364 الى الاندلس مع حسن بن جنون واليها ينتمي محمد بن سلطان الاقلامي (راجع ابن عذارى ج 2 ص 369) ومعجم البلدان (ج 1 ص 316) ووصف افريقيا الشمالية للادريسي ص 105 .
- (20) الذخيرة السنية ومنها أبو عمران الجنياري المتوفى عام 649 هـ أو 642 م (ص 67) ومحمد الجنياري (الجذوة ص 147) ودرة الحجال ج 1 ص 287) .
- (21) حسبما لاحظ البكري في المغرب ص 111 حيث أكد أيضا (ص 155) ان ماسينة تبعد من فاس بمرحلة ، (افريقيا الشمالية للادريسي ص 109) .
- (22) الذي ضبطها بالطاء (كرط) واعتبرها من مراسي نكور (ص 90) وقد أشار اليها الادريسي في وصف افريقيا ص 111 .
- (23) Hesperes 2 (fascicule 1 - 2) 1955
- (24) Godard - Description p. 77
- (26) تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جوليان ص 466 / دوکاستر السعديون - السلسلة الاولى (م 1 ص 23 - 583 / م 2 ص 286 - 308 / م 3 (المقدمة) .

- (27) البيان لابن عذارى ج 3 ص 92 ق 178 / المعجب للمراكشي ص 353 / النزهة
للادريسي طبع ليدن ص 166 .
- (28) دوکاستر فی الوثائق الفميسة ج 1 ص 175 نقلا عن البكري والافرائي صاحب الصفوة
- (29) البيان لابن عذارى ج 4 ص 134 .
- (30) Godard - Description p. 57
- (31) الاعلام للمراكشي ج 6 ص 36 (خ) (اي مخطوط) .
- (32) دوکاستر السعديون م 4 ص 338 (مع صورة للبرج) .
- (33) وثائق دوکاستر ج 1 ص 637 (قسم فرنسا) .
- (34) راجع الابتهاج والممتع والمنح الصافية وتحفة اهل الصديقية والسلوة ومراة
المحاسن .
- (35) السلوة ج 2 ص 325 / الروض لابن عيشون الشراط / نشر المثاني ج 1 ص 52
- (36) تكملة الصلة لابن الابار ج 3 ص 741 .
- (37) تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني المتوفى عام 680 هـ / 1281 م طبعة بغداد 1377 هـ /
1957 م ص 162 .
- (38) نزهة الحادي ص 76 / الاستقصا ج 3 ص 38 / تاريخ بروكلمان ج 2 ص 678 .
- (39) النفح ج 7 ص 271 .
- (40) نفاضة الجراب لابن الخطيب (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 102 خ) .
- (41) الاعلام للمراكشي ج 6 ص 473 (خ) .
- (42) الدوحة لابن عسكر ص 31 .
- (44) درة الحجال ج 1 ص 88 / السلوة ج 3 ص 250
- (45) تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني المتوفى عام 680 هـ / 1281 م (ص 162 طبعة المجمع
العلمي العراقي 1377 هـ / 1957 م)
- (46) الاغتباط لبوجدان ج 2 ص 43
- (47) الدرر الكامنة ج 2 ص 254
- (48) تكملة الصلة لابن الابار ج 3 ص 653
- (49) ملحق بروكلمان ج 2 ص 681
- (50) نيل الابتهاج ص 153

- (51) تكملة التكملة ص 161
- (52) نيل الابتهاج ص 124
- (53) التكملة ص 529
- (54) وثائق دوكانستر - السعديون ج 3 السلسلة الاولى ص 94 - 1 - 558
- (55) درة الجبال ج 2 ص 341
- (56) التكملة ص 529
- (57) الاستقصا ج 2 ص 176
- (58) الذيل والتكملة لابن عبد الملك ق 5 ص 154 / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 149 (خ)
- (59) كشف الظنون ج 1 / ص 417
- (60) الجذوة ص 297 / التشوف ص 211 / صلة الصلة ص 99 / الاستقصا ج 1 ص 187
تكملة الصلة ج 3 ص 672 / السلوة ج 2 ص 24 / الاعلام للمراكشي ج 1 ص 173
- (61) الاعلام للمراكشي ج 7 ص 83 (خ) عن العنفسوة
- (62) مرآة المحاسن ص 151 / النشرح 1 ص 139 / شجرة النور ص 297
- (63) الدوحة ص 27 ومن جملة المتنبيين من اهالي شمالي المغرب محمد الكتامي
المعروف بابن أبي الطواجين قاتل المولى عبد السلام بن مشيش وقد ثار بجبال
غمارة عام 625 هـ
- (64) بنية الوعاة ص 372
- (65) طبقات القراء ص 47
- (66) درة الجبال ج 1 ص 279
- (67) الاعلام للمراكشي ج 3 ص 152 بعضها نقلا عن الذيل والتكملة / عبد الله كنون -
مجلة البحث العلمي عدد 7 (العام الثالث)
- (68) دوكانستر - الوثائق الفميسة - السعديون - السلسلة الاولى م 1 ص 149
- (69) الوثائق المغربية ج 24 ص 175 Archives marocaines
- (70) النشر ج 1 ص 205 / بروكلمان ج 2 ص 97
- (71) من اعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 173
- (72) السلوة ج 1 ص 121 / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 79 (خ)
- (73) الجذوة ص 151

- (74) الذيل والتكملة / تكملة الصلة لابن الأبار ج 3 ص 741
- (75) فهرسة عياض ص 68
- (76) من بصرة المغرب (مدارك عياض ص 83)
- (77) مدارك عياض ص 83
- (78) مدارك عياض 333
- (80) الحلة السيرة ج 1 ص 131 طبعة القاهرة 1963
- (81) تاريخ علماء الأندلس لابن الغرضي طبع مجريد ج 2 ص 61 عام 1891 م / 1309 هـ
- (82) أمثال العربي بصرى (1148 هـ / 1735 م) (تاريخ الضعيف ص 110 ودوحة الناشر ص 63 ومحمد بن محمد البصري المكناسي (راجع ابن بصرى) .

قصة

وأخرجها من الجنة

عبد الكريم غلاب

خافته كانت النقرة على الباب .

ومن عادتي الا آمر بالدخول ، فالذين ينقرون باب مكتبي يعرفون اني لا امانع في دخولهم ، والذين يعرفون اني قد امانع لا ينقرون الباب . واغلب ما تطرق الباب يد قوية تستطيع ان تستلنى من اوراقى فارفع راسى مستفهما . ولكن النقرة هذه المرة كانت خافته على استحياء ، لم أهتم لها ، او هي لم تستطع ان تلفت نظري ، فتماديت فى العمل . تخلصت اليد الناعمة من استحيائها فعادت تنقر على الباب بأكثر قوة ، ولكنها مع ذلك ظلت خافته لم يتردد لها غير صدى ضعيف فى أرجاء المكتب .

رفعت عيني — وبهما شوق الى الاستمرار فى تجاوب كامل مع القلم والورق — نحو الباب تنتظران . ظل الباب فى هدوئه لا يريم . سرعان ما

تخلصت من فضولي فعدت الى اوراقى ، لكن الطريقة الثالثة كانت اقوى . ولم ارفع عيني حتى كان الباب ينفتح على استحياء اطل وجه صبح لم اتبين منه غير عينين خضراوين او هما زرقاوان ، او لعلهما فرتا من الخضرة والزرقا واستقرتا فى نصف الطريق .

كان صوتها هو الآخر خافتا مستعطفا :

— أتاذن لى بالدخول ... ؟

وهل يسعنى الا أن أقول :

— تفضللى ...

كانت خطواتها بين الباب والمكتب لا تتفق فى شيء مع نقراتها المحيية وراء الباب المغلق . ملابسها الصيفية مختارة بدقة . ألوان كنارية تجلجل القميص والسروال ، وفى عينيها وشعرها وبشرتها بعض من هذه الألوان .

— أعذر . جئت على غير موعد ...

توقفت عن الكلام وهى تمد يدها محيية . مددت يدي وعلى ملامحي كثير من علامات الاستفهام . أخذت عيناها تبحثان — لعلهما — عن كرسي امام المكتب . وكان علي أن أشير اليها بالجلوس ، فقد كان هناك كرسي ينتظر كل زائر . وطالما هممت برفع هذا الكرسي كما فعل زميل لى حتى لا أغرى الزائرين بالراحة . فغالبا ما تكون راحتهم هذه على حساب عملي ولا أقول راحتى . العمل ينتظر ، وسأعود اليه بعد أن ينهوا زيارتهم ، والكرسي وثير يغري بطول الزيارة ، ولذلك فهي معادلة غير سليمة ...

لم تمهلني لبادر بالسؤال ، ولا هى أضاعت الوقت فيما يضيعه الغرباء أو الاصدقاء كلما التقوا ، ولكنها اتجهت الى كما لو كانت تملى من حفظ .

— لعلك لا تعرفنى ...

ولم تتوقف ، فقد كان من الطبيعي ان اجيب بأن الشرف لم يحصل من قبل ، وانما استمرت :

— . . . اسمي سليمى من عائلة المليلى ، لعلك تعرف العائلة . . . ؟ عمي الحاج التهامي ، وأبي كان اسمه عبد الله . . . أنت لا تعرفه ، مات وأنا صغيرة ، اخوالي من عائلة الناظوري الحاج عبد الرحمن . .

وبدأت أضيق ذرعا بهذا التعريف الطويل . لست ضابط الحالة المدنية .. حتى أطلب كل هذه المعلومات . . . ولم أكن أسجل وانما انظر اليها نظرة حياد ، لا أطلب المزيد ، ولا أستطيع ان اصددها فاتحول بها الى الهدف من زيارة على غير موعد .

كان بودي ان اواجهها بهذا الذي أفكر فيه . ولكنها اكتفت بذلك لتقول على الفور :

— جئت اليك لان عندي قصة لم أجد غير صحفي اختصه بها . . .

وكصحفي كنت ما أزال ضيق الصدر بهذه الحكايات ، فلست من نوع الصحفيين الذين يجرون وراء قصص الحياة والناس . ولكن شخصية الكاتب انتفضت في لتدافع عن حقها ، فوجدتني أرهف السمع ، ولو اني ما زلت ضائقا بقصة قد يطول بي سماعها . ولعلها لاحظت ارتياحا مازج ملامحي ، فأضافت .

— كان من الممكن ان أحكيها لآخرين ، ولكن هذه مهمة الصحافة ، ومن يستمع الى وأنا الضحية ... ؟

وتطلعت الى وجه الضحية أبحث عن اثر الجريمة .

كان وجهها ينبض بالحياة والعافية ، جميلا على قدر ما يكون وجه شابة لم تتجاوز الثلاثين الا بقليل . جميلة . خصلات من شعر ندت عن المحابس والثقاف كسنا بل قمح في ربيع حياته ، ذهبية بنية شقراء ، لكنها تظلل الوجه القمحي بهالة من فتنة .

لم أجد ظلاً لبؤس ولا أثراً للجريمة . بدأت اهتم بحديثها . فكمسة الضحية كانت سبيلها الى ان تجتذب اهتمامي . ولعل نظرة الحياء التي تجلت على وجهي منذ قابلتها اختفت لتحل محلها نظرة اهتمام بهذا الحدث الذي سعى الي يطرق مكتبي على غير موعد ، ويبد من كانت الضحية .

— أنا طالبة في الجامعة ...

وبدأت الكلمات الفرنسية تأخذ طريقها الى المعجم الذي تتحدث به .

— أعذرني اذا تحدثت بالفرنسية ، فهناك افكار ومواقف تخونني الكلمة العربية فيها . . . هكذا علمونا

— لا بأس تكلمي بأية لغة تشائين .

قلتها لأجنبها الحرج والشعور بالنقص — فيما بدا لي — فأنا لا أحب ان نجتمع على كلمة غير سواء . أشعر بحاجز يفصلني عن مخاطبي كلما استعمل لغة أجنبية عنا معا ، ولكني اضعف امام شاب أو شابة تسبقها لغة أجنبية الى لسانها وهي تعتذر : هكذا علمونا ...

حاولت مع ذلك ان لا تستعمل الكلمة الفرنسية الا عندما تعجزها الكلمة العربية وانطلقت :

— في الجامعة أكمل ثقافتني . مسؤولية الحياة لا ترحم . والمرأة اليوم كالرجل تشعر بالمسؤولية وتقدرها . قد يكون ذلك على غير ارادة منها ، ولكنها الحياة تدفع بها لتحمل مسؤوليتها . ولن تستطيع ذلك بغير تعليم جامعي ...

وبدأت مرة أخرى اضيق بهذا الدرس الاجتماعي ، فلعلني في غير حاجة لأن اتلقاه من سيدة طرقت باب مكتبي لتقص قصتها .

— أنا اذن في غير حاجة ... أعمل وأدرس في نفس الوقت وسيمكنني بعد

حين ان اعيش كما يعيش الذين يحملون شهادة جامعية في استقلال كامل عن اي كان يرغب في اعالتي او يستغل حريتي لأنني في حاجة الى ماله .

ما تزال تلقى الدروس الاجتماعية ، ولكن لا حيلة لي في ان اوجسه الحديث وجهة أخرى ، فقد قبلت منذ البداية أن أستمع الى قصتها ، واستغلت هذا الحق في ان تتحدث كما تشاء . وكانت كلمة « الضحية » هي التي عقلت لساني عن ان يتدخل ليختصر المقابلة أو يوجه الحديث .

— . . . ثم انني أم لطفلين أعمل جاهدة على ان أسعدهما . . .

طالبة . . أم لطفلين . . تتحمل مسؤولية الحياة بشجاعة . . ضحية . . مجموعة خطوط رسمت أمام ناظري لوحة تشكيلية « سوريالية » على وجه ينبض بالشباب والحيوية والجمال ، ربما كانت سن صاحبتة لا تتفق مع كل هذه المسؤوليات. أقف أمام كثير من اللوحات لأحاول ان افهمها عقليا، ولكنني اعجب بها مهما تكن غير واضحة ، لان الطبيعة نفسها غير واضحة ، وقد لا تكون مفهومة . وبدأ بالفعل الغموض يرتسم على اللوحة الجميلة ، وبدأت أجد صعوبة في ان اكتشف اسرار ما وراء الاصباغ والالوان . وكما يحدث عندما أقف أمام لوحة من الفن الجديد يستعصي علي ادراك اسرارها أتهم ذوقي ، ان تواضعت فلم اتهم فهمي ، ومع ذلك أجاري الذين يقفون معجبين فأطيل النظر ، وقد يكونون هم أيضا غير فاهمين ولا متذوقين ولكنهم أمام ظاهرة الحداثة لا يستطيعون أن يعلنوا أنهم لم يتذوقوا ولم يفهموا فيجأون الآخرين . ومع السيدة سليمي لم أكن أفهم لشدة الغموض ، ولكن الحياة الآن أشد غموضا من قصتها وذلك نوع من الاغراء دفع بي الى الصبر وطول الاناة وأنا أستمع :

— . . كنت متزوجة من قبل . . لم تكن على اتفاق . . انجبنا طفلين . . افترقنا بهدوء . . أخذ كل منا طريقه . . تلك قصة أخرى غير مهمة . .

وكننت أحسب أنها بدأت قصتها وان لغز الضحية اتضح ، فهي سيدة شابة تزوجت زواجا فاشلا اثر طفلين . . تلك قصة حقيقية . . مأساة لا تكاد تخلو منها كثير من البيوت . ولكنها غير مهمة في نظرها ، لانها قصة عادية . .

وكان على ان انتظر قصة اخرى انا الذي تزعجني قصص هذا الزواج المثير غير الناجح . وانا الذي تنتظرني على المكتب كثير من المشاكل كل منها قصة تتطلب الحل . وما يزال هذا المكتب يحتمل ، فأمامه سيدة شجاعة في تحمل المسؤوليات تحكي قصتها :

— أعيش لهذين الطفلين ، واستطيع ان اعولهما بعلمي وبما ترك لي والدي ، الى ان يستقر وضعي بعد الحصول على شهادتي الجامعية .

قدرت شجاعته . ولم يبد على محياي أنني مندهش لشجاعته . فما أزال أقف محايدا رغم هذه البراعة التي أظهرتها في حكاية قصة كان — فيما الفت من قصص الآخرين — يمكن ان تحكى في لحظات .

— . . انا لا أخشى الحياة . أنت تعرف الشابة الجامعية التي مرت بمراحل الدراسة ولم تتوقف عن المدرسة رغم ما يحيط بها من اغراء . شابة و . . . جميلة ، ولا أكتفك أنني ذكية . . .

وابتسمت ابتسامة بريئة فلعله قد بدا لها انها بالغت في اطراء نفسها حيث لم يطلب منها أحد ذلك ، حتى ولا ظروف المنافسة أو الافتخار واستدركت :

— لا اقول هذا لأفاخر ، ولكن لأؤكد لك ان مثل هذه الشروط تغري الرجل بالمرأة ، وتغري الزوجة بأن تلتهى بنفسها اعتمادا على رصيدها ، ولكني احببت ان اتعلم . فعصرنا عصر المساواة ، والمرأة التي لا تجد في عضدها ثقافتها لن يحترمها زوجها لان شباب اليوم — أنت تعرف ذلك — لم تعد المرأة عندهم لعبة أو دمية ، مهما تكن جميلة ، يقضون معها أوقات فراغهم و . . .

ترددت قليلا وخفضت عينيها لحظة وهي تضيف :

— . . . ومتعتها — .

ولعلها كانت تنتظر مني تعليقا ، أو على الأقل شهادة ، لله ، بما اطرت به نفسها من جمال وذكاء . ولكنني ظللت محايدا رغم ان ما كان بي من ضيق قد زایلني . فقد أخذت أتتبع حديثها بشيء من الفضول ، ولو ان عنصر القصة اختفى منه أو كاد . فقد اصبح حديثها يكتسي طابع الجدال والمناقشة .

— . . . المرأة اليوم كالرجل تحرز استقلالها الفكري والانساني والمادي ثم يمكنها ان تتزوج لتعايش مع الرجل تعايشا سلميا .

قالتها بالفرنسية فكلمتا التعايش السلمي فيما يظهر لا تلفظان بغير الفرنسية .

ووجدتني اضطر الى الخروج عن حيادي السلبي . واذا كان لابد من حياد فليكن على الأقل ايجابيا . قلت في شبه اعتراض :

— لعل ما بين الرجل والمرأة — اقصد الزوج والزوجة — أكثر مـمن التعايش السلمي . هناك الجانب العاطفي وأكثر من العاطفي ، فإله خلق لنا من انفسنا أزواجا لنسكن اليها وجعل بيننا مودة ورحمة . .

فتحت عينيها على أبعادهما ، وكأنها لم تسمع بالفكرة قط . كانت تترجم العلاقة بينهما بالتعايش السلمي . ولها من التجارب ما أعطاها مثلا عن فقدان السلمية ثم فقدان التعايش . وكان الجدل من طبيعتها فاعترضت :

— . . . كل يتحدث عن تجاربه . والتجربة هي منطلقى الفكري ، ولعلي لم أجرب كلمة السكن هذه : أسكن اليه أو يسكن الي ؟

وأنت حركة تضافرت كل ملامحها : عيناها ، حاجباها ، فمها ، كتفاها لتجيب بالنفسي

وتحركت فيها غريزة الدفاع :

— لا تظن اني مادية ، ولكنني واقعية . لم يسكن الي ، ولم أسكن اليه . وانما كنا في وضعية تعايش سلمي . فلما انتهى ما بيننا من تعايش انتهى أيضا

سلميا . وبذلك حققت معنى الاستقلال الذي كنت أنشده ، كما كنت أحققه ونحن متعايشان .

كان منطقها سليما أكثر منه جريئا . ولكن سلامة المنطق ، الذي كان سوريا أكثر منه واقعيا لم تمنعني عن أن أضرب على وتر حسبت له نفمة ذات وقع في نفسها يمكن أن تغير معه رأيها ، وأنا ممن يؤمنون أن المرأة تستطيع أن تغير رأيها في لحظة ، قلت :

— ولكن التعايش السلمي كان مثمرا . . .

انطلقت بذكاء لتجيب على الفور :

— طفلان . . ؟ اليس كذلك ؟ يعيشان معي في سعادة ، لا أتركهما يشعران بأن التعايش السلمي انتهى أجله . . . يتعلمان في المدرسة ، ويجدان من رعايتي ما لم يكونا يجدان من رعايته . . .

وسكنت قليلا وهي متحفزة بحركاتها ، وعيناها تائهتان في الشعاع الذي ينبعث من لون الزربية الحمراء ، وأردفت وكأنها تتحدث بحركات كتفيها وعضلات وجهها :

— لم أكن أومن بأن حنان المرأة هو الحنان ، لاني كنت انفر من الأنانية ، ولكن التجربة علمتني ان الرجل . . .

ساد صمت كأنما شيء أوقف كلماتها المنفجرة . وحملت في وجهي لتستشف ما قد يكون ارتسم على محياي من غضب . ولكني ، فيما بدا لي ، لم أكرث ، فبنفس التسامح والحياد الذي قابلتها به لأول مرة كانت ملامحي ما تزال تعبر . وأحببت أن أقطع جبل الصمت ، ولكني في الواقع كنت أهدف إلى تشجيعها على أن تعبر . فما أحب أن يتردد رأي أو يحجم فكر عن أن يعبر عن نفسه لاعتبارات غير فكرية .

قلت وكأنني أكمل جملتهما :

— . . . هو الأناني ؟

— بكل صراحة : نعم . بكل بساطة ترك طفليه لحناني .
قلت معاكسا :

— لأن المرأة مستبدة . سلبته موضع الحنان لترضي أنانيتها في طفليها من حيث تحسب أنها تمتاز عنه بالتضحية .

كان يشق عليها أن تجادل بالمنطق . نظرتها الى الحياة واقعية ، ولا تكتم ذلك . شجعته هذه المناقشة على ان تطرد عنها كل تردد ، شعرت بالاطمئنان وهي تتحدث كما لو كنا نتعارف منذ زمن طويل . أجابت وهي تحاول أن تثري حجتها :

— افرض — يا أستاذ — أنني كنت من سيدات العصر الماضي ، أكان يمكنني أن أرى ابني ؟ أكان يمكنه أن يتخلى عنهما بعد ان انتهى عهد التعايش . . .

أضافت وهي تؤكد على كلماتها :

— . . . الذي ما أحسب أنه سيكون سلميا . . . ؟

وكان علي أن أوضح حقيقة ، فقد أصبح ما بيننا جدلا عن حقائق حتى انها كانت تشعر — فيما بدا منها — بأنها تقوم بتمرين في المحاماة ، ولو انها لم تنه بعد دراستها القانونية .

— الأنانية ليست مميزات جنس . وانت تعرفين ياسيديتي ان كثيرا من الرجال أنانيون وان كثيرا من النساء . . .

لم تحتمل . بادرت بالمقاطعة :

— لست على رأيك . . .

كأنها وجدت الفرصة لتؤكد رأيها فأضافت على الفور :

— ... وقصتي ستعطيك الدليل ... القاطع ..

— قصتها .. ؟

تساءلت مع نفسي . فقد خيل الي اني استمعت الى قصتها ، وناقشت معها معطياتها ولم يبق الا أن تقول بلغتها المختلطة : « أوفوار » ... ولكنها — فيما يبدو — لم تكن قد بدأت بعد الحديث عن قصتها التي دفعت بها الى مكتبي على غير سابق معرفة ، وعلى غير موعد . خيل الي ، وأنا أنظر الى كثرة الاوراق والرسائل وأنزعج لرنين الهاتف من حين لآخر فيقطع حبل تفكيري وينتزعني من حديثي معها الى حين ، اني سأقضي صباحي ذاك استمع الى قصصها ، فهي راوية قصص وتجارب حياتية لا تخلو من أهمية . وهي مجادلة تحسب نفسها قوية الحجة .

— اليس من أنانية الرجل ان في حياتي قصصا تروى ، وأنا بعد في مقتبل العمر . لست جدة ولا عجوزا تطفح رأسها بما جربت وما سمعت وما رأت ... لو لم يكن أنانيا لما كنت أحس بأن في حياتي قصة تروى ؟

قلت محاولا ان أجردها من حماس بدا يأخذ طريقه الى لهجتها في الحديث :

— تجاربنا تبدأ منذ أن نفتح عيوننا على نور الحياة . تبدأ قصة الانسان وهو يحاول جاهدا ان ينطلق من سجنه — كجنين — الى الافق الاوسع . واعترف ان الانسان يكتسب الموهبة القصصية حينما يعرف كيف يختزن ويحكي ... الا تمارسين كتابة القصة ؟

أجابت وقد ارتسمت على محياها مسحة اعجاب :

— لا يا أستاذ . لقد اخترت كلية الحقوق لاني لا أحب ان اكون مدرسة ولا أديبة ...

— اخترت اذن ان تكوني قاضية او محامية .

فوجئت وعيناها تطفحان بالغضب . امتنع لون وجهها ، اختفت سمرتها المزوجة بشقرة . كادت تصرخ ، لكنها استطاعت ان تمسك بأعصابها امام الحيرة التي انتابتني . قالت :

— لا تذكر القضاء والقضاة يا استاذ . . .

حاولت ان اهديء من روعها وانا اغير مجرى الحديث . عدت الى قصة التعايش السلمي . قلت :

— لقد كان تعايشا سلميا انتهى بانتهاء قصتكما . انت الآن سعيدة فيما يبدو ، فلا تذكرى الماضي . . .

بدا من ملامحها اني لم افهمها بعد . ولعلها اقتصت باني استمع اليها بنصف اذن ، او افكر في مشكلتها بنصف فكر . اعتدلت في جلستها ، واجهتني وهي تفتح عينيها على ابعادهما في وجهي كأنها حسبت انها صلة التفاهم مع هذا الذي يقف من مشاكلها موقف المحل يد . . . ودت — فيما خيل الي — ان تقول لي : افهمني يا اخي . . . لم أبدا بعد قصتي :

قالت :

— كنت سعيدة حقاً . . . اعيش في الجنة . . . الرجل — بكل صراحة — تجربة انتهت من حياتي . . . كان تعايشا سلميا وفراقا سلميا . اجتزت فيه التجربة بسلام . . . ونجحت . عرفت ما هنالك ، وانتهت المرحلة لأعود الى الحرية : الى الجنة التي نخرج منها عادة بالرغزيرد والصلاة على النبي . . .

بدت لها لمحة من الاستغراب على وجهي فاضافت :

— . . . لا تستغرب ان ينتهي الرجل من حياة شابة جميلة ومقبلة على الحياة . . . ولكن التجربة اقنعتني بأن أشياء كثيرة يمكن ان يتخلى عنها الانسان

بشيء من الشجاعة . كثير من الناس يدخنون ، ولكنهم ينفضون أيديهم من الدخان بسهولة ، وكثير من الناس يشربون حتى ليمتزج دماؤهم بالكحول ولكنهم يهجرون الكأس .. وإلى الأبد .. الرجل دخينة قد تتمكن من المرأة .. كأس خمر ، قد تخرجها من انطوائها ، من بؤسها ، من تفكيرها في الجنس الآخر . ولكن الدخينة تحترق بين أصابعك وتذرو الرياح دخانها في الفضاء .. والكأس تغدو كأسا يمج شرابها حتى المدمن نفسه — يستغني الكثيرون عن الدخينة والكأس ولا شيء يتغير في الحياة . . . ولا أكتفك أني شجاعة ذات عزيمة قوية ... استغني بسهولة عن الدخينة ، عن الكأس . وأعيش مع ذلك سيدة . . . لا تظن بي نقصا في الانوثة ، ولكني قادرة على أن أعوض بالفكر ، بالكتاب ، بحب طفلين جميلين ، بحب الحياة التي أفتح لها صدري بكل سعته ، بحب الطبيعة . الرجل ليس كل شيء بالنسبة للمرأة ... وقد استطعت أن أتخلص منه ، ويمكن أن أتخلص منه الكثيرات ، لو تخلصن من تحكم العادة ، من تقاليد المجتمع الذي تبدأ فيه العائلة تعد البنت الصغيرة لتكون لعبة في يد الرجل ، وتملأ أحلامها الصغيرة بالفارس الذي سيمتلك روحها وجسدها معا . . .

خيل الي أني أمام نائرة لا يوحى مظهرها وناققتها بالثورة ، ليست نائرة شاعرية تقود المظاهرة أو تخطب في اجتماع الطلبة ، ولكنها نائرة فكريا تتحدث بالافكار الثورية وتطبقها في الحياة وبدأت أنسى الأوراق ومقاطعة الهاتف والعمل الذي يتطلع الي في شوق . استمع اليها باهتمام ، ولكن طبيعة التحدي دفعتني الى القول :

— تعاندين الطبيعة بحماسك في وقت انفعال . نحن اثنان . لم نكن قط واحدا . آدم لن يكون لو لم تكن معه حواء ...

— قبل ملايين السنين كان ذلك . . . الا تؤمن بالتغيير . . ؟

— بلى . . . ولكن طبيعة الانسان . . .

قاطعت دون أن تعير اهتماما الى أنها تستعمل بعض العنف :

— وحتى طبيعة الانسان . وماذا يفعل التهذيب والاخلاق والتجربة

وقوة الإرادة . نحن ضحايا الاستمرارية . ولو وقفت حواء ، أية حواء ، في
أي عصر كان لثبت وجودها لأنها الاستغناء عن المسيرة مع رفيق طريق .

قلت متحددا :

— ولو وقف آدم ... أي آدم ...

قاطعت وكأنها تكمل جملتي :

— لاختصر المسيرة مع رفيقة طريق قبل أن يختار الطريق
والرفيقة .

ساد بيننا صمت عميق لم يقطعه غير هدير السيارات في الشارع يهز
أحيانا زجاج النافذة . ولكنها كانت مستغرقة في تفكير . يخيّل إلى أنني كنت أنا
الآخر مستغرقة في مثل ما تفكر فيه . ولكن فكري اتجه بسرعة إلى هذه
القصة التي لا أدري اتخفت من عبئها أم ما تزال تختزنها .

رفعت إليها عينين مستفهمتين . ولعلها أحست بأني اتجه إليها بأذني
أكثر مما اتجه بعيني فاستجابت :

— الحياة ما تزال تقنعني بصدق نظريتي ...

— هي فلسفة ...

واكتست لهجتي طابع السخرية وأنا أضيف :

— ربما كانت فلسفة عدمية ...

ثم ازدادت لهجتي سخرية وأنا أقول بشيء من الحماس بعد أن
صويت عينين نافذتين إلى وجهها :

— . . . قولي لي . . . الست عضوة في الجمعية العالمية للتخطيط العائلي ؟

أدركت بذكائها مدى السخرية . ولكنها لم تحاول ان تدافع ، بل أجابت بسخرية مماثلة :

— . . . بل عضوة في الجمعية الفلسفية لتصحيح اوضاع الحياة . . .

وابتسمت كمحاولة لاطراء بديتها الحاضرة . وابتسمت هي الاخرى اعجابا بقدرتها على الرد والمواجهة . ثم قالت :

— ستقتنع اذا أنا قصصت عليك قصتي . .

قلت في مفاجأة :

— أوما تزال هناك قصة غير ما سمعت ؟

ظهر على وجهها الاسى المزوج بالغضب . شيء ما يتحرك في داخلها . تعيش قصتها — فيما يظهر — في كل لحظة . منذ الممارسة كانت ، ربما ، بطلتها ، أو أحد أبطالها . مارست المأساة ، ولكنها ما تزال تعيش في أعماق المأساة . كلما وقفت موقف الراوي أصبحت تعاني مخاض الميلاد . ميلاد جديد ملامح وجهها وعيناها تنبئان بذلك . بدا لي انها ستمارس التجربة مرة أخرى لمجرد انها تروي ما مضى . لا أكتف أني أشفقت عليها . وكان بودي أن أعفيها من أن تروي ما حدث لو كنت أنا الذي سعيت اليها لتقص علي قصتها ، ولكني لا أملك أن أعفيها مما قصدت اليه . كان من الممكن منذ البداية أن أتخلص من تبعات سماع القصة لو اعتذرت لها بأني على موعد . ولكني أصبحت أحس بأني مدين لها أن أستمع الى بقية الحديث . قصدتني ، وفي ذهنها عني مجموعة أفكار :

— طبيب لوضعية نفسية تعانيها ؟

جائز

— صحفي في امكاني ان اذيع ما يتآمر المجتمع على كتمانها ؟

جائز

— مساعد للخروج من مأزق وضعتها فيه ظروف صعبة ؟

جائز

اكتسبى موقفى طابع الاشفاق ، ولو انها فيما بدا من طبيعتها لا تقبل ان تكون موضع اشفاق .

قلت وانا احاول ان ازيح عنها كابوس الاسى والغضب ، احاول ان اساعدها على اجتياز مرحلة المخاض دون ان تحس بانى اقصد ذلك :

— لا تبتئسى . الحياة كلها قصة . اذا سمعت منك اليوم فصلا منها يمس حياتك فقد احكى لآخرين فصلا يمس حياتي .

احسست بان كلماتي شجعته ، ربما ازاحت ما تبقى من حجب بينها وبين رجل غريب تحاول ان تأتمنه على سر ، ولكنها مع ذلك ترددت قليلا وكأنها تبحث عن البداية ، عن الكلمات ، عن الصياغة . عيناها تترددان بين النافذة والزريبة ، ثم تتلفتان في عصبية الى يديها ، اصابعها ، اظافرها الوردية المصبوغة في حلق ...

رن جرس الهاتف فانصرفت اليه لحظات شاكرا له ان انقذني من تتبع لحظة الحيرة والاضطراب . عدت اليها ، او عادت اليها اذناي ، فعادت الى بعينها وكأنها جاءت من بعيد :

— اين وصلنا . . ؟ كنا في الجنة ؟ اليس كذلك ؟

ولم ابد حراكا . لم اتساءل ولم اعترض فقد عادت الى طبيعة المحايد ، فهو عالمها تصفه كما تشاء . واضافت :

— وأخرجني منها على حين غرة ..

رغم اني كنت محايدا كنت حريصا على أن أفهم ، فقلت :

— بعد ان انتهى التعايش السلمي ؟

قالت :

— صبرك ، فلعلني مضطربة لا أبين ، ولي العذر في ان اكسون مضطربة ، ولكنك ستفهم عني .

— قريب مني بعيد عني ، عائليا ، يعرفني من بعيد وأسمع عنه من بعيد . فوجئت وهو يتقرب الي ، الى العائلة فيزورنا من حين لآخر . وأنا لا أرى فيه الا الجانب البعيد ، ولكنه — فيما يبدو — لم يكن يستغل الا الجانب القريب . كاشف مرة أخى بنيته .

عادت الى صمتها كأنها تترك لي المجال لكي أدرك الهدف . ولم يكن يخفي علي ان سيدة في مثل مركزها الاجتماعي والعائلي والثقافي ستجد من يتقرب الى العائلة ليكشف أخيرا نيته الى الشخص الكبير في العائلة .

ثم خرجت من صمتها :

— كدت أجسن . فأنا في جنة دخلتها عن عمد وسبق اصرار ، مستريحة اليها . دخلتها بعد تجربة لم تكن كلها نارا ، ولكنها مع ذلك اقنعتني بأن الجنة هي ماوأي الحقيقي ... معي فيها ملكان . أرى فيهما كل سعادتي ، ويريان في كل شيء في حياتهما . لم يكن الخروج منها موضوع تفكير حتى أخذ يطرق بابي الهادئة .

قلت محاولا ان اختصر :

— فكانت الاستجابة ...

نظرت الي نظرة عتاب ، واكتفت بالنظرة العاتبة عن الكلام وهي تضيف :

— عبرت عن رفضي التام بكل وسائل التعبير . فكنت في نظرهم عاصية شاذة ... وبدأ الهجوم على الضحية من كل جانب .

تعاطفت نظريا مع الهاجمين فقلت في تلقائية :

— طبعاً كلهم يحبون أن تخرجي من عزلتك ...

— يريدونني أن أخرج من جنتي ...

— حواء لم تجد صعوبة في الاقتناع بالخروج منها .

— كانت ساذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة . خرجت تبحث عن التجربة التي لم تعرفها من قبل . وكان الشيطان مخرجها ... اليس كذلك ..؟

— أما أنت ؟

— عدت الى الجنة بعد أن اجتزت مرحلة التجربة . ولكن ..

صعدت آهة مريرة وهي تستدرك :

— يظهر اننا في شديد الحاجة الى المزيد من التجارب ...

وعاد الصمت يطبع ما بيننا من مسافة قصيرة ، وكأنها تستعيد واقعا أو فكرة . واهتدت أخيراً فتحركت في عصبية واتجهت نحوي بكليتها وكأنها تجادل :

— ما نزال نحن الضحايا ، أقصد المرأة . الرجل دائماً يتخذها لعبة ، لا يفكر فيها الا تحت ضغط العبث واللعب كما تفكر الطفلات في العرائس .

قلت في غير حدة :

— بعض الرجال ...

بعد تردد أضفت :

— . . . مع بعض النساء . . .

— يظهر انك مثلي قليل التجربة . لا تعرف الناس على حقيقتهم . لانكم بحكم المهنة تلتقطون المظاهر والاشكال ، لا تقتحمون النفوس ولا تعمرون الاشخاص من ملابسهم الرسمية ، ولا تحكمون على الاحداث الا من خلال ما تسمعون .

— حلمك يا سيدتي . المهنة لا تطبع اصحابها بطابع واحد ، لا تظلميننا . . .

أحببت أن أختصر ، أعود بها الى حديث حواء التي خرجت راغبة من الجنة . قلت وكأني أعود بها الى موضوع تحاول أن تهرب منه :

— كانت — غفر الله لها — ساذجة قليلة التجربة ، فلم اقتديت بها وأنت . . .

توقفت الكلمات في فمي ، وانقذت الموقف بكلمة :

— . . . وأنا بنتها : ساذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة . . . ؟

ونظرت في وجهي بعينين مفتوحتين على ابعادهما ، وهي تضيف :

— . . . لا تستغرب . لو لم اكن ساذجة لما تغلب الذين هاجموني من كل جانب .

— لابد ان حججهم كانت قوية . . . ؟

وضحكت في سخرية :

— أنت تعرف حجج الشيوخ ، ولو كانوا شبابا . . .

اكتسى صوتها لهجة التمثيل . كان يتغير في كل فقرة وكأنها تمثل حوارا
اشترك فيه رجال ونساء من كل عمر :

— لا يجوز ان تبقى فريدة . . . الشباب غير دائم . . . الرجل في البيت
خباء يستتر العائلة ويحميها . . . ماذا يقول الناس عنك وانت بنت العائلة
والمجد ؟ ... جمالك وشبابك يغريان بك المتقولين ... مقامه كرئيس يعطيك
اسما جديدا . . . سيفرتك في النعيم . . . لا قيمة للمال عنده . . . فكري في
المستقبل . . . الحاضر سيصبح ماضيا . . . اقبلي .. لا تكوني عاصية ..

صمتت قليلا ، ثم عاد صوتها الى طبيعته واستأسدت وهي تكساد
تصرخ في وجهي كأنني انا الذي كنت احاور :

— اعلنت لهم بصراحة انه يكبرني سنا . ربما كنت في سن ابنته
ولا اريد ان اربط حياتي بنصف حياة . . .

ترددت قليلا وهي تضيف :

— انا بصراحة صغيرة السن ، على قدر من الجمال ، لا اطري
نفسي ولكنه الواقع .

سكتت قليلا وكأنها تستعيد فصول مأساة ، ثم ارتعش صوتها وهي
تضيف :

— صرخت في وجوههم : انه متزوج وله اولاد . . . وانا لا احب ان
اكون احدي بناته . . .

طفرت دمعتان حارتان من عينيها رغم الشجاعة التي تحلت بها منذ
طرقت باب المكتب ، وأضافت :

— . . . وكان هناك قلب متحجر ، رغم ما يكن لي من حسب ،
فواجهني : وانت ايضا كنت متزوجة ، ولك طفلان . . .

شعرت بنوع من الندم فاستردت شجاعتها ، تبخر الدمع من عينيها
تاركا سحابة حمراء تختلط بالخضرة الزرقة ، وقالت وكأنها تدفع الهزيمة عن
نفسها :

— ومع ذلك رفضت . . .

تنفست الصعداء فقد أحسست بأن نهاية القصة كانت سعيدة وان
السيدة سليمة ستريح أعصابي من توتر لم أتوقعه وهي تدخل مكتبي على
غير موعد .

وعاد ما بيننا من مسافة يفرق في صمت هادئ ، حتى رفعت وجهها
متحدية مرة أخرى :

— لم يكن لينهزم ، فقد اعتاد ان يصدر الاحكام ، ولم يصدر ضده حكم .
كان رفضي بمثابة حكم اعتبره قاسيا .

اتجهت الى مخاطبة :

— انت لا تعرفه . . ؟

لم تنتظر ان أجيب ، ولكنها اضافت :

— . . عنود . . أناني . . ملحاح . .

عدت الى حيادي المطلق . وهي تستأنف حديثها السابق .

— كان ، طبعا ككل الرجال (رمقتني بنظرة اعتذار) .. قادرا على ان
يفرق كل حججي بحديثات الاقناع التي يتقنها .

اخذ صوتها مرة أخرى يكتسي طابع التمثيل ، وتتغير لهجتها عند كل
فقرة :

— الرجل لا يكبر ... حياته مع الأخرى ستبقى شكلية ..
أولاده كبروا وسيشقون طريقهم في الحياة ... لن تكون لك صلة بهذا الماضي..

عاد الصمت يطبق على المكتب . عادت عيناها تبحثان عن شيء بين
الخيوط الحمراء في الزربية التي لمعت حمرتها في الغرفة ، والشمس تجلجل
جانبا منها بضياؤها الباهر . اكتسى المكتب طابع مسرح تفنن المخرج في توزيع
الاضواء على خشبته ، في اعداد الجو النفسي عن طريق الاضواء الملتهبة
ليساعد الممثلة الوحيدة على التلبس بدورها .

عادت من جولتها الفكرية الطويلة وكأنني كنت أقدر أبعادها ، واكتسى
صوتها طابع الأسى الحزين ، انخفض حتى لكأنني كنت أجد صعوبة في تبين
مقولته :

— وأخيرا قبلت ... تزوجته ...

انزاح عن كتفي عبء ثقيل . فقد كنت كطفل يريد ان يعرف نتيجة قصة
سينمائية تقوم على صراع حاد بين البطل والبطله . البطل دائما ينتصر ،
ولكن الاطفال عادة يريدون ان يعرفوا السبيل الى انتصاره . وقد كان البطل
هنا حرنا قويا عنيفا ملحاحا كما أدركت البطله ، وكانت هي عنيدة معتزة
بجمالها وشخصيتها . ولكنها طبيعة القصص السينمائية التي تؤلف لتعبر
عن رغبة المشاهدين لا لتصور حقيقة او واقعا او ما كان يجب ان يكون
حقيقة .

وانتظرت ان تقول :

— هذه قصتي فافعل بها ما تريد .. أوقفوا ..

وضعت سليمي يدها على حقيبتها الانيقة ، كانت تضعها على جانب
من المكتب ، وبدأت أتحرك في جلستي واستعد لامد يدي مودعا . فقد كنت
مخلصا لطبيعة الحياد التي سادت علاقتي بالقصة منذ البداية . كان علي أن
أقول لها :

— مبروك ... حياة سعيدة ... —

ولكني لا أدري كيف أحجمت حتى عن هذه التهنئة العادية . لم تنهض كما كنت أتوقع ، ولكنها فتحت حقيبتها ولعبت الاصابع الطويلة الرشيقة في عب الحقيبة ، وكأنها تبحث عن شيء غير ضائع . علبة دخائن امتدت بها يمناها الى يسراها ، وانجرت سلسلة خرجت من بينها ولاعة ذهبية . انشغلت سليمى عني كأنها وحدها في المكتب ، وأخرجت دخينة وضعتها على الجانب الايمن من شفتيها ، وبحركة تلقائية انقدحت الولاة وهي تقترب من الدخينة فتثير وجهها بلهب ارجواني . شددت بعمق نفسا قويا ، انفتحت شفتاها عن غمامة هفافة من دخان ناعم لم تنفثه شفتاها الى بعيد ، وانما جلل وجهها بضبابية ، كما لو كانت سحابة خفيفة تحاول ان تستقر ضياء القمر في لآلئه . ضبابية لم تغلف ملامح الوجه الجميل فربما زادته اشراقا ، ولكنها ضببت ما تفكر فيه ، ما تريد ان تقول ، ضببت كلماتها الاخيرة :

— وأخيرا قبلت .. تزوجته .. —

وكانها تريد أن تضيف

— عدت الى الدخينة ... —

كانت عيناها متجهتين الى النافذة ، وكأنهما لا تريان . عادت فسحبت نفسا عميقا من دخينتها ، نفثته هذه المرة في عنف وعصبية . اتجهت نحوى — فى ابتسامة مصطنعة — وكأنها تذكرت شيئا مهما نسيته :

— استأذن ... الا يضايقك ان ادخن ... ؟ —

لم تكن تنتظر منى جوابا . ولم أكن أدري كيف أجيب ، ولذلك ابتسمت فى عفوية وأنا افكر فى ان الجلسة ما تزال طويلة ، وكان علي أن اقول شيئا:

— لا ادخن ، ولذلك تجدينني بخيلا بتقديم الدخائن .

ابتسمت وأصابمها تدلفان الى شفتيها بالدخينة .

عادت فجأة لتقول :

— كان حريصا على أن يتم كل شيء في أسرع وقت . . . كتبنا العقد ، وكان مبلغ المهر سخيا في الورقة الرسمية ، وأصبحنا زوجين منذ ساعة اتخاذ القرار . اختصر ، فقد انتقلنا الى مدينة صغيرة جميلة لقضاء أيام العسل . أغدق على كثيرا من الهدايا . كان مثال النبل ولطف المعاشرة . لم أر منه غير الوجه البشوش . أخذت أحس بالسعادة . انزاح عني كابسوس الوحدة . عادت الي كل معنوياتي في أني امرأة . اكتشفت أنوثتي من جديد . . . سمعت كلمات الحب والفزل . . . أحسست اني كنت في حاجة الى أن اسمعها . المرأة وحدها لم تكن كافية ، كنت أخشى ألا تكون صادقة . . . اختفت كل مخاوفي : كبير السن ، متزوج ، له أولاد . . . عاد أمامي طفلا مدلا يتلذذ بالاستعطاف والتحبب وهو يحقق رغباته . اختصر : لا أستطيع ان أصف لك السعادة التي عشت فيها كزوجة لزوج ما كنت لآتمنى غيره . . .

قلت وكأنني اكتشفت تناقضا غريبا في هذا النموذج الذي اقتحم علي وحدتي مع العمل :

— سعادة غيرت نظرتك الى الجنة . . . ؟

ونظرت الي كما تنظر الى شخص لم يفهمك :

— لكنها أقنعتني بأنني كنت في الجنة .

لم أفهم . ولكنني الفت أسلوبها في الحديث فما تزال للقصة بقية :

— تستعجل اذن النهاية : أسبوعان من شهر العسل ، خيل الي انهما سنتان ، كنت أعب فيهما من متع الحياة ...

وساد الصمت من جديد . وعادت دخينة جديدة تقتعد شفيتها ، وعادت الشعلة الأرجوانية تنشر ظلالها على الوجه الذي جللته مسحة من الاسى ، من الألم . وشدت نفسها العميق لتنفثه هذه المرة في عمق .

قالت ونفثات الدخان تخالط كلماتها :

— وكان صباح ، لم يختلف عن كل الاصباح التي عرفتھا حياتنا طوال اسبوعين .

ارتدى ثيابه وانا في شغل بزینتي . اقترب مني من وراء وهو ينظر في المرأة بلهف . وضع على كتفي يدين قويتين . انحنى . . .

توقفت قليلا وهي تعتذر :

— اعذرنی اذا قصصت عليك هذه التفاصيل . ربما كانت تافهة ، ولكنها ذات دلالة . . .

ثم استأنفت :

— قبلني في عنقي وهو يتشمم رائحة عطر كان قد اهداه الي . . . قال في صوت خافت :

— اظن انك ستأذنين . . ؟

رفعت اليه راسي ، وكأني اطلب المزيد . . . ابتسمت في وجهه . قلت في تلقائية :

— وهل انت في حاجة الى ان تستأذن ؟

اجاب بابتسامة عذبة :

— هذه المرة انا في حاجة الى ان استأذن . . .

نظرت اليه من خلال المرأة مستفهمة ، فاستمر كأنه يجيب :

— سأغيب عنك يوما أو يومين . لي شغل سيصرفني عنك بالرغم عنني .

قمت من مكاني مبتسمة . واجهته في عطف ، وضعت كفي على كتفيه ،
قلت في صوت هامس :

— ذلك واجبك . . . وواجبي أنا أيضا . فلا أحب ان يحرم عملك منك .
ارتسمت مسحة من السعادة على وجهه ، وهو يقول :

— لا اعرف كيف اشكرك . ولكني أخشى ان تشعري بالوحدة ...

— سأعود الى منزل العائلة في انتظارك .

وضحكت من أعماق قلبي وأنا أضيف :

— . . . كأنهم نسوني . . . لم يسألوا عني قط منذ تزوجنا . .

— لم يسألون وهم على يقين بأنك في سعادة . . . ؟

أضاف وكأنه تذكر شيئا :

— سأسافر وأنا مطمئن حينما اعرف أنك مع العائلة ، مع الطفلين .

كان صوتها وهي تروي هذا الجزء من القصة يطفح بالانوثة والرقّة .
كان كصوت ممثلة تعيش دورها بكل عواطفها وانفعالاتها . حتى صوت البطل
وهي تروي عنه كان هادئا ناعما يكاد يتخلص من رجولته . وفجأة تهـدج
صوتها وهي تضيف :

— وافترقنا . . .

قالتها وانحبس الصوت في نعومته وتهدجه . وعاد الصمت ليخيم على
جو المكتب ، وتسمرت عيناى على وجهها في فضول ، وأنا أحاول ان اكتشف
ما وراء الملامح التي تجمدت . بدا عليها انها تغالب شيئا ما في عينيها كشفت
عنه همرة خفيفة شاببت صفاءهما . استمرت كأنها لتروي حدثا عاديا وهي
تكتم انفاس عقب دخينة ما يزال ينبض بحياة بين أصبعيها :

— وصباح الغد فتحت عيني على برقية تخبرني ان ورقة
طلاقي موجودة عند العدل السيد الحسن .

مدت يدها الى البرقية وهي تضيف :

— كان مكتوبا في الورقة : طلاق قبل الدخول ...

عبد الكريم غلاب

الرباط

الموحدون:

ثورة سياسية ومذهبية

د. عباس الجري

لكل ثورة ارهاصات تمهد السبيل لظهورها ، ومقدمات تهيم النفوس لتقبل مبادئها وأهدافها . وارهاصات الثورة الموحدية ومقدماتها كامنسة في الانحلال الذي اصاب دولة المرابطين في عنفوان شبابها ، والذي يبدو من حقائق التاريخ انه يرجع الى الأسباب الآتية :

أولاً : ضعف شخصية علي بن يوسف بن تاشفين (I) الذي كان — على الرغم من صلاحه وزهده — عاجزاً عن تدبير قيادة الدولة وتسيير شؤونها ، وما نتج عن هذا العجز من فوضى جعلت ولاية القبائل يستبدون بالأقاليم ويستقلون بها ، وما نتج عنه كذلك من انتشار الفساد وظهور المراءة في ميدان السياسة تلعب بعقول الحكام ، تحوك المؤامرات وتدس المكائد . فقد

« اختلت حال أمير المسلمين وظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء اكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك الى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين واحق بالامر منه ، واستولى النساء على الاحوال واسندت اليهن الأمور وصارت كل امرأة من اكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . وأمير المسلمين في ذلك يزيد تغفله ويقوى ضعفه وقنع باسم امرأة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال » (2) .

ثانيا : الانهك الذي أصاب الدولة ، وخاصة في عهد علي بن يوسف ، بسبب الحروب الكثيرة التي واجهها في فتح بلاد الأندلس وما كانت تلاقيه جيوشه غير ما مرة من هزائم كانت تضطر القواد الى أن يطلبوا من العدو وقف القتال ورفع الحصار . فمئذ سنة ثلاث وخمسمائة ، وهي السنة التي جاز فيها ابن يوسف الى الأندلس للجهاد ، حتى سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وهي السنة التي بدأت فيها حرب المرابطين للمهدي ، جهزت الدولة ما ينيف على عشرة جيوش لفتح هذه البلاد ، لا شك أنها أرهقت اقتصاد البلاد وانهكت معنوية الشعب والحكام (3) .

وقد زاد الوضع سوءا ما عانت الدولة في صراعها مع الموحدين حيث انه « في اثناء هذه الحركة الطويلة الأعوام اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام وغلت الأسعار بمراكش حتى وصل فيها الربع من الدقيق بمئقال حشبي ذهبي . وتوالى هذا الجذب حتى جفت في الأرض مذاربها واغبرت جوانبها وقتلت المجابي بهذه الفتن وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين والحق العدو النصراني بالضربات على جميع جهات الأندلس خين علموا عجز الإمارة بالمغرب واشتغالها بحرب الثائرين المهيجين للفتن ... واستولى الروم في هذا الوقت على كثير من البلاد والحصون » (4) .

ثالثا : عجز فقهاء الدولة في عهد علي بن يوسف عن تطوير المذهب المالكي الذي كان محور حركة المرابطين الإصلاحية ، حتى يساير الوضعية التي أصبحت عليها دولتهم بعد أن اتسعت رقعتها وتضخم نفوذها ، وبالتالي عجزهم عن توجيه الرأي العام في إطار المذهب ، مما جعلهم يتهيئون كل انفتاح ويتوقعون في نطاق طبقة لا تسعى الى غير حماية مكاسبها ومصالحها وما حققت من امتيازات . وترتب عن ذلك ظهور قيود فكرية بدا ان الدولة فرضتها تعصبا للفقهاء المالكي وشكليات الدين . وقد استغل هذه الظاهرة مؤرخ كالمراكشي موال للموحدين فضخم حقيقتها وزاد في أبعادها حيث ذهب الى انه لم « يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده الا من علم علم الفروع اعني فروع مذهب مالك فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ... ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي (5) رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين باحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها » (6) . ومثل هذه القضية تؤكد لاشك سيطرة الفقهاء وخضوع الأمير لما يفتون به من آراء . فهم يرون كتاب الاحياء مخالفا للشريعة والعقيدة ويحكمون باحراقه على الرغم من العلاقات الطيبة التي كانت بين مؤلفه وأمراء الدولة وخاصة يوسف بن تاشفين (7) الذي كان الغزالي يوالي دولته ويدعو له مقدرا شجاعته وجهاده في نشر الاسلام وتثبيت دعائمه . ومع ذلك فمن الانصاف أن نسجل أن الذين ثاروا ضد الاحياء هم فقهاء الأندلس ، وعلى رأسهم ابن حمدين قاضي قرطبة ، وأن نسجل كذلك أن بعض فقهاء المغرب — كأبي الفضل بن النحوي — كان لهم موقف مخالف حيث انتصروا للغزالي واغتوا بعكس ما افتنى به الأندلسيون .

رابعاً : المنافسة التي كانت بين قبيلة صنهاجة المرابطية وقبيلة المصامدة الجبلية على زعامة البلاد واستغلال المهدي لهذه المنافسة ولجوؤه الى القبيلة المصمودية التي آمنت به وناصرته ، يدعو لذهبه وينشر فكرته في كثير من الأمن والاطمئنان (8) .



كان لابد لهذه الأسباب — وما نتج عنها من ضعف وإنحلال ظهرت بوادرهما في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والحياة الفكرية والاجتماعية أن تجعل الناس يضيقون بالوضع ويصرفون النظر عن هذه الدولة ويتوقعون الى من يخلصهم من برائن طغيانها وفسادها ، وبالتالي ينضمون للمهدي ويصفون لدعوته التي كانت تنتشر بسرعة أقلقّت السلطات ، واضطرت الامير ابن يوسف — بعد استدعائه وفشل الفقهاء في مناظرته (9) — الى ارسال حملة تأديبية فشلت في القضاء على حركته التي أخذ يتسع نطاقها . وتوالى الجيوش والحملات ، ودخل المهدي في حرب منظمة كان قد هيا لها العدة والرجال ، سواء في المجال العسكري او الفكري ، حيث كان العلماء الميالون الى الحكمة والفلسفة أسبق من غيرهم الى الالتفاف حول المهدي لفتح بابا كان مغلقا بسيطرة الفقه المالكي ، حتى من كان منهم لا يؤمن بكل ما جاء به مذهب ابن تومرت . ولكن المنية عاجلت المهدي فتوفى قبل أن يتم له الانتصار (10) وخلفه صديقه عبد المومن (11) فواصل محاربة المرابطين (12) الى أن تمت له الغلبة والنصر فاتسم بالخليفة وتلقب بأمر المؤمنين . ولم يقنع بذلك ، فصرف عزمه الى توسيع حدود دولته ، وخرج سنة أربع وثلاثين وخمسمائة في حملة دامت سبع سنوات لم يرجع منها الا بعد أن تم له فتح المغرب الأقصى والأوسط . وتآقت نفسه لتوحيد المغرب العربي الكبير ، خاصة وقد ضعف أمر دولة بني زيري (13) التي كان قد استقر لها الحكم في المغرب الأوسط ، فوجه حملة برية وبحرية سنة أربع وخمسين وخمسمائة مكنته من فتح تونس وليبيا حيث وصلت فتوحاته الى حدود

مصر (14) . ففي المعجب أنه « تم لعبد المومن رحمه الله ملك افريقية كلها منتظما الى مملكة المغرب فملك في حياته من طرابلس المغرب الى سوس الأقصى من بلاد المصامدة واكثر جزيرة الأندلس ، وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لاحد قبله منذ اختلت دولة بني أمية الى وقته » (15) . وفي الحلل انه « قد كمل له بملك افريقية مسيرة أربعة اشهر من المشرق الى المغرب ومن طرابلس الى أقصى السوس ومن الجنوب الى الشمال في أعرض المواضع من قرطبة الى سجلماسة خمسة وعشرين يوما » (16) . وكان لابد لعبد المومن أن يولي اهتماما كبيرا لأمور الأندلس — وكان الأعداء قد اغتتموا ظروف الانقلاب الموحدوي وأغاروا منها على بلاد كثيرة — فأرسل اليها جيشا قضى على هذه الأطماع ، وجاز اليها سنة ست وخمسين وخمسمائة ليشرّف بنفسه على أحوالها وعاد وقد تم له إخضاع غرب هذه البلاد (17) . وقصد الأندلس مرة أخرى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة لاستكمال فتوحاته فيها ولكن المرض فاجأه فتوفى وهو في طريقه للجهاد ، فخلفه ابنه يوسف (18) الذي استطاع أن يحافظ على هيبة الدولة ويحفظ مكانها في العدوتين ، بل انه جاز الى الأندلس مرتين وغزا بنفسه وأحرز انتصارات كثيرة . وتاقت الى الثورة نفوس بعض الولاة في افريقية ، لاسيما بعد وفاة يوسف سنة ثمانين وخمسمائة ، ولكن ابنه يعقوب المنصور (19) استطاع أن يخمدّها . واغتنم النصراني هذه الفرصة فعادوهم الأطماع واستولوا على عدة مدن ، فما كان من المنصور الا أن جهز جيشا جاز به الى الأندلس حيث كانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، معركة الأرك المشهورة التي وطدت لدولة الاسلام في هذه البلاد . ولكن الهزيمة لم تفت في عضد الأعداء . فبرزوا مرة أخرى بعد وفاة المنصور عام خمسة وتسعين وخمسمائة ، فجهز لهم الناصر (20) جيشا لم يستطع رغم عظيمته أن يفوز بالنصر ، فقد كانت تنقصه القيادة والتدبير فهزم في وقعة العقاب (21) التي كان لها اكبر الأثر في التعجيل بسقوط الأندلس وبالتالي سقوط دولة الموحدين . فالخليفة الجديد يوسف (22) كان من الضعف بحيث لم يستطع مواجهة الأعباء، وجاء بعده عبد الواحد (23)

وعبد الله (24) والمامون (25) والرشييد (26) والسعيد (27) والمرتضى (28) وادريس (29) ، وكلهم اخوة أو اولاد عم ، شغلوا بأنفسهم ومحاربة بعضهم فضاعت مصالح الدولة وتفككت اوصالها (30) .



واذا كان بعض الباحثين يرون أن الحركة الموحدية بدأت دينية لا تطمح في شيء وأن المهدي « كان مخلصا في دعوته اشد الاخلاص وأنه لم يكن يهيمه ملك ولا دنيا الا بلوغ قصده في محاربة الفساد وتجديد الدين .. وأنه كان صاحب فكرة اصلاحية عمل لتنفيذها بالوسائل المألوفة قبل أن يكون طالب ملك يرتكب كل محذور للحصول عليه » (31) فاننا نرى أنها بدأت اشبه ما تكون بالحزب السياسي أو التنظيم الثوري الذي يدفعه الطمع في السيطرة والحكم الى النعمة على الاوضاع والتخطيط لمحاربتها وتقويضها .

حقا ان المتتبع لحياة المهدي وما صاحبها من حوادث وأحداث لا يرى من خلال تسلسلها غير عالم مصلح حفزته أهداف دعوته الدينية الى خوض غمار السياسة ، ولكن قليلا من التعمق في حياة الرجل ومحاولة الربط بين مقومات دعوته والتنظيم الدقيق لاتباعه والاستعداد الكامل لمحاربة جيش الدولة ، كل هذه أشياء تجعلنا لا نشك في أن المهدي بدا حركته وقد وضع مخططا ثوريا لنسف حكم المرابطين واقامة حكم جديد على انقاضه : فمن تنظيماته أنه صنف اتباعه طبقات ، فالعشرة الذين بايعوه اول الامر وخرجوا معه من مراكش يسهمهم الاصحاب والجماعة ، ويتبعهم في الرتبة اهل الخمسين ، وهم خمسون رجلا يؤلفون مجلسا يمثلون كافة القبائل . وهكذا تستمر السلسلة على حد ما نقرا في الحلل من أنه حين «أخذ اشياعه يتأهبون للحرب جعل على كل عشرة منهم نقيبا وصنفهم اصنافا فالصنف الاول اصحاب العشرة والصنف الثاني اهل الخمسين والصنف الثالث اهل السبعين والصنف الرابع الطلبة والصنف الخامس الحفاظ وهم صفار الطلبة والصنف السادس اهل الدار والصنف السابع اهل هرغة والصنف الثامن اهل تينمال

والصنف التاسع جدميوة والصنف العاشر أهل جنفيسة والصنف الحادي عشر أهل هنتاة والصنف الثاني عشر الجند والصنف الثالث عشر الغزاة والرماة . ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر لا ينزل كل صنف الا في موضعه لا يتعداه فانضبط مراده وأقاموا على ذلك مدة حياته « (32) .

ومن تحليل هذه السلسلة يبدو أن التنظيم الموحد في الميدانين الإداري والعسكري كان قويا ومتماسكا ، وأنه سار في اتجاهين : أحدهما فكري نخبوي للعمل المذهبي والثاني جماهيري للعمل المسلح .

وكان لابد للمهدي أن يلجأ الى الدين وإلى أصول الشرع ليهاجم حكم المرابطين ويقوض دعائمه الفقهية القائمة على علم الفروع . وكان لابد كذلك أن يتصل مباشرة بجماهير الشعب يعبئها ضد المرابطين (33) ويكون منها قاعدة لحركته يساعده في ذلك اتقانه للعربية والبربرية معا ومخاطبته للناس بما يفهمون حيث « كان أفصح الناس في اللسان العربي واللسان البربري ينقل به اليهم المواعظ والأمثال ويضرب لهم المقاصد فجذب نفوسهم واستجلب قلوبهم وسهل عليهم التعليم بنفسه وبأعيان أصحابه » (34) .

ويتضح لنا الحاح الجانب السياسي على المهدي في أمرين :

اولهما لجوءه الى البربرية وسيلة للاتصال بالجماهير ، مما نشأت عنه ظاهرة الازدواج اللغوي .

والثاني اعتماده — للاقناع بشرعيته والتثبيت لها — على مبادئ الشيعة المتصلة بالمهدوية والعصمة . وقد استغل المهدي — حين أدار مذهبه في الجانب السياسي على هذه المبادئ — حب المغاربة القوي وارتباطهم القديم بالبيت ، كما استغل عدم جدة الأفكار الشيعية عليهم .

على أن المهدي لم يكن يتردد — عند عجز منطق دعوته — في اللجوء إلى حيل الشعوذة والتدجيل ، على حد ما فعل حين أمر صاحبه عبد الله الونشريسي بكتف علمه وفصاحته وفضله وأظهار الجهل واللكن والتعري عن الفضائل « لنتخذ الخروج عن ذلك — كما يقول المهدي — واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق فيما نقول » (35) . كما أنه لم يكن يتردد في اللجوء إلى اتباع أساليب القسوة والعنف . فقد ذكر ابن الأثير (36) أن أصحاب المهدي كانوا يقدمون له لوائح سوداء بأسماء الأشرار المناوئين يختار منها ومن لائحة يضعها بنفسه من يقدمون يوم التمييز . وعند البيهقي أنه أمر بالميز في آخر أيام غزوه « فكان البشير (37) يخرج المخالفين والمنافقين . والخبيثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عيانا وازداد الذين آمنوا إيمانا وذاق الظالمون النار فظنوا أنهم واقعوها وما لهم عنها من محيص وكان تمييز البشير للخلق من يوم الخميس إلى يوم الجمعة بعد أربعين يوما » (38) . والمتتبع في عمق لحياة المهدي لا يلبث أن يلاحظ أن هذه الحيسة تدرجت في خمس مراحل :

أولا : بدأ آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر يتلمس طريقه ويحاول الاحتكاك بالجماهير .

ثانيا : برز فقيها يفرض وجوده بمجادلة فقهاء المرابطين بهراكلش .

ثالثا : أصبح أستاذا في أغمات يلتف حوله الطلاب الذين منهم كان يختار الاتباع .

رابعا : أخذ يكون من تلاميذه ومريديه خلايا كانت نواة حزب سياسي .

خامسا : أعلن عن زعامته .



وانن فلم تكن دعوة المهدي مجرد دعوة دينية ، وانها كانت حركة
ثورية سياسية منظمة عملت بمختلف الوسائل على قلب الحكم المرابطي ، ولم
يكن انتصارها مجرد انتصار مذهب ديني على مذهب آخر بل كان انتصار
نظام حكم على نظام مقوض قامت على انقاضه دولة بلغت ذروة مجدها على
عهد عبد المومن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور الذين استطاعوا
بحنكتهم وقوة شخصيتهم أن يوسعوا رقعة الثورة الموحدية وأن يبنوا هذه
الثورة ويثبتوا دعائمها بما يقوي مركز الدولة . فعبد المومن يعنى بالجيش
وينشئ صناعة الاسلحة ويأمر بأن تنشأ في جميع سواحل البلاد اساطيل
حربية بلغ عددها اربعمئة قطعة (39) . أما يوسف فقد عرفت الدولة على
عهده ازدهارا ماليا كبيرا تمثل في الدينار اليوسفي حيث « استغنى الناس في
ايامه وكثرت في أيديهم الأموال » (40) . وأما المنصور فقد قوى انشاء
الاساطيل في ايامه وكثرت مصانعها ومدارس التدريب عليها لدرجة أن صلاح
الدين الايوبي استفاد واستنجد بأساطيله في محاربة الصليبيين بالشام (41)
وقد نشطت على عهد المنصور جميع فروع الصناعة الى حد كان في مدينة
فاس وحدها اثنا عشر مصنعا لسبك النحاس وثلاثة آلاف مصنع نسيج
وسبعة وأربعون مصنع صابون واحد عشر مصنعا للزجاج وأربعمئة مصنع
للكاغد وعشرات غيرها من المصانع المختلفة التي تكشف عما بلغته الدولة
من تفوق حضاري كان يسير جنبا الى جنب مع تقدم الانشاءات الحربية التي
تجلت في استعمال البارود وصناعة المجانيق والدبابات (42) .

وبهذا يتضح لنا أن عهد الموحدين — وخاصة في ظل الخلفاء الثلاثة —
شهد ازدهارا اقتصاديا (43) تجلى في هذه المظاهر الأربعة :

أولا : كثرة المصانع سواء في المغرب أو الأندلس .

ثانيا : التبادل التجاري مع مختلف أقاليم حوض المتوسط حيث كانت
للموحدين مكاتب تجارية « فنادق » في بعض مدن فرنسا
وايطاليا ، أهمها مرسيليا وجنوة والبندقية .

ثالثا : عملة قوية (44) .

رابعا : أسطول تجاري بحري تعززه صناعة السفن .
ولكن بؤادر الانهيار لم تلبث أن ظهرت على دولة الموحدين وهي بعد في
أول الطريق ، ومن أسبابه هذه المظاهر :

أولا : استبداد الأشياخ والولاة بالحكام .

ثانيا : الحروب في الأندلس وانهزام الموحدين في وقعة العقاب وما نتج
عنه من تقلص ظلهم في الأندلس الى حد استنجاد الخلفاء (45)
بالأمراء الأسبان ضد منافسيهم في الحكم وقبولهم لشروط هؤلاء الأمراء
ومساوماتهم (46) واستعانتهم بجنود من المرتزقة المسيحيين في
جيوشهم لمواجهة الفتن والثورات التي كانت تقوم ضدهم
وخاصة في إفريقية .

ثالثا : ضعف الجانب الاقتصادي نتيجة تقلص الطرق التجارية وحركة
المراكز والموانئ .

رابعا : الأزمة المالية المتمثلة في انهيار العملة .

خامسا : فتور الروابط بالشعب نتيجة سياسة القمع المتجلية في الأحكام
التي كان يصدرها الخلفاء باعدام مناوئهم ومخالفهم دون تردد.

سادسا : انهيار الأيديولوجية الموحدية التي كانت العمود الفقري
للدولة ، في وقت كان الفقهاء المالكيون يقومون بتحركات سواء
في المغرب أو الأندلس . فحركة المنصور ثم المأمون — كما سنرى بعد —
لا يمكن أن تفسر إلا بأنها عملية رد النفس للدولة ، وكان يمكن لها أن تنجح
لو توفرت لها الأطر مثلما توفرت لدعوة المهدي .

كل هذه أسباب جعلت أوصال الامبراطورية الموحدية تتفكك وتحلل
لترتها ثلاث دويلات هي :

اولا : المرينية في المغرب الأقصى (47)

ثانيا : الزناتية في الجزائر أو المغرب الأوسط (48)

ثالثا : الحفصية في تونس أو افريقية (49)



نعود الى التيار المذهبي الذي سلك المهدي في ثورته ضد المرابطين
فنرى ان الحديث عنه يقتضي منا ان نلقي نظرة على الحركات الدينية
السابقة وما كانت تدعو له من افكار — وفدت من المشرق في أغلبها —
عسى ان نكشف من خلالها مدى تجاوب المغاربة مع أحداث الشرق الدينية
ومدى تقبلهم للتيارات المذهبية التي كانت تصاحب هذه الأحداث .

والاسلام حين دخل الى المغرب (50) اول الامر على يد عقبة بن نافع (51)
كان بسيطا خاليا من كل خلاف أو تعقيد ، مما جعل البربر يتأثرون بمبادئه
ويقبلون عليه . وكذلك كان حين استقر بعد ذلك في عهد موسى بن نصير
واسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر ، وبدأ يتغلغل في نفوسهم لما رأوا
من يسر مبادئه وسموها ، ومن عدل القائمين على شؤونهم وكانوا قبل ذلك
— على حد قول ابن ابي زيد القيرواني — قد « ارتدوا اثنتي عشرة مرة من
طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى أجاز موسى بن نصير الى
الاندلس بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وأمرهم
برسم الجهاد فاستقروا هنالك من لدن الفتح فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب
وأذن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتنافسوا الردة » (52) .

وكان نتيجة لهذا الاستقرار أن اطمأن المغاربة للدين الجديد ، وزال مؤقتا ما كان في قلوبهم ضد العرب من نفور ، وزاد الاتصال بالشرق الذي أخذت أصداء أحداثه تتردد في المغرب ، وبدأت فئات الخوارج المنهزمة في المشرق ، وخاصة منها الاباضية والصفرية (53) تفد عليه من العراق تحاول الترويج لمذهبها الذي وافق مزاج البربر وناسب وضعهم السياسي والاجتماعي ، حيث كانوا يعارضون به كل من يحاول أن يفرض عليهم سيادة عنصرية أو مذهبية .

ولعل الدور الذي لعبه الخوارج في بقية بلاد الشمال الافريقي كان أكثر قوة وفعالية من دورهم في المغرب ، لاسيما في ليبيا وتونس (طرابلس وافريقية) حيث كاد صراع الاباضية مع العرب السنيين أن يزعزع كيان الخلافة ويحث على الاستقلال .

وكان بالفعل أن تأسست دولة في تاهرت بالجزائر (المغرب الاوسط) تحت لواء الأسرة الرستمية التي استطاعت أن تحفظ لهذه الدولة كيانها طوال قرن ونصف الى أن هزمها الفاطميون بقيادة أبي عبيد الله الشيعي فتشتت الاباضيون في مناطق مختلفة من تونس والجزائر ما زالوا يعيشون بها حتى اليوم .

وربما كان عدم تسرب المذهب الخارجي الى المغرب يمثل هذا المد العنيف يرجع فيما نعتقد الى الدولة الادريسية التي عاصرت الدولة الرستمية والتي كان لها من القوة ما مكنها ليس فقط من بسط نفوذها في المغرب ، وانما كذلك من مزاحمة جيرانها بني يفرن لدرجة أنها استطاعت ان تنزع منهم مدينة تلمسان .

كذلك بدأ المذهب الشيعي يتسرب الى قلوب البربر ويجد بعض الاقبال، ولكنه اقبال غير ناتج عن اقتناع فكري بالمذهب ، وانما هو ناتج عن عطف على العلويين واشفاق عليهم مما أنزل بهم الامويون والعباسيون من نكبات

كانت تتردد أصداؤها في المغرب فتجد لها مكانا رحبا في نفوس البريـر ،
لاسيما وهم ما يزالون حديثي عهد بالاسلام . وليس هذا بغريب فالمغاربة
كانوا دائما يحبون آل البيت ويجلون عليا وابنيه ، وربما فضلوه على من
سبقه من الخلفاء .

وتتجلى مظاهر حب المغاربة لآل البيت واضحة في الترحيب الذي لقيه
المولى ادريس اثر فراره من وقعة فح سنة 169 هـ على عهد الهادي
العباسي وتنازل عبد الحميد بن اسحق الاوربي عن امارته له في ويلي
ودعوته للقبائل ان يبايعوه . وليس مستبعدا ان يكون المولى ادريس — وهو
علوي مناضل — قد حمل بعض مبادئ الشيعة الى المغرب مما قد يدل على
اتصال الحركة الشيعية بالمغرب قبل ظهور الداعية الاسماعيلية ابي عبيد الله
المهدي مؤسس دولة العبيديين في الشمال الافريقي ، وليس مستبعدا كذلك
ان يكون قد وجد القبيلة الاوربية تتمذهب بالاعتزال الذي يبدو انه تسرب
للمغرب في هذا الوقت ، مما قد يستنتج منه انتشار المذهب الاعتزالي قبل
حركة المهدي بن تومرت ، ان كانت تعتبر هذه الحركة اعتزالية كما سنبين
بعد ، ولكن الذي لا شك فيه ان الادارسة لم يكونوا من المعتزلة ولا من
الامامية او الاسماعيلية ، ولم يكن لهم مذهب معين في الشيعة وانهم لذلك
لجأوا الى السنة والى المالكية خاصة .

والواقع انه قبل انتشار مذهب مالك وفي الوقت الذي كانت تتسرب
مبادئ الشيعة والخوارج الى المغرب والشمال الافريقي ، كان الاتجاه
غالبا لفقه ابي حنيفة . فقد ذكر ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس ان
مذهب ابي حنيفة كان اظهر المذاهب في المغرب الى ان جاء المعز « فحمل
جميع اهل المغرب على التمسك بمذهب الامام مالك بن انس رضي الله عنه
وحسم مادة الخلاف في المذهب » (54) . وفي مقدمة كتاب الفقه على المذاهب
الاربعة ان « افريقية كان الغالب على أهلها السنن الى ان قدم اليها عبد الله
ابن فروح ابو محمد الفارس فنقل اليها مذهب ابي حنيفة » (55) . وفي

ترتيب المدارك يقول القاضي عياض : « وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين الى أن دخل علي بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفشو الى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض خلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشحاع في تلك الاقطار » (56) .

ومهما يكن فقد تعرض المغرب في هذه الفترة ، ومع بداية تأسيس الدولة الإدريسية ، لصراع بين الشيعة والخارجية والسنية وصراع آخر بين الحنفية والمالكية انتهى بانتصار المذهب المالكي في جزء كبير من المغرب وانتصار الإمامية في بقية بلاد الشمال الإفريقي . ومن المؤكد أنه حين أخذ ينتشر في المغرب على هذا العهد ، كان وافدا اليه من الأندلس حيث ظهر أول الأمر وحيث كان مذهب الأوزاعي سائدا . فعند القاضي عياض أن أهل الأندلس كانوا منذ الفتح « على رأي الأوزاعي الى أن رحل الى مالك زياد ابن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس وألفاز بن قيس ومن بعدهم فجاءوا بعلمه وأبأنوا للناس فضله واقتداء الأمة به فعرف حقه ودرس مذهبه » (57) ويرجع انتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس لأسباب نستطيع أن نذكر منها :

أولا : ما ذكره ابن خلدون من أن رحلة المغاربة والأندلسيين « كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقترضوا على الأخذ عن علماء المدينة وشيوخهم يومئذ وإمامهم مالك ... فرجع اليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته » (58) .

ثانيا : ما ذكره ابن خلدون كذلك من أن البداوة « كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق

فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب « (59) .

ثالثا : ما ورد في النسخ لدى ترجمة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي من ان ابن حزم قال: «مذهبنا انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان. مذهب أبي حنيفة فانه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل إفريقية فكان لا يولي الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالاندلس ، فان يحيى ابن يحيى كان مكيئا عند السلطان ، مقبول القول في القضاء ، وكان لا يلي قاض في اقطار الاندلس الا بمشورته ، واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه » ((60) .

رابعا : طبيعة المذهب نفسه، فهو من جهة لا يعتمد على المنطق والقياس، بقدر ما يعتمد على النص والنقل ، مما يجعله يتفق ومزاج المغاربة، الذي ينفر من الفلسفة ، والتفريع ويتمسك بالاثار والرواية ، وهو من جهة أخرى يدعو الى العزوف عن السلطة — واعني السلطة الاجنبية ، واما الوطنية فانه يتعاون معها ، الى أقصى حد ، كما يثبت عهد المرابطين — وهو في هذا يوافق الطبيعة المغربية التي تميل الى الاستقلال ، وعدم الخضوع لاية سيطرة خارجية . وقد يكون في هذا الجانب كذلك بعض التبرير ، لانتصار المالكية على الحنفية التي كانت على عكس المالكية والى جانب قولها بالسراي تتقرب للحكم ، وتقبل تولي مناصب الفتيا والقضاء (61) .

واذا كان المذهب المالكي قد انتقل الى المغرب في عهد الإدارة فان انتشاره قد عم في عهد المرابطين وعلى يد داعيتهم عبد الله بن ياسين الذي أوفده أبو عمران الفاسي بطلب من أحد زعماء صنهاجة هو يحيى بن ابراهيم

الجدالي ، ليهدي الناس ويرشدهم الى أمور الدين . وربما يكون ابن ياسين قد اتصل فقط بالفقيه المالكي المغربي « وجاج بن زلو » الذي يبدو ان شيخه ابا عمران قد انتدبه لتفقيه داعية المرابطين في المذهب . وزاد في انتشار المذهب وتعصب المرابطين له كراهيتهم للشيعة وخاصة يوسف بن تاشفين الذي كان لا يعترف بدولة الفاطميين في مصر والشام في الوقت الذي يمد يده لأعدائهم العباسيين (السنين) .

وحتى هذا العهد ، كان ما يزال للروافض بعض المراكز والاتباع ، فقد « كان بتارودانت قوم من الروافض يقال لهم البجلية منسوبين الى عبد الله البجلي الرافضي الذي كان قدم الى السوس حين قدم عبد الله الشيعي لافريقية فأشاع هنالك مذهبه فورثوه بعده جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن لا يرون الحق الا ما في أيديهم فقاتلهم عبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة وقتل بها من الروافض خلق كثير فرجع من بقي منهم الى السنة » (62) . ومعروف ان الروافض من شيعة الكوفة الغالين ونستطيع ان نضعهم مع الامامية ، وكانوا قد رفضوا بيعة زيد بن علي بن الحسين ولم يرضوا ان يخرجوا معه سنة 121 هـ بعد ان تبين لهم انه ينهى عن الطعن في الصحابة وانه لا يبرأ من الشيخين .

ولعل الحركة البجلية هذه كانت آخر آثار المذهب الشيعي في المغرب حيث يبدو ان اختفاء منه يرجع لعدم استعداد المغاربة الفكري للاقتناع ببدعه وغيبياته ولعقليتهم الثورية التي كانت لا ترضى عن وسائل العنف التي كان يسلكها الفاطميون في نشر مذهبهم . واذا كان المذهب قد اختفى من المغرب فهو قد انتقل الى الأندلس وظل في الخفاء الى ان نهض على عهد الحموديين في قرطبة. ولكن الحموديين — كالأدارسة ويرجع نسبهم اليهم — لم يكونوا يحاولون نشره بالمعنى المعروف عند المشاركة ولم يكن لهم مذهب معين في الشيعة .



ظل المغرب طوال عهد المرابطين يحمل لواء المذهب المالكي الى ان ظهر ابن تومرت (63) يدعو لمذهب جديد . وابن تومرت — وأصله من قبيلة هرغة المصمودية — يسمى محمد بن عبد الله ويستمر البيدق في ذكر سلسلة نسبه فيقول انه « ابن وكيلد بن يا مصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » (64) . بدأ دراسته في المغرب ثم رحل (65) طالبا للعلم في الأندلس والمشرق « حيث انتهى الى بغداد ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين » (66) واجتمع « بالكيما الهراسي والطرطوشي » (67) وغيرهم من العلماء والأئمة (68) الذين جالسهم وأفادهم كانت ثمره حلقاتهم من جدل عقلي ودراسات فلسفية لم يكن له عهد بها من قبل ، وعاد الى وطنه وقد صمم العزم على الثورة والاصلاح ومناهضة كتب الفروع والفقهاء ، يدعو لمذهب هو مزيج من الأشعرية ومبادئ الشيعة الإمامية . فهو يعتقد في العصمة والإمامة وينتصر للعقائد السلفية والدفاع عنها بالحجج العقلية ويحلل فكرة تنزيه الله وابعاد أية شبهة عن ذاته توحى بالتشبيه (69) ويدعو الى تأويل المتشابه من الآيات (70) والاحاديث (71) حتى لا يقع في التجسيم الذي يرمي به المرابطين ، يقصد تشبيه الذات الالهية بالحادثات مما يضفي صفة الوجود المادي على هذه الذات باعتبارها واقعا ماديا مجسما ملموسا له حيز في المكان . ومن هنا سمي أتباعه بالموحدين ، قصده من التسمية أنهم ينزهون الله تعالى عن مشابته لخلقه في الذات والصفات . يقول ابن خلدون متحدثا عن المهدي : « وكان قد لقي بالمشرق أئمة الاشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الواقعة في صدر أهل البدعة وذهب الى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والاحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت فطن أهل

المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والاخذ بمذاهب الاشعرية في كافة العقائد وأعلن بامامتهم ووجوب تقليدهم وكان من رايه القول بعصبة الامام على رأي الامامية من الشيعة وألف في ذلك كتابه في الامامية الذي افنتحه بقوله أعز ما يطلب ، وصار هذا المفتتح لقبا على ذلك « (72) .

وعلى الرغم من اشعرية المهدي فانه قد اتخذ موقفا سلفيا من قضية الصفات حيث أعطاها بعدا بسيطا جعله يربطها بأسماء الله الحسنی لا يجيز فيها أي قياس أو اشتقاق أو اصطلاح . فعنده أن « أسماء الباري سبحانه موقوفة على اذنه لا يسمى الا بما يسمى به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه لا يجوز القياس والاشتقاق والاصطلاح في أسمائه يسمى المخلوق فقيها سخيا لعلمه وكرمه ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ويسمى المخلوق راميا قاتلا لرميه وقتله ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ويسمى المخلوق زبيدا وعمرا يولد ليس له اسم فيصطلح عليه اسمه وليس للمخلوق أن يتحكم على خالقه فيسميه بما لم يسم به نفسه في كتابه ما نفاه عن نفسه في كتابه نفاه عنه وما أثبتته لنفسه أثبتته له من غير تبديل ولا تشبيه ولا تكييف يسميه بأسمائه الحسنی ويدعوها « (73) . وهذا على عكس الاشاعرة الذين يعتبرون أن صفات الله قديمة وموقوفة على الذات الالهية وقائمة عليها .

وربما كانت الدعوة الموحدية في بعض مبادئها ، وخاصة في تنزيها الذات الالهية وإبعادها عن كل شبهة تدنيها من التشبيه والتجسيم ، قد تأثرت بآراء الاعتزال ، فعند المراكشي أن المهدي « كان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل الا في اثبات الصفات فانه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها « (74) . ومع ذلك فقد يقال بأن الاشعرية شيء والاعتزال شيء آخر وبأن القول بالتأويل والتنزيه من صميم آراء الاشعرية وأن المهدي ما دام أشعريا لا يمكن أن يكون معتزليا وانه متأثر في دعوته بثلاث تيارات : هي الاشعرية والامامية وآراء الغزالي .

وسواء اكان المهدي متأثرا بالاقتزال أم غير متأثر ، وسواء اكان هذا المذهب واردا على المغرب مع الموحدين أو سابقا عليهم ، فان الذي يبدو غير مشكوك فيه أن فرقة من المعتزلة هي الواصلية ، منسوبة لواصل بن عطاء ، كان لها بالمغرب اتباع ، على حد ما يثبت نص وارد عند الشهرستاني — وهو معاصر للموحدين حيث توفي سنة 548 — لدى حديثه عن هذه الفرقة : « ... وبالمغرب الآن منهم شذمة قليلة في بلد ادريس بن عبد الله الحسني الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية ، واعتزالهم يدور على أربع قواعد : القاعدة الأولى القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والارادة والحياة .. القاعدة الثانية القول بالقدر .. القاعدة الثالثة القول بالمنزلة بين المنزلتين ... القاعدة الرابعة قوله في الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين أن أحدهما مخطيء لا بعينه وكذلك قوله في عثمان وخاذليه أن حد الفريقين فاسق لا محالة كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا بعينه ... » (75) .

والحديث عن المهدي مقترن دائما بذكر مقابلته للغزالي على اختلاف المؤرخين في قبول هذا القول أو رفضه . فعند ابن الأثير : « ... وقيل أنه جرى له حديث مع الغزالي فيما فعله بالمغرب من التملك فقال له الغزالي ان هذا لا يتمشى في هذه البلاد ولا يمكن وقوعه لامثالنا كما قال بعض مؤرخي المغرب والصحيح أنه لم يجتمع به » (76) وفي وفيات الأعيان أنه « اجتمع بأبي حامد الغزالي » (77) وعند المراكشي « أنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزده » (78) . وعند ابن أبي دينار أنه « لازم أبا حامد الغزالي ثلاث سنين وحصل عليه علما عظيما . وكان أبو حامد اذا رأى ابن تومرت يقول لابـد لهذا البربري من دولة » (79) . ويقول صاحب الحل بعد الحديث عن قدوم وفد اشبيلية لتقديم البيعة لعبد المومن وكان فيه القاضي أبو بكر العربي المعافري « ثم أن الخليفة عبد المومن سأل ابن العربي عن المهدي هل رآه أو لقيه في مجلس أبي حامد الغزالي ببغداد فقال له لم لقه وانما سمعت به وان

الشيخ كان يقول لابد من ظهوره « (80) . أما ابن خلدون فعنده أن المهدي « لقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي (81) .

وعلى الرغم من هذا الخلاف فإن الذي لا شك فيه أن المهدي تأثر بالغزالي وبآرائه في مناهضة كتب الفروع والفقهاء ، وهي الآراء التي بسطها في باب العلم من كتابه أحياء علوم الدين (82) . ويبدو أن كتب الغزالي كانت سبيل كل مصلح أو مناهض للأوضاع في هذا العصر وفي أعقاب دولة المرابطين ، فأبو العباس بن قسي زعيم طائفة المريدين الثائرة كان يزاول تدريس كتب أبي حامد الغزالي باشبيلية واتخذ من تلاميذه ورواده هيئة جعلها أركان حزبه وتسمى بالامام (83) .

والحقيقة أن المهدي باعتماده على مبدئي العصمة والامامة يختلف مع الغزالي والأشاعرة وسائر أهل السنة حيث يرفضون جميعا هذا المبدأ ، دون أن ننسى أن الغزالي تلميذ للأشعري كما هو معروف . ويكاد يكون مؤكدا أن قضية العصمة والامامة تدخل عند المهدي في اتجاهه السياسي وليس في اتجاهه المذهبي لأنه كان سنيا سلفيا وإذا كان ابن تومرت يدخل بهذه القضية في صميم الآراء الشيعية فإن الذي لا شك فيه أنه يخالف جل هذه الآراء وخاصة منها الاعتراف بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، وهو اعتراف لا يراه من الشيعة إلا الزيدية .

كذلك يبدو المهدي في أخذه بالعصمة والامامة جبريا معارضا للمعتزلة الذين نفوا القدر ورفضوا الجبر — واثبتوا حرية الإنسان وأرادته في اختيار أفعاله واشتراطوها أساسا للتكليف بالواجبات .

ومهما يكن فمذهب المهدي دعوة للاجتهاد بالرجوع إلى الكتاب والسنة واجماع الصحابة ، والاعتماد على علمي الكلام والأصول ، وهما من العلوم التي شجع على طلبها . وكان من نتائج انتشار هذين العلمين أن وفق — إلى حد — بين آراء الفقهاء والمتكلمين ، وكان بالتالي أن تخلص فقهاء المالكية

عن كثير من التعصب الذي عرفوا به في عهد المرابطين ونظروا في العلوم الجديدة وحاولوا تطويعها لخدمة المذهب الذي زاد تفرعا وانتشارا لدرجة دفعت المنصور الى محاربته واحراق كتبه كما سنبين بعد .

ثم ان الدولة الموحدية في لجوئها الى العلم المتفلسف وسيلة للوصول الى اهدافها ، تعتبر منذ نشأتها منافسة للفاطميين ، وكانت لهم عناية كبيرة بالفلسفة ومذاهب القدماء ، فكان لابد أن تدرس أحوالهم وتعنى بأمورهم السياسية والعلمية وتتعرف على دعوتهم . وكانت النتيجة أن قابلتهم بالمثل ، فالمهدي يسير على نهج الفاطميين في الانتساب لآل البيت واتخاذ لقب المهدي والاعتناء بعلوم الجفر والتنجيم . فالجفر جلد ماعز كان يستعمل في الكتابة ويزعم الروافض أن جعفر الصادق كتب فيه ما سيكون من حوادث الى يوم القيامة . وفي وفيات الاعيان لدى ترجمة المهدي أنه كان قد اطلع في المشرق على كتاب يسمى « الجفر » من علوم اهل البيت وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله ويكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب هجاء اسمه ت ي ن م ل ل ورأى فيه أيضا استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م م م ن ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة فأوقع الله سبحانه وتعالى في نفسه أنه القائم بأول الأمر وأن أوانه قد أوف .



عاد المهدي الى المغرب ونزل في فاس وكان نشر دعوته (84) يقتضي منه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (85) ، يعلم الناس ويلقنهم مبادئ مذهبه ، مما أثار ضجة في الاوساط العلمية والشعبية دعت الوالي الى استدعائه لحضور مجلس الفقهاء « فجرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور لانه وجد جوا خاليا والفى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع . فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلدة باخراجه لئلا يفسد عقول العوام » (86) . فخرج متوجها الى مراكش وكان الامير علي

ابن يوسف قد سمع بخبره فأمر باحضاره لمناظرة الفقهاء ولكنه لم يلبث أن هزمهم بعلمه وجد له فأشاروا على الأمير بقتله غير أنه ارتأى ابعاده عن مراكش حتى لا يثير فيها الشغب والفتنة . وخرج المهدي الى قبيلته في جماعة من أصحابه (87) فبايعوه سنة 515 في قرية تملل (88) التي اتخذها مقرا لنشاطه ونشر دعوته . وفي تملل أخذ يدرس العام لأصحابه ويدعوهم لمذهبه ويؤلف فيه بالعربية والبربرية كتباً أهمها « أعز ما يطلب » (89) جمع فيه خلاصة آرائه وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والصور وقال : « من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد لا تجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته » (90) وعند صاحب الحل أن أول ما دبر لهم أنه ألف لهم كتاباً سماه بالتوحيد بلسان البربرية وهو سبعة أحزاب عدد أيام الجمعة وأمرهم بقراءة حزب واحد منه أثر صلاة الصبح بعد الفراغ من حزب القرآن . وهو يحتوي على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والإيمان بما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواخي بينهم فيه وألف لهم كتاباً سماه بالقواعد وآخر سماه بالأمانة هما موجودان بأيدي الناس الى هذا العهد ودونهما بالعربي والبربري « (91) .

« فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأشرقت قلوبهم محبته وأجسامهم طاعته فلما استوثق منهم دعاهم الى القيام معه أولاً على صورة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وجعل يذكر المهدي ويشوق اليه وجمع الاحاديث التي فيه من المصنفات ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونعته ادعى ذلك لنفسه . وقال : انا محمد بن عبد الله ... ورفع نسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي المعصوم وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك » (92) .

واستمر المهدي في دعوته لمذهبه واقامته الحدود بنفسه « يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل ... » (93) وينكر عليهم

ما يراه مخالفا لأصول الدين ومبادئه لدرجة انكر مرة على ابنة يوسف ابن تاشفين أن تسير سافرة — وكانت عادة المرابطين أن يسفر النساء وجوههن ويتلثم الرجال — فأمرها وجواربها أن يسترن وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن حتى سقطت دابة أخت أمير المسلمين (94) .

وعلى نهج المهدي سار خليفته عبد المومن في « تغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث » (95) يدعو الولاة في رسائله الى اخذ الناس بعلم التوحيد وحضهم على قراءته وحفظه سواء باللسان العربي أو البربري ويأمرهم بالتشديد في اقامة الحدود ضد بائعي الخمر وشاربيها وأصحاب بيوت الفساد والضلال واللاهين بالآلات والقاعديين عن العمل والجهاد وما اليهم من اهل النفاق والتدليس وكان يبعث للولاة نسخا من تأليف المهدي وخاصة كتابه « أعز ما يطلب » يأمرهم باتباعه والتقيده به ، ففيه « الملاذ والمعاذ وعليه الاعتماد والاستناد واليه المرجع والمفرج ... فمن عانده أو خالفه أو ضاده أو كابره أو عصاه أو نساواه أو جهله وأهمل أمره فقد حاق به الردى ، فالانقياد لما يقضي به واجب والاستمسك بأمره حتم والرجوع اليه في أمر الدين والدنيا فرض لأن قضاءه وأمره هو قضاء ربه وأرادته وحكمه » (96) .

ولكننا لا نصل الى يعقوب المنصور حتى نرى الايمان بالمذهب يتزعزع فهو اذا كان يتشدد في الامر باحراق كتب الفروع ، تثبيتا لطريقة المهدي كما يبدو ، فإنه يمنع الناس من الخوض في علم الاصول والكلام ويؤلف للامة كتابا يلغي به كتاب المهدي يجمع فيه من الكتب الصحاح ما يتعلق بأمور الدين ويشجع الناس على حفظه بالمنح والأموال . ففي المعجب أنه « أمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع احاديث من المصنفات العشرة (الصحيحين والترمذي والموطا وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار وسنن ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي) في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن

تومرت في الطهارة فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعـه « (97) .
والقصد من ذلك عند المنصور « محو مذهب مالك وازالته من المغرب مرة
واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث « (98) . وأكاد أضيف
محو مذهب المهدي وازالته ، فقد كان يسأل الطلاب والعلماء عما يقرأونه
من العلم ويغضب ممن يجده يقرأ تأليف المهدي ويقول له : « ما هكذا يقول
الطالب انما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئا من السنة » (99).
ولا غرابة فهو لم يكن يومئذ بعصمة المهدي وكان يستخف بعقول المؤمنين
بها . فقد قال مرة لأحمد بن مطرف المري — وكان شيخا صالحا : « يا أبا
العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل أنني لا أقول بالعصمة » وقال له يوما
« وقد استأذنه في فعل شيء يفتقر الى وجود الامام : يا أبا العباس أين
الامام .. أين الامام » (100) بل انا نجد ابنه المأمون يقول في خطبته المشهورة
التي نبذ فيها المهدوية : « وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما به الآن
صدعنا وأن يرفع عن الأمة الحزن الذي رفعنا فلم يساعده لذلك أمله ولا
أجله لزواله الا أجله فقدم على ربه بنية صدق خالص الطوية » (101) .

ولم يلبث هذا الإنكار أن تطور في عهد المأمون الى ذم المهدي ونبذ
مذهبه عامة ، فهو « الذي أمر بزوال اسم المهدي من السكك (102) وغيرها
ومن الخطبة وازال اسم جميع الموحدين مما كان العمل به في سائر دولة
الموحدين » (103) . ومن خطبته في ذلك : « ولتعلموا أننا نبذنا الباطل
وأظهرنا الحق وأن لا مهدي الا عيسى... فتلك بدعة قد أنزلناها... وقد اسقطنا
اسمه ولم نثبت له عصمة فلذلك أزلنا عنه رسمه فيمحي ويسقط ولا يثبت...
وان كانت العصمة لم تثبت للصحابه فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه
بل هم ضلوا وأضلوا وتلفوا في ذلك وزلو ما تكون لهم الحجة على تلك الحاجة
اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم براءة أهل الجنة من أهل النار ونعوذ بك من
أمرهم الرتيب وفعلهم الخبيث لأنهم في المعتقد من أهل النار وأنا نقول فيهم
ما قال نبينا عليه افضل الصلاة والسلام رب لا تدر على الارض من الكافرين
ديارا » (104) . وفي هذه الخطبة : « أيها الناس لا تدعوه بالمهدي المعصوم

وادعوه بالغوي المذموم فانه لا معصوم الا الانبياء ولا مهدي الا عيسى وانا قد نبذنا امره النحيس » (105) . وكذلك كان موقف الرشيد ولد المأمون لولا انه اضطر الى الرجوع حيث كانت للموحدين « شروط قبل دخولهم وهي اعادة ذكر اسم الامام المهدي في الخطبة واسمه في المخاطبات ونقشه في السكة من الذهب والفضة واعادة الدعاء بعد الصلاة والنداء عليها بتاصيلت الاسلام وهي اقامة الصلوات وما اشبه هذا ... فأسمعوا فيه وسمعتم موجبات وصولهم وانتظامهم » (106) .



نعود بعد هذا لمذهب الموحدين فنرى اننا — مع بعض التحفظ — نستطيع ان نستنتج من دعوتهم للكتاب والسنة والاعراض عن الرأي والقياس ميلهم الى المذهب الظاهري واتصالهم به منذ البداية وتطبيقهم لمبادئه ليس في امور الدين فحسب ، بل حتى في مختلف فروع المعارف والعلوم . ولا تخفى حملة ابن مضاء (107) على النحاة المشاركة في كتاب « الرد على النحاة » الذي دعا فيه الى الأخذ بظاهر النصوص والابتعاد عن جسد المناطقة والفلاسفة (108) .

وقد يبدو غريبا ان نتحفظ في القول بميل الموحدين الى المذهب الظاهري منذ بداية دعوتهم ، على الرغم من اعراض هذه الدعوة عن الرأي والقياس واخذها بظاهر الكتاب والسنة في وضوح صريح لا يترك مجالا لاي ظن . وهو استغراب لا سبيل لدفعه لو لم يكن لهذا التحفظ ما يبرره ، اذ لا يخفى ان ابن حزم لا يقول بالعصمة التي يدعيها الموحدون ، ويرى على العكس من ذلك « انه يقع من الانبياء السهو عن غير قصد ويقع منهم ايضا قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى والتقرب به منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى الا انه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين اصلا بل ينبههم على ذلك ولا يداثر وقوعه منهم ويظهر عز وجل ذلك لعباده ويبين لهم » (109) لذلك لا نرى المنصور يعلن ظاهريته الا بعد ان اعلن انكاره لعصمة المهدي وامامته ، وغدا جهارا يستخف بعقول المومنين بدعوته .

واذا كنا — مع وضوح هذه الحقيقة — نذهب الى اماكن دخول الدعوة الموحدية في نطاق مذهب ابن حزم ، فما ذاك الا لانا لا ننسى ان المهدي تعرف على آراء ابن حزم في قرطبة قبل سفره الى الشرق ثم اننا لا نرى مانعا من ان يقتبس منه الموحدون جوانب جوهرية ، وان يختلفوا معه في نفس الوقت حول جانب فرعي ، وان اعتبر هذا الجانب في دعوتهم اساسيا . ولا بدع ، فان كثيرا من الباحثين يؤكدون اخذ الموحدين بالفرقة الظاهرية منذ بداية دعوة المهدي ، على حد ما يرى المستشرق الاسباني انخل بالنشيا اذ يقول : « وقد مال محمد بن تومرت مهدي الموحدين الى مذهب ابن حزم اذ وجد فيه ما يؤيد دعوته ووصل نفر من فقهاء الحزمية الى كبار المناصب » (110) كذلك يرى جولد تسيهر (111) تاثير المهدي بابن حزم من خلال شبه كبير يتصل بموقفهما من المذهب المالكي ومن صفات الله واعتمادهما على الظاهر في مسائل كثيرة . والحق انه اذا كان ابن تومرت يشبه ابن حزم ويبدو متأثرا به في تناول المسائل الفقهية ، وهو ما عبر عنه بالشرع وكان فيها لا يعمل العقل (112) وكأنه يقصد الى تحطيم فقهية المرابطين وما اعطوها من حرمة وقداسة ، فانه في مجال العقيدة كان اشعريا يعتمد العقل اكثر مما يعتمد حرفية النصوص . فعنده ان « بضرورة العقل يعلم وجود الباري سبحانه والضرورة ما لا يتطرق اليه الشك ولا يمكن العاقل دفعه » (113) وهو يطعن في رأي من « ذهبوا .. ان الشريعة لا حكمة فيها وانها ليست على سنن العقل جارية » (114) علما بأنه حاول ان يقرب بين العقل والشرع او بين الحكمة والشريعة حين قرب بين القياس العقلي والقياس الشرعي (115) .

والذي يدعو فعلا الى الاستغراب هو ما ذهب اليه المستشرق الفرنسي هنري لاوست في حديث عابر عن المنصور الموحدي اورده في كتاب له عن فرق الاسلام ، حيث قال : « ... فبعد ان كان مالكيًا ، انتقل الى الظاهرية ثم اعتنق المذهب الشافعي واختار كثيرا من القضاة من بين المنتمين لهذا المذهب » (116) . فاذا كنا نقبل القول بمالكية المنصور على

اعتبار ان الموحدين لم يخرجوا عن نطاق المذهب المالكي في الفقه وان
حادوا عنه توحيدا وعقيدة ، وانهم لم يلجأوا الى محاربة فقهاء الدولة
المرابطية وكتبها الا وسيلة لنسف حكمها وتقويض دعائمه الفقهية القائمة
على علم الفروع ، فاننا لا نستطيع ان نقبل القول بشافعيته رأيا مجردا من
كل دليل .

والذي نعلم هو ان المذهب الشافعي لم يصل قط الى المغرب . حقا ان
المهدي لقي في المشرق كثيرا من الشافعية ، وخاصة ابا بكر الشاشي الذي
يعد من كبار فقهاءهم ، وحقا كذلك ان المذهب الشافعي دخل الى الاندلس
في منتصف القرن الثالث على يد قاسم بن سيار القرطبي (ت سنة 276 هـ)
حيث سعى بعض العلماء الى نشره امثال بقي بن مخلد (ت سنة 272 هـ)
واسلم بن عبد العزيز بن خالد (ت سنة 319 هـ) . كما ان رحلة الفقهاء
الشافعيين الى الاندلس اثرت الى حد لا يستهان به على انتشار المذهب ،
لا سيما على عهد الحكم المستنصر الذي كان يشجع هؤلاء الوافدين امثال
ابي الطيب محمد بن ابي بردة (ت 271 هـ) وعبيد الله بن عمر بن احمد بن
جعفر (ت 360 هـ) . ولكن سيادة المذهب المالكي في الاندلس من جهة
ومحاربة بعض الفقهاء المالكيين لهؤلاء الوافدين من جهد آخرى ، جعلت
ظل المذهب الشافعي يتقلص الى حد كبير في الاندلس . ومن يدري فقد يكون
بعض شافعية المشرق وصلوا الى المغرب عائدين من الاندلس ، لا سيما
اولئك الذين حاربوا واضطروا الى مغادرتها ، او قاصدين اليها كابن ابي
بردة المذكور ، وكان قد سئل في الاندلس عن كتبه فقال : « انها ذهبت له مع
مال جسيم في المغرب » (117)

والذي يلفت النظر في رأي المستشرق الفرنسي انه اتبع كلامه عن
مذهب المنصور بالحديث عن النجدة التي طلبها منه صلاح الدين الايوبي ،
وكأنه اراد ان يربط بينها وبين شافعية المنصور ، قاصدا من هذا الربط الى
جعل اتفاقهما في المذهب عنصرا مشجعا على طلب النجدة . ومعروف ان

المذهب الشافعي كان سائدا في مصر على عهد الايوبيين وان صلاح الدين بنى لفقائه مدرستين هما الناصرية والصلاحية .

كذلك لا ينبغي ان يعزب عن بالنا — ونحن نحاول البحث عن خيط نمسك به رأي المسيو لاوست ان ابن حزم نفسه كان شافعيًا في بداية حياته ، مما لا يبعد تأثر المنصور به في هذه الفترة ، لاسيما وانه كان معجبا بشخصيته ويعتبره علما بارزا من اعلام الاسلام . وكم كنا نتمنى لو ان الباحث اثار الى مصدر هذا الرأي او عززه بالحجج المدعمة ان لم يكن مسبوقا اليه ، واغلب الظن انه كذلك .



وما علينا ، فقد سقطت دولة الموحدين ، وكان طبيعيا ، والمرينيون يقضون عليها ، ان ينبذوا دعوتها ويعودوا الى المذهب المالكي الذي تقوى بسبب مناصرتهم له وبسبب انشاء المدارس العلمية في مختلف المراكز ، الى جانب الزوايا والرباطات التي تضاعف عددها في هذا العهد والعهود التالية والتي كانت مهذا لترعرع النزعات الصوفية . ويبدو ان الفقه المالكي اتيح له بالاحتكاك المذهبي في عهد الموحدين ان يخرج قليلا عن تزمته والتزامه المثالي الجامد وان يطرح نفسه وقضاياها من خلال مقاييس جديدة تحاول التوفيق بين النظرية الشرعية او الحكم الشرعي من جهة وبين الواقع وتطوره من جهة ثانية في محاولة سلوك منهج جديد يعتمد التصرف ان لم نقل الاجتهاد ويسعى الى التوفيق بين المصلحتين الشرعية والاجتماعية . وكما استقرت المالكية في هذا العصر مذهب المغاربة الفقهي بصفة نهائية ، فكذلك استمرت الاشعرية مذهبهم العقدي ، لا يرون غيره في التوحيد ولا يحيدون به عن رأي اهل السنة والجماعة . وكان نتيجة للضغط الذي فرضه الموحدون على علوم الفروع ان قامت لها في هذا العصر نهضة تمثلت في اقبال العلماء والطلبة على دراستها وفي كثرة التأليف والابحاث التفرعية التي تناولت مختلف جوانب هذه العلوم . واذا كان الموحدون قد شجعوا دراسة اصول الفقه ، فان فقهاء هذا العصر لم يهملوا بحثه ودراسته ،

ولكن في اطار المذهب على ان سيادة المالكية لم تكن لتحول دون حرية اتباع مذهب ما في بعض المسائل وخاصة مذهب اهل الحديث الذي كان يميل اليه كثير من الفقهاء كالحافظ الرحالة محمد بن رشيد السبتى (657 — 721 هـ) .

ويبدو ان فكرة المهدوية (118) التي قامت عليها دعوة الموحدين خلفت آثارا ظلت تراود بعض النفوس لدرجة جعلت المستشرق الفرنسي جورج مرسية يذهب — مبالغا — الى اعتبار « الاعتقاد في المهدي والامل في عودة ظهوره من تقاليد البلاد . فمن بين جميع اقاليم الاسلام ، يبدو ان المغرب كان هو الاقليم الذي سيطرت فيه على الازهان فكرة انتظار المهدي . ولاسباب غامضة كانت منطقة سوس المكان الذي تبلورت حوله الامال الملحة . وحتى نهاية القرن الرابع عشر (الميلادي) كان ما زال ينتظر هناك » (119) .

وربما كان الهادي الماسي اول من راودته الفكرة حيث قام على عبد المومن ببلاد السوس « وهو محمد بن عبد الله بن هود الماسي وتسمى بالهادي وادعى الهداية اقتداء بالمهدي محمد بن عبد الله ابن تومرت وكان قصارا ببحر سلا فأقبل الناس عليه من كل مكان واجتمعوا عليه اجتماعا طار به الذكر في الافاق وقامت بدعوته اهم لا تحصي واتصلت دعوته في جميع اقطار العدو حتى لم يبق منها الا مراكش وفاس وخلفت عليه سائر البلاد ورفضوا دعوة الموحدين » (120) . وكان له مع عبد المومن جولات عسكرية انتصر عليه فيها الخليفة الموحي .

وفي زمن الناصر ظهر العالم الاندلسي عبد الرحيم بن عبد الرحمن الفرس الذي « انتحل الامامة وادعى انه القحطاني المراد في قوله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا ... فبعث الناصر اليه الجيوش فهزموه وقتل وسبق رأسه الى مراكش فنصب بها » (121) .

وذكر ابن خلدون رواية عن شيخه محمد بن ابراهيم الابلي انه « خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري ... وادعى انه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من اهل السوس ... وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم فهدس عليه الكسوى من قتله بياتا وانحل أمره . وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى انه الفاطمي واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق اسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره » (122) .

وذكر ابن خلدون كذلك ما أخبره به شيخه المذكور من « انه صحب في حجه في رباط العباد — وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها — رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلميذ والخدام قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم وانهم انما جاءوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الامر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه ارجعوا فقد ازرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا . ويدل هذا القول من هذا الرجل على انه مستبصر في ان الامر لا يتم الا بالعصبيّة المكافئة لأهل الوقت . فلما علم انه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وان عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب ، استكان ورجع الى الحق واتصر عن مطامعه وبقي عليه ان يستقين ان عصبية الفواطم وقريش اجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب » (123) .

ولعله من الواضح في الخبر السالف ان المغرب لهذا العهد والعهود التالية (124) لم يعد مجالا لترويج البضاعات المزيفة الوافدة عليه ، حتى ولو تسترت وراء شعارات من شأنها ان تغري العامة وتؤثر على ايمانهم البسيط ، وانه بالتالي قد استقر نهائيا على فقه الامام مالك مذهباً يهتدى به في مختلف نواحي الحياة تشريعا وقضاء وتديسا وتاليفا .

- (1) بويج سنة خمسمائة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة وتوفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة (1106 - 1143 م) . انظر اخباره في الحلل الموشية ص 68 - 84 ، واعمال الاعلام ص 253 - 256 ، والقرطاس ص 109 - 115 ، والاستقصا ج 2 ص 55 - 62 .
- (2) المعجب ص : 177 .
- (3) انظر تفاصيل هذه الحروب في الاستقصا ج 2 ابتداء من ص 59
- (4) البيان المغرب ، ج 3 ص : 12 - 13 .
- (5) يعني كتاب احياء علوم الدين .
- (6) المعجب ص 172 - 173 ، وانظر كذلك في احرار الاحياء نظم الجمان ص 14 ، والاستقصا ج 2 ص 67 .
- (7) بويج سنة 453 وتوفي سنة 500 وعمره تسعون عاما ، وهو اول من تلقب بامير المسلمين . انظر اخباره في الحلل ص : 13 - 68 واعمال الاعلام ص 233 - 252 والقرطاس ص 93 - 109 والاستقصا ج 2 ص : 21 - 55 .
- (8) انظر التفاصيل في القرطاس ص 124 والاستقصا ج 2 ص 68 .
- (9) انظر ما دار بين المهدي والفقهاء المرابطين في اخبار المهدي للبندق ص 67 واغز ما يطلب ص 4 والمعجب ص 184 - 185 والكمال لابن الاثير ج 8 ص 295-296 ووفيات الاعيان لدى ترجمة المهدي في الجزء الثاني والقرطاس ص 121 - 122 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 227 والاستقصا ج 2 ص 75 - 76 والاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص 360 ودائرة المعارف الاسلامية م 2 ص 451-453 ومراكش لدوفردان DEVERDUN ج 1 ص 151 وتاريخ افريقيا الشمالية (من الفتح الى 1830) لجوليان ص 92 A. JULIEN
- (10) توفي المهدي سنة 524 وكانت الحرب قد بدأت سنة 515 . انظر اخبارها في تاريخ البندق ص 74 - 77 والحلل ابتداء من ص 90 .
- (11) هو عبد المومن بن علي الكومي بويج سنة 524 وتوفي سنة 558 . انظر خبر اتصاله بالمهدي في تاريخ البندق ص 55 - 57 والدعوة الوحيدة ص 88-96 . وانظر اخباره عند البندق حتى ص 121 وفي الحلل ص 117 - 131 ومغرب ابن عذارى ج 3 ص : 12 - 58 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 229 - 238 وتاريخ افريقيا الشمالية لجوليان ص 193 وكتاب مراكش لدوفردان ج 1 ص 157 .
- (12) انظر تفاصيل حروب المهدي وعبد المومن مع المرابطين في المعجب ص 192 - 194 والقرطاس ص 123 - 125 والاستقصا ج 2 ص 78 - 84 .
- (13) اسم اسرتين بربريتين حاكمتين احدهما بالمغرب - وهي المعنية - والثانية

بالاندلس ٦ وهي فرع من الاولى ، وكانت لها امارة مستقلة عاصمتها غرناطة ٦ وذلك بعد تفكك اوصال الخلافة الاموية فى قرطبة .

(14) انظر انتشار كلمة الدعوة الموحدية وترقب الناس لها فى مصر عند ابن جبير فى رحلته ص 22 - 23 - 49 - 50 .

(15) ص : 230 .

(16) ص : 130 .

(17) وهو الذي يضم الجزيرة الخضراء ومالقة وغرناطة ورندة وقرطبة واشبيلية .

(18) بويغ سنة 558 وتوفى سنة 580 انظر اخباره فى الحلل 131 - 132 والبيان المغرب ج 3 ص 58 - 140 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 238 - 246 ومراكش لدوفردان ج 1 ص : 199 .

(19) بويغ سنة 580 وتوفى سنة 595. انظره فى الحلل 132 - 134 ومغرب ابن عذارى ج 3 ص 140 - 211 وتاريخ شمال افريقيا لجوليان ص 112 ومراكش لدوفردان ج 1 ص 208 وكتاب عصر المنصور لمحمد الرشيد ملىين .

(20) هو أبو عبد الله الملقب بالناصر بويغ سنة 595 وتوفى سنة 610 ٦ انظر فيه مغرب ابن عذارى ج 3 ص 211 - 243 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 246 - 250 وتاريخ شمال افريقيا لجوليان ص 116 .

(21) كانت هذه الواقعة سنة 609 .

(22) هو أبو يعقوب يوسف بن محمد الملقب بالمستنصر بويغ سنة 610 وتوفى سنة 620 انظر اخباره فى مغرب ابن عذارى ج 3 ص 243 - 247 وانظر اخبار الموحدين النساء ولايته فما بعد فى تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 250 - 262 .

(23) هو أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بويغ سنة 620 ولم يستقر له الامر غير شهرين ثم خلع وقتل وهو أول مظلوع ومقتول فى الموحدين وكان مقتله سنة 621 انظر اخباره فى ابن عذارى ج 3 ص 247 .

(24) هو أبو محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل بويغ سنة 621 وطلب منه منافسوه التنازل فرفض وقال لهم : ((اصنعوا ما بدا لكم فوالله لا أموت الا أمير المؤمنين)) فوضعوا رأسه فى فسقية ماء حتى مات مخنوقا وذلك سنة 624 .

(25) هو أبو العلاء ادريس بن المنصور الملقب بالمأمون بويغ سنة 624 وتوفى سنة 629 ٦ انظره فى الحلل 136 - 139 .

(26) هو عبد الواحد الرشيد بن المأمون بويغ سنة 630 ومات غرقا فى أحد صهاريج بستانه بمراكش سنة 640 .

- (27) هو ابو الحسن علي المدعو السعيد والمتلقب بالمعتضد ببيع سنة 640 ومات مطمونا سنة 646 .
- (28) هو ابو حفص عمر المرتضى ببيع سنة 646 وتل سنة 656 .
- (29) هو ابو العلاء ادريس ولقبه ابو دبوسى الواقى بالله المعتمد على الله ببيع سنة 665 وقتل سنة 674 وبقتله انقرضت دولة الموحدين .
- (30) انظر اخبار نزاعات الموحدين فى مغرب ابن عذارى ج 3 ابتداء من ص 248 .
- (31) النبوغ ج 1 ص 100 .
- (32) ص 89 وانظر اتباع المهدي واصنافهم مفصلة قبائلهم وبعض اسمائهم فى المقتبس 32 - 48 واخبار المهدي 73 والمعجب 188 واعمال الاعلام 268 - 269 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 470 والدعوة الموحدية 178 - 179 .
- (33) انظر ما كتبه المهدي فى ((اعز ما يطلب)) تحت عنوان : (باب فى بيان طوائف المبطلين والمثمين والمجسمين وعلاماتهم) ص 258 .
- (34) الحليل 90 .
- (35) وفيات الايمان ج 2 ص 38 وانظر فى القرطاس 128 بعض حيله الاجرامية .
- (36) فى حوادث سنة 514 .
- (37) صاحب المهدي .
- (38) تاريخ البيدق ص 78 وانظر كذلك الحديث عن عملية التمييز فى الدعوة الموحدية ص 221 .
- (39) القرطاس 141 .
- (40) المعجب 238 .
- (41) انظر مقدمة ابن خلدون ص 222 والاستقصا ج 2 ص 162 .
- (42) انظر تفاصيل هذه النهضة الصناعية بالقرطاس ص 28 وتقدم العرب ص 147 - 166 - 250 .
- (43) انظر فى الحالة الاقتصادية لمراكش على عهد الموحدين كتاب دوفردان ج 1 ص 278 - 287 .
- (44) انظر بحثا حول الدراهم الموحدية فى مجلة هسپرس 1 - 2
Hesperis 1 - 3 Trim 1933 - Fas 1 - 2
- (45) يعتبر المامون اول من فعل ذلك .
- (46) انظر القرطاس ص 178 - 179 .
- (47) 674 - 869 هـ (1275 - 1464 م) .

- (48) 633 - 737 هـ (1236 - 1337 م) .
- (49) 626 - 981 هـ (1228 - 1574 م)
- (50) انظر أخبار الفاتحين والولاة الاول فى الاستقصا ج 1 ص 78 - 136 .
- (51) قاد الجيوش العربية الى افريقيا فى خلافة معاوية من سنة 50 الى 55 ثم فى خلافة ابنه يزيد من 60 الى 64 .
- (52) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 110 .
- (53) الاباضية أتباع عبد الله بن أباض ، وهم اكثر فرق الخوارج اعتدالا ؛ والصفريّة أتباع زياد بن الاصفر .
- (54) وفيات الاعيان ج 1 ص 137 .
- (55) ص 27 .
- (56) ج 1 ص 25 - 26 ، ط المغرب .
- (57) المصدر السابق
- (58) المقدمة ص 375 .
- (59) نفس المصدر .
- (60) النسخ ج 1 ص 328 .
- (61) مما قد يدخل فى نطاق الاسباب ما ذكر المقدسي فى احسن التقاسيم من أن فريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يوما أمام السلطان ، فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، فقال : وما لك ؟ قالوا : من المدينة . قال : عالم أهل المدينة يكفيننا وأمر باخراج أصحاب أبي حنيفة ، وقال : لا أحب أن يكون فى عملي مذهبان .
- (62) القرطاس 88 .
- (63) فى الحل أنه ((كان يقال لوالده تومت وامغار واسافو ومعناه بلسان البربرية الضياء لافاده الضياء فى المسجد)) ص 85 .
- (64) المقتبس ص 21 وانظر نسب المهدي فى نظم الجمان 34 ، واذا كان البيهقي وكذلك المراكشي يقبلان نسبه فان ابن أبي زرع وابن خلدون يشكان فيه ، انظر أخبار المهدي فى الكتب التى تحدثت عن الموحدين وانظر ترجمته خاصة فى كتاب البيهقي وجزء من نظم الجمان والقسم الثالث من أعمال الاعلام ص 266 - 271 ووفيات الاعيان ج 2 وازهار البساتين ص 77 - 134 والدعوة الموحدية ، ويعتبر تاريخ البيهقي من اوثق مصادرنا عن المهدي ولكن ما وصلنا منه لا يتحدث فيه عنه الا

ابتداء من وصوله الى تونس في طريق العودة ٦ وهذا ما يجعل كثيرا من القموض يتصل بحياته ابتداء من تاريخ ميلاده الذي لم تشر اليه كثير من المصادر المهمة مثل المعجب والقرطاس . واذا كان ابن خلكان يؤرخ لولادته في سنة 485 فان ابن الاثير يراها بين عامي 469 و 473 على اساس انه حين توفي سنة 524 كان عمره ما بين 51 و 55 عاما .

(65) انظر رحلة المهدي الى المشرق في المصدر السابق ص 3 ولعل خروجه من سوس كان سنة 501 .

(66) المعجب 178 .

(67) وفيات الايمان ج 2 ص 37 . والهراسي هو ابو الحسن علي بن محمد بن علسي الفقيه الشافعي ٦ كان يدرس بالنظامية في بغداد ، توفي سنة 504 ٦ اما الطرطوشي فهو ابو بكر محمد بن الوليد صاحب كتاب ((سراج الملوك)) ولد في طرطوشة سنة 451 ورحل الى المشرق في طلب العلم سنة 476 فدرس في بغداد والبصرة ودمشق والقاهرة وانتهى به المطاف في الاسكندرية فاقام بها الى ان توفي سنة 520 .

(68) انظر شيوخ المهدي المشاركة في الحل 85 وانظر دراسته عامة في الدعوة الموحدية ص 57 - 80 .

(69) على طريقة المعتزلة .

(70) كقوله تعالى : ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام (الرحمن 27) الرحمن على العرش استوى (طه 5) يدالله فوق ايديهم (الفتح 10) .

(71) على طريقة الاشاعرة .

(72) العبر ج 6 ص 226 .

(73) اعز ما يطلب ص 237 (فصل في اسماء الله تعالى) .

(74) المعجب 188 .

(75) الملل والنحل ج 1 ص 57 - 61 .

(76) الكامل في التاريخ ج 8 ص 294 في حوادث سنة 514 لدى تعرضه للمهدي .

(77) ج 2 ص 37 .

(78) المعجب 178 .

(79) المؤنس في اخبار افريقية وتونس ص 107 .

(80) ص 122 - 123 .

(81) العبر ج 6 ص 226 .

- (82) انظر الجزء الاول من الاحياء .
- (83) انظر تاريخ البيدق ص 125 والمعجب ص 212 وابن خلدون ج 6 ص 485 والمن بالامامة ص 31 والمصادر المذكورة . (84) عند ابن خلكان انه قام بدعوته سنة 511 وعند ابن خلدون انه قام بها سنة 512 . اما المراكشي فجعلها في سنة 514 .
- (85) انظر بعض مظاهر تغييره للمنكر في كتاب اخبار المهدي 60 - 67 .
- (86) المعجب ص 184 .
- (87) انظر اصحاب المهدي في نظم الجمان ص 27 . ولقد كان له اصحاب في مصر يؤيدونه ويناصرونه ذكر اسماءهم صاحب المقتبس ص 31 - 32 .
- (88) تامل او تينمال كلمة بربرية معناها ذات السطوح المفروسة . وهي قلعة على بعد مائة كلم من مراكش في اتجاه تارودانت بنى بها عبد المومن مسجدا لا يزال قائما حتى اليوم . وبها دفن المهدي وعبد المومن ويوسف والمنصور . انظر الادريسي ص 64 والاستقصا ج 2 ص 78 والمشاهد والقلاع لتراس وباسي ص 37 واطلال تامل لغريول بهسبرس سنة 1922 ص 162 - 163 .
- (89) طبع النص العربي في الجزائر سنة 1903 بنشر لوشياني ، قدم له المستشرق جولد تسيهر بمقدمة ترجمها من الالمانية الى الفرنسية الاستاذ جود فروادي مومبين ، وطبع بعد ذلك في مصر ضمن ((مجموع رسائل)) نشره الشيخ محي الدين صبري الكردي .
- (90) الاستقصا ج 2 ص 83 .
- (91) الحلل 89 - 90 .
- (92) المعجب 187 وانظر في بيعة المهدي تاريخ البيدق ص 73 . ويعتبر ابن تومرت ثاني مهد منتظر بعد عبيد الله الفاطمي الذي بوع مهديا بسجلماسة سنة 297 ، اي قبل ابن تومرت بنحو مائة وثلاث وتسعين سنة اذ ان مهدي الموحدين بويج سنة 515 .
- (93) المصدر السابق 193 .
- (94) انظر الاستقصا ج 2 ص 75 .
- (95) القرطاس 135 وانظر الكامل ج 2 ص 295 .
- (96) من رسالة لعبد المومن بعث بها الى اهل بجاية (انظر مجموع رسائل موحدية ص 135)
- (97) ص 278 - 279 .
- (98) القرطاس 138 .

- (99) المعجب 292 .
- (100) المصدر السابق 291 .
- (101) الحلل 137 - 138 .
- (102) يبدو من الدراهم الموحدية - وهي ذهبية وفضية ونحاسية ومربعة الشكل ولعلها لم تسك الا ابتداء من عهد عبد المومن - انها تمثل مرحلتين : الاولى في ظل عبد المومن ومن جاء بعده من الخلفاء الذين كانوا يعترفون بامامة المهدي فقد كان مكتوبا على وجه بعض الدراهم وانصافها في هذا العهد الله ربنا - محمد رسولنا - المهدي امامنا . الثانية بعد رفض امامة المهدي اي ابتداء من عهد المامون وكان مكتوبا عليها : الله ربنا محمد رسولنا القرآن امامنا .
- (103) الحلل 137 .
- (104) الحلل 137 - 138 وانظرها في البيان المغرب ج 3 ص 267 - 268 .
- (105) القرطاس 179 .
- (106) البيان المغرب ج 3 ص 305 .
- (107) المتوفى سنة 592 .
- (108) انظر بحثا للكاتب عن ((مناهج الاندلسيين في دراسة النحو)) (مجلة دعوة الحق عدد 5 سنة 5 فبراير 1962 م .
- (109) الفصل في الملل والاهواء والنحل ج 4 ص 2 - 3 .
- (110) تاريخ الفكر الاندلسي ص 238 .
- (111) انظر مقدمة كتاب اعز ما يطلب .
- (112) انظر اعز ما يطلب ص 17 - 146 .
- (113) المصدر السابق ص 230 .
- (114) المصدر السابق ص 163 .
- (115) انظر في كتاب اعز ما يطلب فصل (الدليل على ان الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه) ابتداء من ص 163 .
- (116) H. LAOUST: LES SCHISMES DANS L'ISLAM - P. 235
- (117) تاريخ الفكر الاندلسي ص 436 .
- (118) انظر فيها مقدمة ابن خلدون ص 274 .

(119) Georges Marçais : la Berberie Musulmane et 259 – 260
l'Orient M. Age p.

(120) الحلل 121 وانظر كذلك البيان المغرب ج 3 ص 26 والقرطاس 133 والاستقصا
ج 2 ص 99 .

(121) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 250 .

(122) المقدمة ص 274 – 275 .

(123) المصدر السابق .

(124) نسجل هنا أن احمد الاعرج السعدي كان يلقب بالمهدي (انظر تاريخ الدولة
السعدية ص 5) .

الصّحراء... في فجرها الموعود

محمد مهدي الجواهري

اقى الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري، هذه القصيدة مع قصيدة « تحية » في السهرة الشعرية التي نظمتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في ليلة 3 رمضان 1394 الموافق 20 شتنبر 1974 ، بمسرح محمد الخامس بالرباط ، وقد نجحت الحفلة نجاحا كبيرا ، ووقع عليها اقبال شديد من جانب المثقفين والادباء ورجال الفكر .
احببنا نشر هذه القصيدة الرائعة - التي كانت تقاطع بالتصفيقات الحادة - لموضوعها الذي يشغل بالنا ، والذي يعتبر موضوع الساعة .

والمغربيون اكفاء بما وعدوا	صحراء فجرك موعود بما يلد
وفي رمالك من حباته نضد	على جبينك من نضج النجوم ندى
دم بتأموره تستصلح الكبد	وانت من وطن يصفيك مهجته
مهلا فكم فرحة وافى بها كمد	صحراء يا حرة مكمودة عنتا
كما تقطر بعد العلقم الشهد	ستحمدن على العقبى حلاوتها
يضم شمل بنيه اينما وجدوا	لا بد فوقك يوما خافق علم
ورفرقا منه يدينهم اذا بعدوا	يحمون سارية تعليلهموا شرفا
ما ينفع الناس خيلت انها زبد	صحراء كم رثة ضمت معالمها

حتى اذا بان لمح من معالمها
صحراء لا يعدل الدنيا وزخرفها

مدت اليها من الست الجهات يد
الا النقيان منك الروح والجسد



ساءلت نفسي بما يعيا الجواب به
ما بال (مدريد) تشكو العسر معدتها
اتشرب البحر في علاومها غلق
ويسخر الخلق منها اذ يرى عجبا
غرت باجنحة شدت بجانحها
لنا غد يتحدى الطامعين بنا
لم يكسنا الزهو ايام بها سلفت
لنا عليها من ((الحمراء)) شاهقة
كانها في ربي ((غرناطة)) شفق
تزيد عن كل ما ابقى تراثهم
يبنى الحضرات عجلان يزخرفها
عودت شعبك يا مدريد عن تكد
قد شد ساعدنا المبسوط ساعده
وخير من مع طعم الاضطهاد فم
من مبلغ السادة العميان ارقهم
عموا ومذ بصروا بالرب مشرعة
ان الليالي عجيبات بها حرن

وما اريد له عذرا فلا اجـد
وتستزيد بما لا تهضم المقد
وتقضم الصخر في لثاتها درد
صحراء مزروعة بالموت تزرد
فالتنفرد نحونا ابان ينفـرد
وعندها ما يسر الطامعين غـد
فهل ستبطرها ايامها الجـدد
لم يلف لروع منها زينة وتـد
مدى الاصائل باق سحره ابدا
وان هم انتقصوا منها ولم يزدوا
فتسترد ويبقيهن متـد
لو لم يكن من صنيع الساسة النكد
لو ارتخي عنه حبل مبرم مسـد
ما انفك يسقيه كاس النل مضطهد
حرمانهم ، وتعاصت فيهم العقد
صموا فما افتقدوا شيئا ولا وجدوا
لمسلسلين واسلاسل لمن صمدوا

ركب من الدهر حث سيره صعد
ولا السماء ولا الصبح الذي تلد
صاف ، ورمداء فى عين بها رمد

مشى عليهم فهم فى قعره صبيب
وما يحول الضحى لونا ولا شية
وانما هي صفو عند ذي بصر



عليه مما بنى تاريخه رصـد
كما يفى لظل الوالد الولـد
ويستطوى سمعها ان يزار الاسد
وارتج غيظ على اكتبه اللـد
ان لا يحوم حوالى غابه احمـد
محلثات عن الحوض الذي ترد
بذاك عودها أبأؤك النجـد
وملتقى فرقد عن فرقد صدد

يا حارس الوطن المرهوب جانبه
فأت اليك بما ضمت وما تلـد
صحراء يوحشها عوى الذئاب بها
غضبان ردت على اليافوخ عفرته
ينهي لمن كان فى سهل وفى جبل
واستشفعت بك للسقىا مطامحها
واستنجدت بك ان تحمي مصائرنا
تمضي على سنن منهم وعن ثقة



يحتج من سمعوا عنه بمن شهدوا
ولحت فيها كضوء الجمر تنقـد
وقد توالى بنات الدهر تحتشد
من البيان ، وفيه الهدى والرشد
مر الوعيد على حلو بما تعـد
لا المرعدات ولا المحمية الزرد

شهدت يومك مرنان الصدى عرما
غامت كما اسود ((كانون)) سماوتها
شهما تنفض عن برديك غبرتها
وكان فصل خطاب فيه ملجمة
ما كان ابرعه مزجا تصب به
شهرت امضي سلاح لا يقوم له

ما اعظم الشعب يرمي عن كواهله
زفت بالعودة البشرى لتربتها
انعشت منها فؤدا ظل محتسبا
صحراء محزونة ان يستبد بها
وان تغادر اوصالا ممزقة
غمت عليها رؤى كانت تطوف بها
تمتد بالعين حتى لا مرد لها
وبدلت غبشا اطياف مهجتها
كانت تلم عناقيدا معرشة
وتستريح الى نجوى الرياح بها
واليوم واحاتها قفر ، ونسبتها
ولم اجد كسليب الارض حاردة
تسقى وتسقى وما تنفك عاطشة
حتى اذا استرجعت عادت بشاشتها

عبء الخلاف لدى البلوى ويتحد
ومن عليها فكل صادق غرد
لدى الدخيل كئيبا فهو يفتاد
نوى فتفقد من تهوى وتفقد
وان يطن لها عن ساعد عضد
جنلى من الوطن الغالي وتعتقد
ولا مساف ، ولا بعد ، ولا امد
كما تبدل بؤسا عيشة رغد
من النجوم بمرج معشب تقد
تخالها صوب ارض حلوة تفد
صر ، وكل مسيل فوقها جمد
محمومة بالدم الحران تبترد
وليس ينفك من يسقى ومن يرد
وعاد زهو الحياة العابس الحرد



مشى اليك يجد البيعة البلد
يلقي باثقل حمليه على كتف
واستعصمت بك احزاب وقادتها
عيد الاخاء جلا الباغون بهجته
عقائد ورسالات تلم بها

عليك فى الخطب بعد الله يعتمد
من عاتيقك اذا ما خانه كتف
يلتف ما تررب منهم ومبتعد
لو جاز حمد بفاة مثلهم حمدا
رسالة يوم لاواء ومعتقد

اليوم ما اجتهدت صماء قارعة
مستامنون على خير البلاد مشت
أيد تلاقت ووضحت في الجهاد يدا
لهم وللناس والاطوان ما زرعوا
وبورك الامر شورى يستقيم به
وما الكمي على جيش يصون به

وفى غد فلهم فيه وما اجتهدوا
للمشرقين على أيديهم برد
تشتد بالحسن الثاني وتعتصد
على البسيطة من خير وما حصوا
على عثار الليالي نهجه الجدد
مثل الكمي غداة الروع ينفرد



أبا محمد سمما جرس مالكة
من واقف في سبيل الناس مهجته
لم يعرف الدهر لا حقدا ولا حسدا
أفرغت جهدك في التبليغ ما اتسعت
فحسبك اليوم منه ما أبنت به
واعمد لاخرى تنهي بها المناجزة
ان الطفاة اذا لا ينتهم بطروا
ومنطق الحق مشلول ، ومصطلح
لا بد من جولة تنجاب غمرتها
فخل جندك جند الحق يقحمها
وفى حماك صناديد يضيق بهم
سمر الوجوه شداد من شكيمتهم
من كل منفلت الكشحين محترَب

سمحاء لا زيغ فيها ولا اود
في حبهم يستطاب الأين والسهد
وان تشفت به الاحقاد والحسد
له العلى، والنهى، والعظم، والجلد
للكون شوكة عز ليس تختصد
ليس الخصام بمنهيها ولا اللدد
مثل الصفار اذا دللتهم فسدوا
خزيان مضطهد عات ومضطهد
عن صامدين على حق بما وعدوا
وخل خيلك خيل الله تضطرد
درع الجلاد ويفشاهم اذا اجتلدوا
ظل على التربة السمراء ينقصد
ينسل كالسيف عريانا وينجرد

لم تال خيفة اشباح مغاربة
فصد دما مغربيا لا كفاء له
دما يسيل على سوح الندى سرفا
فصده تنجد به الصحراء فى غدها
فرائص من بني صهيون ترتعد
بين الدماء زكيات ولا قود
وانه مثل دمع العين يقتصد
عرقا بأمس على الجولان يفتصد



يا ناثرين على البلوى نفوسهم
يهدون للشرق ارواحا اذا عصفت
وزارعين على بعد قبورهم
طيخاء ملفومة بالرعب موحشة
نهجتم الدرب سمحاء شريعتهم
طوعا ، فهم كسر فى سوحها قصد
بالموت ريح قرة صرد
نوم الغريب على الاحجار يتسد
وكل شاهدة نجم بها يقصد
بالتضحيات لمن يسمى ومن يفد



صحراء فجرك موعود بما يلد
والمغربيون اكفاء بما وعدوا

طنجة

محمد مهدي الجواهري

من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي للخليفة ابن مرزوق *

د. محمد ابن شقرون

ان وحدة المغرب العربي التي ننشدها اليوم ونحاول تحقيقها بوسائل مختلفة ، وفي مجالات متعددة، كانت قائمة بالفعل ومتجلية بصفة تلقائية في كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت تطبع دول المغرب العربي في حقبة معينة من تاريخ هذه الدول. فمحاولاتنا الحالية الرسمية وغير الرسمية تستند الى أسس قوية وجذور عميقة تمت الى الماضي بأكثر من صلة . وليس ابن مرزوق الذي ندرسه اليوم الا مظهرا واضحا من هذه المظاهر الثقافية المشتركة بين اقطار المغرب العربي ونموذجا من نماذج فكره .

فهو من الشخصيات الالامعة التي طبعت ادبنا بطابع خاص، وتركت اثرا ملحوظا في ثقافتنا بعد اخذها الشيء الكثير من بيئتنا ونيلها قسطا

وافرا من الفوائد المادية والمعنوية والثقافية التى كان مغربنا يوفرها لكل من استظل بظل ملوكة وانضم الى مجالس علمه وانخرط فى سلك قضائه او قواده .. سواء أقدم من الجزائر أم من الاندلس أم من غيرها .

ومهما يكن من امر فابن مرزوق هذا معروفة حياته، واضحة آثاره، ذائعة شهرته ، الا ان هذه الحياة وهذه الشهرة لا تتجاوزان المستوى العام وحدود المعرفة المبنية على تناقل الاقوال والاحكام ، حدود المعرفة الخارجية الظاهرة التى تكتفى بما يرد فى الروايات ، وما يستخلص من المنقولات والملخصات ، لذلك نرى من الضروري الرجوع الى الشخص نفسه لنتعرف عليه فى بيئته، وفى تجاوبه مع اصدقائه ورؤسائه ، ومن خلال الظروف والملابسات التى احاطت به ، لندرك هويته النفسية والثقافية كما كانت عليه ، كما يجب ، تكميلا للبحث ، ان نستقصي آثاره ونلم بمحتوياتها للوقوف على ما فيها من عناصر ايجابية واخرى سلبية ونطلع على ما تأثر به وما اثر به ما اخذه وما اعطاه ولنقيم بالتالي الدور الذى قام به فى توحيد الثقافة بين المغرب الاقصى ودول المغرب العربي الاخرى .

والملاحظة التى نقوم بها بادىء ذي بدء هي ان ابن مرزوق الذى نتحدث عنه اليوم كثيرا ما يكون موضوع التباس وغموض فى كثير من التراجم والنصوص ، ذلك ان المرازق كثيرون وان اسرتهم وافرة العدد ، ومتشعبة العناصر ، ومتعمقة الجذور والاصول . انجبت من الادباء والفقهاء والعلماء الفطاحل عددا يصعب حصره ويعسر ذكره فى هذا المجال . فهناك على سبيل المثال ابن مرزوق الكفيف وابن مرزوق الحفيد وغيرهما ممن اختلط اسمه بكتابنا ونسب اليه مما هو بحق لمترجمنا (1) .

فابن مرزوق الذى يعيننا هو ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد ابن محمد بن علي ابي بكر العجيسي تميز عن غيره باللقاب التى يحملها والتى عرف بها وعرفت به وهي شمس الدين، والخطيب، والجد.

ولد بتلمسان سنة 710 / 1310 (3) او سنة 711 / 1311 وفيها تلقى دراسته الاولى تحت رعاية والده العالم المحقق الدائع الصيت والقوي الذكر الشهير بين اقرانه بفزارة علمه وبصلابة رايه وبورعه ووقاره . وفي سنة 818 / 1319 (4) غادر الابن مسقط رأسه متوجها الى المشرق حيث مكث ما يربو على خمس عشرة سنة . وتعتبر هذه الرحلة الاولى مرحلة حاسمة من مراحل حياته اذ فيها استطاع التجول في عدة مدن من بلدان المشرق (5) والتعرف على حياة اهلها ونظمها والاتصال بعلمائها وفقهائها والتلمذ لكثير من نبغائها حتى ان عدد شيوخه بها بلغ على حد قوله مائة وخمسين شيخا (6) ، وهو عدد له ما له من اثر في تكوين شاب متعطش للعلم والمعرفة ، حريص على تقوية مداركه وتنويع مناهله وتكثير مصادر تنمية عقله وروحه .

وبعد انقضاء هذه المدة قفل راجعا الى المغرب سنة 733 / 1332 اي بعد استكمال دراسته الاساسية والتأكد من رسوخ قدمه . فاتضح له ولغيره انه اصبح من النبغاء المحدثين المفتين ، والادباء والمؤرخين ، رغم سنه التي لم تكن تتجاوز ثلاثا وعشرين سنة .

وهنا تبدأ مرحلة اخرى من مراحل تطوره وتتفتح امامه آفاق تنبئ بازدهار مستقبله وتفسح له مجالات يستغل فيها مواهبه ، ويؤكد شخصيته ، ويطلق العنان لنزعاته وانانيته ، كاشفا عن اغراضه واهوائه ، وعن حقيقته المتحكممة في ساوكة ، مستكملا تكوينه ، ومعمقا ابحاثه في البيئة الجديدة التي فتحت له ابوابها ، ورحبت به بين علمائها ، وتحت رعاية ملوكها .

ذلك ان السلطان المريني ابا الحسن (7) كعادة ملوك هذا الوطن ، ما أن سمع بخبر الشاب المثقف ونبوغه المبكر حتى اوفد اليه من استقدمه واوصله به فعينه خطيبا بجامع العباد فكان عند حسن الظن وبرهن عن المقدرة المتوخاة ، وزاد في تأدية المهمة المنوطة به وكشف عن استعداد خاص جعله اهلا لثقة السلطان الكبير الذي اعجب باستقامته وبورعه ، وبتفتق ذهنه وقوة ذكائه ، فقربه منه مرة اخرى حتى اصبح وثيق الصلة به ، مستانسا به ، لا يقوى على مفارقتة في سرائه وفي ضرائه لما

توسمه فيه من شجاعة واخلاص وطرافة وانبساط وفكاهة (8) ورهافة احساس فادرك لديه منزلة عظمى ومكانة مثلى لا يتطلع اليها الا من سمت مداركه وعلا كعبه وتآلق نجمه فى دنيا الثقافة والعلم .

وبالفعل فقد تحقق لابن مرزوق ما كان يصبو اليه ، ويطمح فى بلوغه من المنى والعز والسؤدد ، وقوة النفوذ . اذ اصبح يلج البلاط كعضو من المحاشية وانتظم فى سلك الجلساء والمؤنسين الخواص الذين يتكون منهم مجلس السلطان فى بيته ، وما زال كذلك يترقى ويتدرج فى سلم الرقي الى ان اصبح خادما له ، ثم خطيبا فى مسجده ، ثم كاتبا لسره ، واخيرا استاذة الذى افاده فى حله وترحاله (9) .

فكان طبيعيا ، والحالة هذه ، ان يكلف بهام دبلوماسية وغيرها بقسنطينية واسبانيا حيث ابرم باسم مخدومه معاهدة صلح مع ملك قشتالة الادفونش الحادي عشر .

وهكذا بلغ القمة ، فى اوج عز الدولة المرينية ، لكن طموحه القوي دفع به الى الامام ، فانساق وراء شهواته ، وانزلق فى مهاوي قضت على سمعته ، وحطمت كثيرا من مكاسبه ، وافقدته تلك المكانة المرموقة التى كان ينعم بها قبل وفاة ابي الحسن . ادلى بدلوه فى ميدان السياسة فلقى من نتائجها ما يلقاه كثير من المغامرين ، والمتقلبين ، والمذبذبين اذ سجن وعذب بأمر من السلطان ابي ثابت ففر هاربا الى العدو الاندلسية ناجيا بنفسه ، حيث عين خطيبا لجامع الحمراء بقرنطة (10) .

ومع ذلك فلم يتعظ ويكتف بما حققه من اغراض مادية ومعنوية فيلتزم السكينة والوقار ، ويترفع عن الدناءة والسفاسف والاستهتار ، ويتعالى عن كل ما يوقعه فى شبكة المحتالين والدماسين وفى قفص المتهمين غير التائبين ، فكان مصيره مرة اخرى الاعتقال والعقاب عندما أمر امير المؤمنين السلطان ابو عنان بسجنه مدة بلغت ستة اعوام .

فكان المفروض فيه بعد هذه التجربة القاسية ان يرجع الى ربه فيقوم سلوكه ، ويكبح جماحه ويهديء عواطفه وأعصابه ويجتنب الافراط

والتقريط ويصلح ما فسد بينه وبين الدولة التي ما فتئت ترعاه وتفدق عليه - كما كانت تفعل مع غيره - تكريما لعلمه وتعزيزا لنفوذه المعنوي والروحي ، الا انه أعاد الكرة (11) واستأنف نشاطه طمعا في المزيد من الكسب والمال والجاه ، والظهور بمظهر المنتصر على خصومه في اقرب الاوقات ، فاتصل بالسلطان ابي سالم ابراهيم (12) فقال في كنفه ما لم يسبق ان ناله في يوم من ايامه الزاهرة ، اذ تولى الوزارة ، فأصبح ينعم بالراحة والاطمئنان وهو من اقرب المقربين ، وفي الدولة من رجالها المرموقين . لكن هذه النعمة سرعان ما تحولت نقمة ، وشاءت الاقدار ان ينزل ابن مرزوق عن كرسي الوزارة وينضم الى صفوف المعتقلين نادبا حظه ، ونادما على ما صدر منه ، فرحل الى تونس على يسترجع معنويته ، ويعوض خسارته فبادر باسماع صوته الى ملك تونس آنذاك السلطان ابي اسحاق ابراهيم الحفصي وابلاغه ما حل به وما يروج بخاطره مستعظفا اياه ، ومؤثرا فيه ببلاغته ، ولباقتة ، وكياسته ، وعلمه وحسن تفهمه للمشاكل القائمة بينه وبين خصومه بني مرين ، فاستجاب له ابو اسحاق وشمله بعطفه ورق لحاله ، فعينه خطيبا ثم عضوا في مجلسه العلمي الخاص .

ومع ذلك لم يستقر له مكان ، ولم يدم له مقام في هذه الديار ، فقرر الرحيل الى الشرق ، وغادر تونس سنة 773 / 1372 فحط بالقاهرة ورجع الى نفسه يحاسبها ويسألها عما اقبلت عليه وادبرت ، ولازم التدريس ، وانكب على التأليف ، الى ان وافاه الاجل المحتوم سنة 1379 / 381 .

تلك كانت حياة ابن مرزوق الخطيب اوجزناها متعمدين واكتفيينا بابرار معالمها الكبرى ، وايضاح خطوطها العريضة ، لمساعدة القاريء على تفهم الجانب الفكري منها . وهو الذي يهمننا هنا اكثر من غيره وتنبع تطور انتاج مترجمنا ومعرفة دوافعه وعوامله ، والا فالمراجع كثيرة ومتنوعة حاولنا استقصاءها في هذا الموضوع وتقديمها (13) للباحث الراغب في المزيد من هذه المعلومات عن حياة المؤلف الذي ندرسه والتعمق في هذا الجانب الذي لخصناه وجعلناه مطية لغرض آخر سنحققه .

— اربعون حديثا (24): مجموعة احاديث نبوية رواها عن اربعين شخصا بالسند الى اربعين صحابيا تتعلق بأربعين موضوعا مختلفا وعنوانها بالضبط : الاحاديث الاربعون النبوية فى مرويات الخلافة العلوية .

— تيسير المرام فى شرح عمدة الاحكام (25) : وهو شرح لعمدة الاحكام من كلام خير الانام لابي محمد عبد الفنى المعروف بتقى الدين المقدسى الجماعلي

— ازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب (26) :

— شرح الاحكام الصفرى لعبد الحق الاشبيلي (27) :

— جنى الجنتين فى شرف الليلتين (28) : يتعلق الامر بكتاب جدير بالتحليل برهن فيه مؤلفه عن ثقافته الواسعة وعن قدرته على المناظرة والفوص فى علمي الاصول والفروع ، ولا غرابة فى ذلك فابن مرزوق كلما قلنا حجة فى هذا الميدان .

وخلاصة ذلك ان المؤلف عقد مقارنة بين ليلة القدر وليلة المولد النبوي للمفاضلة بينهما فانطلق بعيدا يحلق فى اجواء فسيحة بحثا عن الحجج والادلة لتدعيم موقفه وتعزيز رايه .

والواقع أن الامر يتعلق ببحث طريق جديد فى منهجه ، أصيل فى بابه ، فريد فى نوعه ، لم يسبق لاحد ، على ما فى علمنا ، ان عالجه بمثل هذا الاسلوب ، فكان موضوعا من مواضيع الاجتهاد لا من مواضيع النقل يتوفر فيه الباحث على نص يعتمد عليه لتبرير موقفه .

ونظرا لاهمية هذا البحث يجدر بنا ان نتساءل عن الاسلوب الذى اتبعه فيه مؤلفه . لقد استهالة بمقدمة طويلة اقحم فيها نفسه مرة اخرى ليتحدث عن نشأته وحياته وخيبة امه والمحن التى قاساها والمغامرات التى مر بها ، والغربة التى يشعر بها عندما طوبل منه الادلاء برايه فى هذه المسألة الشائكة . لقد هجره الاهل والاحباب والاصحاب ، واصبح

قوي ، متخصص في علم الروايات والآثار ، ومؤرخ مطلع على اخبار الامم وتجاربها وشؤونها الاقتصادية والاجتماعية ونظمها السياسية وغيرها ، ثم هو الى ذلك خطيب بليغ مشهور بخطبه في المغرب والمشرق (16) .

وفي هذه الآثار كذلك نجد ما لا يوجد في الخزانات ونعثر على ذكر مصنفات قلما سمعنا بها لان مؤلفها هو الذي كشف لنا عن اسمائها (17) وشيء من محتوياتها فعلى الباحث ان يرجع اليها لا ليتصفحها بل ليقرأها ليقف على ما في ثناياها من معلومات واضافات ووثائق مغمورة في حاجة الى النشر وباختصار فان نشاط هذه الشخصية الثقافية اللمعة التي تنتمي الى جميع دول المغرب العربي في اصلها والتي تتمثل فيها وحدة ثقافتها يتجلى فيما سنفصله في المواضيع الاتي ذكرها :

التاريخ :

1 - المسند الصحيح الحسن في اخبار مولانا ابي الحسن (او في اخبار ومآثر مولانا ابي الحسن) :

هذا كتاب خاص بالسلطان المريني ابي الحسن كما يدل عليه عنوانه خصه له خادمه ابن مرزوق للتعريف به وبنسبه وبخصاله وآثاره ، وبأوجه نشاطه اليومي وسائر اعماله وتصرفاته ومواقفه من الشرفاء والعلماء والمتصوفة والقواد والعمال .. وبالجمله فهو سجل حافل بالاحداث التي عاشها المغرب في عهد هذا الملك وذاخر بمعلومات - قلما نجدها في مؤلفات اخرى - تتعلق بالدولة المرينية ونظمها السياسية والاجتماعية وعادات المغرب من حيث المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك من الطقوس الدينية والاجتماعية التي لا يمكن تفصيلها هنا . نعم ، يتعلق الامر بمؤلف ضخم حوى من الفوائد الجمه والتفاصيل الغزيرة ما لا يمكن ان يفي به الا دراسة مستقلة ، لا يزال مخطوطا الى اليوم رغم الجهود التي قام بها المستشرق ليفي بروفانصال Levi Provençal للتعريف به وذكر محتواه وترجمة فقرات منه (18)

والجدير بالذكر ان النسخة التي اعتمدها في هذا الموضوع ناقصة يمكن
تكميلها بالنسخة التي عثر عليها الاستاذ ابراهيم الكتاني والتي تحمل رقم
رقم ك 111 بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط . ومن هاتين
الوثيقتين يمكن استخراج النص الكامل لهذا المؤلف (19).

واذا كان من ملاحظة نقوم بها في هذه العجالة حول مؤلف المسند
الصحيح . . فاننا نسجل انه قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وخمسين
بابا وخاتمة حوت ، كما أسلفنا - من المعلومات السياسية والاجتماعية
والثقافية المتعلقة بالمغرب الاقصى ما لا نجده الا نادرا في الكتب التي الفت
في هذا العهد . فالمؤلف رغم اطنابه واستطراده ومبالفته في كثير من
الاحكام والمواقف قد افادنا بما لم يكن ينتظر من مثله فهو اذن جدير
بكل عناية وتقدير .

وهو كذلك ايضا لانه استغل الفرصة الممنوحة له فاقحم نفسه في
كثير من الفصول المخصصة لخدمته واطلق العنان للتحدث عن
شخصيته وحياته وتجاربه ، ولذلك يكتسي مؤلفه هذا صبغة « الترجمة
الشخصية » (20) ويعد فهرسة تضاف الى فهرسته الحقيقية التي
سنتحدث عنها في محلها .

العلوم النقلية :

اما في العلوم النقلية فلقد الف ابن مرزوق الكتب الآتية :

(1) اسانيد البخاري : وهو كتاب غير موجود لكن مؤلفه ذكره في
مسنده (21) .

برج الخفا في شرح الشفا (22) : وهو شرح لكتاب الشفا في
حقوق المصطفى للقاضي عياض .

ايضاح المراشد : ذكره المؤلف نفسه في كتابه جنى الجنيتين (23)
الآتي الذكر . وذكره ايضا في المسند .

والنتيجة التي نخرج بها من هذه العجالة هي ان ابن مرزوق قضى في المغرب اكثر من ثلاثين سنة وساخ شطرا كبيرا من عمره في المغرب الاقصى حيث افنى شبابه فاحتك بأهم سلاطينه ورجال دولته فخاض غمار السياسة ، وتحمل مسؤوليات خطيرة ، عرف فيها انواعا شتى من التقلبات والمحن ، اذ كان رجل عمل وحركة دائبة ونشاط مستمر ، لا يعرف للخمول معنى ، ولا للانزواء سبيلا ، غايته الاولى هي صرف طاقاته الجسمية والعقلية ، وممكناته الروحية والوجدانية في ميادين كثيرة . لكن الظروف لم تساعد على قضاء جميع مآربه ، وتحقيق اغراضه السياسية العليا ، فلم يفلح « كرجل سيف » ، فشل تقريبا في جميع المحاولات التي بذلها في هذا المجال .

وفي رأينا ان طبعه الحاد ، ومزاجه العصبي ، وانحداره من اسرة عريقة في المجد ، ووجوده داخل المغرب الاقصى بجانب شخصيات اخرى عاصرته ونافسته وزاحمته على الصعيدين السياسي والثقافي (14) ، كل ذلك ادى الى ما عرفه الرجل من خيبة امل وسقوط ، ولقد اعترف هو نفسه بهذا الفشل (15) وندم على ما صدر منه من نزوات وتصرفات ، سعيا وراء تحقيق الشهوات والملذات ، لكن ذلك الندم لم يكن له ادنى تأثير على سلوك الرجل ، بقي حبرا على ورق كما يقال ، لان « الزمن بمثله لبخيل » .

على ان لنا في الرجل جانبا ايجابيا مشرقا حافلا بالاعمال والمواقف الخالدة ، ومعنى ذلك انه اذا كان قد فشل « كرجل سيف » فان انتصاراته « كرجل قلم » لا يمكن ان تنمحى وتندثر لان آثاره في هذا الميدان لا تزال ماثلة الى العيان تشهد لصاحبها بجهوده الجبارة في خدمة الثقافة الاسلامية وشؤون الفكر ، ذلك انه رغم التقلبات التي عرفها ، ورغم التنقلات التي قام بها - داخل المغرب وخارجه - والتكاليف الادارية التي تحملها ، والمسؤوليات الجسام التي صرف معظم اوقاته فيها ، رغم ذلك كله فان مؤلفاته الادبية والعلمية تدل على طول بآعه ، وسعة اطلاعه ، والمآمة بشؤون الثقافة العربية وتاريخ الاسلام ، فهو فقيه ، حجة في الاصول والفروع ، وعمدة في الاحكام ومحدث ذو سند

فريدا بثيسا » وتحمل من الهموم الدنيوية اثقالا واي اثقال وكابد نكبات وعثرات من الدهر والظهور بالدنيا » ، ثم ينتقل الى مدح مخدومه السلطان الحفصي ابي اسحاق ابراهيم فينخلع عليه من الالقاب التشريفية والافصاف التكريمية ما هو واضح في مؤلفه ، ثم يتدرج ، ليكون المدح اعم واشمل ، الى الدولة الموحدية لابراز محاسنها وتعداد امجادها والتذكير بانتصاراتها ويخص منها بالذكر « الامام المهدي العلوم محيي سنن الهدى وحمي حرمانه » ابن تومرت الموحد الذي يستحق كل تقدير واحترام فيبجله ويعظمه لانه يرى فيه القدوة الحسنة والمثل الاعلى (29)

وليس بغريب ان تصدر من مترجمنا هذه الاحكام ويفوه بهذه الاقوال فهو متقلب بين عشية وضحاها كما يقال ، ينقض نفسه بنفسه « يدم اليوم ما مدحه بالامس » ويهدم ما بناه في ظرف وجيز فالصديق الحميم يصبح عدوا للدوا والعكس بالعكس !

ما دامت المصلحة المادية او المعنوية توحى بذلك .. وحتى المبادئ تتبدل وتتغير تبعا للظروف والملابسات ، والاهواء والنزعات ، فالمذهب الظاهري يعوض المذهب المالكي ، والعقيدة المهدوية تحل محل العقيدة الاشعرية ، او تختلط بالعقيدة الحنبلية !

بعد هذه المقدمة الطويلة ، المفيدة ، نجد ثلاثة ابواب رئيسية تشكل وحدة الموضوع وهي مرتبة كما يلي :

1 - الباب الاول : خاص بلبلة القدر (ص 1 - 32)

2 - الباب الثاني : خاص بلبلة المولد (ص 32 - 91)

3 - الباب الثالث : يبحث عن حل للمشكل القائم ويضع حدا للجدل والمناقشة ، ويستخلص النتائج الضرورية ، ومع ذلك فالمشكلة لا تزال هي هي ، لان المؤلف لم يستطع الادلاء برأي قاطع ، رغم شروحه الطويلة ، وتحليلاته العميقة ، ترك القاريء في حيرة من امره ، يكلف نفسه عناء البحث عن ما يجب ان يسلكه ازاء هذه القضية الشائكة .

ومهما يكن من امر فابن مرزوق برهن بأسلوبه العلمي عن اطلاع واسع ودقيق فى شؤون الفقه والفتاوى ، فى أصول الدين وفى أصول الفقه وأبان عن قدرة عجيبة (30) على استنباط الأحكام والاستدلال بالحجج الموضوعية التى يستند إليها كل مفتي وكل مجتهد تتوفر فيه شروط الفتوى والاجتهاد .

أصف الى ذلك ان هذا البحث يصطبغ بصبغة موسوعية تذكرنا بثقافة الجاحظ ويأدبه ذلك ان « جنى الجنيتين » يحوي من الأحاديث والأحكام الفقهية والأخبار والسير والنوادر والطرائق والفرائب وعلم الكلام وإيام العرب والعجم وشؤون الخلاف بين المذاهب الفقهية وآراء الصوفية وأصول الخلافة والإمامة ، يجمع من كل هذه العلوم والفنون ما يجعلك تطمئن الى ثقافة ابن مرزوق الواسعة والمتنوعة وأدبه الذى يعنى ان يأخذ الأديب من كل فن طرفا هذا بالإضافة الى تعمقه وتبحره فى علوم الفقه والحديث .

خطب دينية (31) :

تتوفر الخزانة الملكية بالرباط على مجموعة من خطب القاهما ابن مرزوق فى أربعين مدينة من مدن الإسلام ورتبها على حروف المعجم « اختطب بها فى قواعد الأمصار ومختلف الأقطار ، كمدينة فاس وطنجة وسلا ومراكش وأزمور واسفي وأغمات والمنصور والعباد من ظاهر تلمسان وهو أول موضع تقلد فيه هذه الخطة » .

برنامج المرويات (32) : ذكره المؤلف نفسه فى جنى الجنيتين رسالة فى الصبر على طريقة أهل التصوف : صرح بذلك فى المسند قائلا : وقد كنت جمعت ما قبل فى الصبر نشرًا ونظمًا جزءًا على طريقة أهل التصوف وأهل الأدب (33) .

فى العروض

ترك لنا المؤلف فى هذا الباب المفاتيح المرزوقية لحل أقفال واستخراج خبايا الخزرجية (34) .

في السياسة :

الف في هذا الموضوع كتابا سماه في مؤلفه جنى الجنتين كتاب الامامة (35) تعرض فيه للخلافة واسسها ومبادئها وقوانينها وفوائدها.

فهرسة :

واخيرا نذكر لابن مرزوق فهرسة تكاد تكون مجهولة الى يومنا هذا فباستثناء ابن فرحون الذي اقتبس منها بعض الفقرات فاننا لا نعرف عنها شيئا كثيرا . ومع حسن الحظ فان الخزانة الملكية بالرباط تتوفر على نسخة منها (36) وقع العثور عليها مؤخرا لكنها نسخة عتيقة ومبتورة ومتلاشية لا تكاد تقرا ولذلك يتحمل القاريء الراغب في الاستفادة منها مشقة كبيرة اذا ما اراد الاطلاع على بعض سطورها .

اما عنوانها بالضبط فهو : عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من اجاز من ائمة المغرب والشام والحجاز .

ونظرا للاعتبارات التي اسلفناها فان « عجالة المستوفز ... » تكتسي صفة هامة وتشكل عنصرا ايجابيا في ترجمة ابن مرزوق .

فما هو محتواها ؟ اهتم فيها صاحبها بذكر اسماء الشخصيات الثقافية التي اخذ عنها مباشرة وتلمذ لها مدة او التي اتصل بها بقصد الاستفادة من نصائحها . ويتعلق الامر بعلماء وفقهاء جلهم من مصر والمدينة المنورة وفلسطين بالاضافة الى عدد قليل من الاندلسيين والجزائريين والتونسيين . ومما يلفت النظر اننا نجد ضمنهم ست نساء (37) . .

وخلاصة القول ان فهرسة ابن مرزوق ثمينة ، جديرة بالنشر رغم كون صاحبها لم يهتم فيها بذكر سند اشياخه ولم يعن العناية الكافية بتحديد نوع ومجال ثقافتهم كما انه اغفل تقريبا آثارهم . لقد اكتفى في بعض الاحيان بايراد اسماء كتب حفظها او طالعها وانما الذي كان يهمه بصفة خاصة هو تعداد شيوخه واعطاء بعض المعلومات عن حياتهم .

وهكذا يتضح لنا ان ابن مرزوق الخطيب كان — رغم زلاته وهفواته — من أعظم الشخصيات المغربية التي ربطت بين دول المغرب العربي — بل حتى بالمشرق — برباط ثقافي متين ، بتأثيرها في هذه الدول وبتأثيرها بها الى حد تفاوتت درجاته حسب الظروف والملابسات ، كما يتضح لنا من خلال تحليل نفسه وآثاره المستوى الثقافي والعلمي الذي بلغته هذه الاقطار في عصر من عصورها الزاهرة . فهو نموذج من نماذج الهوية المغربية في حقبة معينة من تاريخها . اخذ من هذه البيئة واعطاها واتصل بعلمائها وفقهائها فأفادهم واستفاد منهم قبل ان يغادرها بصفة نهائية الى الجناح الآخر من العالم الاسلامي ليفيد هناك ايضا بعلمه وبدروسه ، وبوعظه وبارشاده .

د. محمد ابن شقرون

مصادر البحث :

- ابن مرزوق ، المسند الصحيح الحسن في اخبار مولانا ابي الحسن مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ق 111
- ابن مرزوق، عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من اجاز من ائمة المغرب والشام والحجاز ، خ الخزانة الملكية بالرباط رقم 7579 .
- ابن مرزوق ، جنى الجنتين في شرف الليلتين ، خ الخزانة العامة بالرباط رقم K 1228
- ابن مرزوق ، الاحاديث الاربعون النبوية خ د 3582
- ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج 11 ص 223 و 236 (ط . القاهرة 1319) .
- ابن خلدون ، العبر ج 7 ، 312 .
- ابن خلدون ، تاريخ البربر (ترجمة) ج 11 ، 462 — 464 .
- ابن خلدون ، المقدمة ، باريس سنة 1863 ، ص 38 .

- يحيى ابن خلدون ، بغية الرواد ، نشره الفريد بيل بالجزائر 1913
— 1904 ، ج 1 ، ص 50 وترجمة ص 63 - 64 .
- المعري : نفع الطيب ج 7 ، 309 - 331 ، ج 8 ، 310 .
- ابن حجر : الدرر الكامنة ، (1348 / 1920) ج 3 ، 360 .
- ابن فرحون ، الديباج ، ص 305 - 309 .
- ابن القاضي ، جدوة الاقتباس ص 140 - 142 .
- احمد بابا ، نيل الابتهاج ، ص 267 - 270 .
- ابن مريم ، البستان ص 184 .
- الزركشي ، تاريخ الدولتين تونس 1289 ، ص 83 .
- ابن الاحمر ، روضة النسرين ، ترجمة جورج مارسى ، ص 53
- السيوطي ، بغية الوعاة ، ص 18 - 19 .
- السيوطي ، حسن المحاضرة ج 2 ، ص 104
- ابن عمار : نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب ، الجزائر
1902 / 1320 ص 110 - 111 .
- محمد ابن شنب :
- Etudes sur les personnages mentionnés dans l'Igaza du Cheikh
Abd al Kader al Fasi p. 212
- الحفناوي ، التعريف ، ص 163
- الناصري ، الاستقصاء ، ج 1 ، 50 و ج 2 ، 62 - 63 بروكلمان
2 ، 239 والملحق ج 2 ، 62 - 63

Muhammad Hadj Sadoc, Ibn Marzuq Sams ad-Din dans E.I. (2^e), III, pp. 890 - 892.

— ابن ابراهيم ، الاعلام ج 4 ص 26 - 36

— الكتاني ، فهرس الفهارس 1 ، ج 3 ، 349 .

تنبيه : اثبتنا بعض المراجع التي استفنينا عنها نظرا لاحتوائها بالضبط على ما في غيرها . فلم نستعن بها مباشرة .

(1) اهم مصدر يرجع اليه لمعرفة حياة ابن مرزوق الشخصية ونوع تكوينه العلمي والثقافي هو نفسه قبل كل شيء اي آثاره المختلفة المطبوعة والمخطوطة (وان كانت جلها مخطوطة) في مقدمة هذه المراجع نجد (المسند الصحيح الحسن) و (عجلة المستوفز المستجاز) اي فهرسته التي تعتبر مفقودة ، وبالإضافة الى المصادر المختلفة التي اثبتناها في آخر هذا البحث راجع محمد ابن شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية ، ص 123 129 .

(2) انظر مثلا فهرس الخزانة الملكية بالرباط .

(3) ابن القاسي : جدوة الاقتباس ، 140

(4) ابن فرحون ، الديباج 35 - 309 ؛ ابن ابراهيم ، الاعلام 4 ص 26 .

(5) لم ينزل بدمشق خلافا لما اورده الحاج صدوق ، ابن مرزوق شمس الدين ، دائرة المعارف الاسلامية ص 2 ، 891 .

(6) ابن مرزوق ، عجلة المستوفز المستجاز ، مخطوط 7579 .

(7) راجع ترجمته في روضة النسرين لابن الاحمر ، ط . الملكية بالرباط 1962 ص . 25 - 26 .

(8) راجع احمد بابا ، نيل الابتهاج ص 263 (وهو ينقل عن ابن الخطيب في الاحاطة)

(9) للمزيد من المعلومات حول هذه الحالة راجع ابن مرزوق ، المسند مخطوط 111 ، صفحة 157 .

(10) ابن الخطيب ، الاحاطة ، 11 ر 223

(11) انظر ابن خلدون ، العبر ج 7 ر 312

(12) انظر ن . م . ج . 11 ر 462 - 464

(13) انظر هذه المراجع في نهاية هذا البحث

- (14) انظر في هذا الموضوع ابن شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية ص 112 - 123
- (15) انظر ابن مرزوق جنى الجنيتين في شرق الليلتين ، مخطوط الخزنة العامة بالرباط رقم ك 1228 ص 126
- (16) انظر خطبه الدينية التي سنتحدث عنها ضمن كتبه
- (17) راجع مثلا كتابه جنى الجنيتين ، ص 126 والمسند الصحيح الحسن
- (18) انظر في هذا الموضوع :
- (19) الذي نقوم بتحقيقه الآن بتعاون مع الاستاذ ابراهيم الكتاني
- (20) راجع المسند الصحيح الحسن ... ص 320 - 341
- (21) مخطوط الخزنة العامة بالرباط ك 111 ص 156
- (22) ذكره في نفس المصدر ص 156
- (23) انظر مخطوط الخزنة العامة بالرباط رقم ك 1222 ر ورقة 98 ب
- (24) مخطوط الخزنة العامة رقم د 3582 54 ورقة ، هذه وثيقة ثمينة اقتنتها الخزنة العامة منذ عهد قريب ، والغالب على الظن انها بخط السلطان المريني ابي عنان ، لقد تحدث عنها ابن مرزوق في مسنده ق 111 ص 156
- (25) مخطوط الخزنة العامة بالرباط رقم د 38 وتوجد منه نسخ اخرى بصوفية 1331 وبالقاهرة تحت رقم 292
- (26) بروكلمان ر 303
- (27) بروكلمان م. د 634
- (28) مخطوط الخزنة العامة بالرباط ك 1228
- (29) انظر التفاصيل في جنى الجنيتين المقدمة
- (30) تراه يردد في الباب الثالث بصفة خاصة عبارات « وان قالوا قلنا » لانه يجادل ويناقش وينظر كسائر النظار
- (31) مخطوط الخزنة الملكية بالرباط رقم 4070 نسخة رديئة .
- (32) انظر ابن مرزوق جنى الجنيتين ، ك 1228 ر 1011 .
- (33) انظر المسند ص 105
- (34) مخطوط بالخزنة العامة بالرباط رقم د 1349
- (35) المرجع نفسه ص 104

(36) تحمل رقم 7579

(37) بدلا من ثلاث كما اكده الحاج صدوق⁶ ابن مرزوق شمس الدين ، دائرة المعارف
الاسلامية ط 2 111 ر 891⁶ وهي : ست العرب بنت اسماعيل الفيتاني ، ورهواء
بنت عمر الحسن بن أم الدنيا بنت موفور البكري ، فاطمة بنت عبد الوليد الدينوري
خديجة بنت الامام برهان الدين المسقلاني⁶ أم محمد بنت زين الدين الدينوري⁶
أم محمود فاطمة .

أسطورة :

المزمّار

مصطفى القصري

يحكى انه عندما قضت المشيئة الربانية بتوقيف السيول التي تهاطلت على الارض في عصرها الاول ، والزوابع التي هبت فوقها ، أقلعت السماء وسكت الرعد وانقشع البرق ، وبلغت الارض ماءها ، ثم امر الله بعد انتهاء هذا الطوفان الذى دام مائة وخمسين ليلة او مثلها ان يتفجر من اعماق أحد البحار بركان هائل يفجر افواهه لتسيل منها سوائله ، ثم تهدأ نيرانه وتنطفئ أحجاره ، ليصبح بعد مراحل طويلة وليس بطويلة ، وتحولات خطيرة وليست كذلك ، جزيرة واسعة الأرجاء ، جعل فيها البارئ آدمها وحواءها ، بعد ان أرسى جبالها وفجر عيونها ، وأنبت فيها النجم والشجر وسخر الرياح لواقع ، موفرا بكل ذلك فى ربوعها أسباب العيش لعباده ممن اختارهم لغاية فى نفسه قدر أن لن يطلعهم عليها حتى تكتمل انسانيته المثلئ ويتبوؤوا مقعد الصدق عنده .

انجبت حواء هذه الجزيرة التي صفت سماؤها وطاب ثراها أبناء
بررة ارضعتهم من ثديها البان المحبة خالصة صافية ، حتى ان قابيلهم
لم يكن في اخلاقه ومن بواعث نفسه الطاهرة ما يدعو لقتل اخيه ، بل
كان يرى في مرآة هابيل هذه الجزيرة صورته منعكسة وحقيقة مضاعفة
على اديمها .

ولو تصورنا ان قابيل هذا أصبح في خصاصة ، لآثر اخاه على
نفسه ، وكيف يمكن ان يصبح في خصاصة بالنسبة لآخيه ولم يتسرب
الحسد الي قلبه ؟ وانما ضربنا هذا المثال لتقريب الامر الى الافهام
وتبسيطه الى الازهان .

خلق الله في ستة ايام حول الجزيرة التي انشاها في اليوم الاول
جزرا ستا كانت الجزيرة الام واسطة عقدها وبيتها العتيق ، ومقياس
عيشها الامثل فتناسل فيها الابناء وانتشروا في ربوعها مجتمعين في
قرى ومداشر اقاموها ، ومزارع ومستعمرات اخصبوها .

لم يكونوا يعرفون الاعتداء على النفس ولم يكن لهم ضحايا وقتلى اذ
لم يرثوا ذلك عن آباءهم واجدادهم الذين كان الله يتوفاهم في مواعيدهم
الموقوتة . وقد بعث سبحانه من قبل لقابيلهم طائرا أبيض في السماء ليريه
كيف يدفن جثة أخيه الذي لقي حتفه شيخا مسنا بعد ان قضى من
الحياة مآربه ، لا كيف يوارى سواته كما فعل صنوه المذكور في روايات
الكتب المقدسة .

لم يزرع الله في قلوبهم حب السيطرة والتملك ، وطهرهم من
الضغينة والبغضاء والبغى والطفيان ، لم يقتل احد منهم غصنا من
شجرة ليخطط به دائرة او مربعا على الارض ولم يصف حجرا حول بقعة
اختص بها ليقول : « هذا ملكي انا ، هذا مالي انا ، هذا في حوزتي انا ،
ومن تعدى هذه الحدود ضربته بعصاي هذه ، وشدخت رأسه بحجري
هذا ، وقطعت يديه وسملت عينه » .

لم يشعل فيهم أحد يوما نارا على علم وقال : « هذا علمي وحدي أنا وليس لسواي » .

لم ينظم احدهم حزبا ولم يكتسح به جزيرة ليقول : « هذه جزيرتي وحدي ، وهؤلاء حرسى وخدمى ، وهذا اسطولي ساستحوذ به على بقية الجزر » اذ لم تكن الفاظ هذه اللغة من لفثهم ، ولا هذه الكلمات ضمن قاموسهم ، ولا هذه المعاني والمفاهيم من معانيهم ومفاهيمهم ، بل كانوا مفطورين على المحبة والوثام وعلى البساطة والقناعة وعلى العمل المنظم المقسم والانتاج الجماعي والفيء المشترك . لا فضل لاحدهم على غيره ، وكيف له ان يفضله وقد تساوت بينهم الامكانيات والبنيات وانسجمت بذلك اسباب المعيشة والارزاق .

كانوا لا يسلبون الطبيعة المحيطة بهم ما تدره من خيرات ، وانما يأخذون منها ما تستطيع ان تعوضه مضاعفا لهم ولها .

وبفضل هذه الطريقة التى الهمتها اياهم حياتهم البسيطة تحقق فى مجتمعهم الانسجام وعاشوا عيشة راضية عرفوا معها الرخاء والسعادة ، واصبحوا بفضلها يرون الاشياء بمنظار الحقيقة والحق ، اي بمنظار الجمال الذى خلقه الله فى نفوسهم وفيها .

وكان تفريد الطير ، وحفيف الفصون ، وهبوب النسيم ، وسقوط المطر ، وصياح الاطفال وضحكات العذارى فى اسماعهم تسبيحا موسيقيا يسمو بارواحهم الى اجواء عليا يعرفون فيها النشوة وتسكروهم فيها القبطة .

ولو فرضنا مع هذا كله المستحيل فتصورنا ان احدهم هم بارتكاب ما من شأنه ان يفسد نظامهم العجيب فى بساطته لامسكوه وعالجوه كالمرضى او كمن أصابه مس من الجنون الى ان يشفى من مرضه او مسه ويعود اليه رشده او صخته ليحتل مكانه فى المجموعة من جديد .

تصور كيف يمكن لمجتمع هذه صورته وأخلاقه ان يتحدث ويعمل ويسير ، ويأكل وينام ويحب وينظر الى ما حوله من الاشياء ، فحديثه نغم ومشيه رقص ، وعمله واكله ونومه وسعيه تحقيق لبشريته ، وحبه سمو وطهارة وتتميم لانسانيته ، ونظره الى ما حوله من الاشياء والمخلوقات أترفها او اعظمها حجما حديث منه اليها وخطاب اليه منها . وهكذا يصبح للزمن مفهومه الذي ينبغي ان يكون له ، اي زمن مليء لا مكان للفراغ فيه ، ويصبح للقوة معناها الحقيقي باستعمالها في تمكين النفوس من الخير . والبشر في هذا المجتمع لا يعتبر الكرامة والحرية أخلاقا ومزايا يتخلق بها ويتحلى بجمالها ، وانما هي صفات لازمة من الصفات الضرورية المكونة لنفسه بمكانة الجوارح والاعضاء بالنسبة لبدنه . فكما لا يعقل ان البدن قد يعيش وتستمر فيه الحياة بدون الجوارح والاعضاء المكونة له ، ليرى صاحبه ويسمع ويشم ويتنفس ويسمى ويلبس ، لا يعقل ان يعيش هذا المجتمع ويستمر بدون حرية وبدون كرامة .

وقد اوحى تكوين مجتمعهم على هذا المنوال وتطوره هذا التطور الطبيعي السليم الى شعرائهم وفنانيهم وحكمائهم حيث كان لهم شعراء وفنانون وحكماء - ان هذا الكون على صورة مجتمعهم ومثاله أو أن مجتمعهم هذا على صورة ومثال الكون وان افراده يكونون جزءا منه لا يتجزأ يتممهم ويتمونه . فهذه الشمس تطلع عليهم كل صباح من مشرقها وتمسي آفلة في مغربها ، وهذه الكواكب تجري في مدارها الى مستقر لها ، والقمر يسير بانتظام مقدر في منازلها ، والارض الكريمة تنبت اكلها في مواسم مرسومة لها ، والسما تلمطر في فصولها ، والبحر يتأرجح بين مده وجزره في اوقاتها المعلومات .

كل شيء هنالك تناسق وجمال ، وكل يسير بحسبان ، والبشر في هذه الجزر آخذ مكانه المتواضع العظيم من بين كل هذه المخلوقات والاجرام في انسجام محكم معها ، وارتباط متين وتجانس تام .

تصور هؤلاء الحكماء والشعراء والفنانون ان مجتمعهم لو لم يكن يسير مع الكون المحيط به بنفس النسق وعلى نفس الوتيرة ، وبـ

النفس المتصاعد النازل لاختل نظامهم وفسد مما قد يعتوره من الاضطراب ويصيبه من الفوضى ، وباختلال نظامهم يختل نظام الكون بأسره ويصيبه ما أصاب مجتمعهم حتى يحول الكل لا محالة الى الاضمحلال والفناء .

وعلى قاعدة هذه الحكمة ارسوا السلم الموسيقي الذي بنوا عليه غناءهم وتركيب آلات الطرب التي انشاوها . وعلى هذا القيلس والمعيان احكموا زممارا من شجر القصب على الانغام السبعة وضعوه في كعبتهم المشيدة بقلب الجزيرة الام ليحج اليه كل اصحاب الزامير في الجزر السبعة ويسووا مزاميرهم على نغماته النموذجية حتى اذا نفخوا فيها فكانهم نفخوا من زممار واحد يرسل نغمات واحدة في نفس المقام وينفس الواحدة الزمنية .

وهكذا أصبحوا يعقدون كل عام مهرجانا قوميا حافلا ينتظم حول كعبتهم البيضاء ياتيه الناس من كل جهات الجزيرة الام وبناتها الستة ليشهدوا هذا الموسم البهيج ويشاركوا فيه ونفس الفرح يغمر أفئدتهم ، مرتدين لذلك أجمل لباس ، مصطحبين معهم زوجاتهم واولادهم في حلل سندسية ، مزينين جميعا بحلى من الفضة والذهب ، وعقود من اللؤلؤ والمرجان والصدف واكاليل وتيجان من الزهور الملونة العطرة التي اتحفهم بها طبيعتهم المتدفقة الخيرات .

يحمل النسوة في هذا المهرجان على رؤوسهن سلا من الفواكه مما تخيرن ليقدمن بعضها الى اجواق المطربين وجماعات المنشدين ، ويتحفن ببعضها الآخر اولادهم وازواجهن ونفوسهن ، اذ لم يكن هناك لا وسطاء لا مشعوذون ولا شفعاء تسلطوا على المعبد ليتوسطوا بين الناس والله وهو قريب ، مستحوذون بذلك على خيرات الناس وقرابينهم .

في هذا الجو الاخوي الباسم المطمئن تستهل الاجواق نفخها في الزامير وينشد المنشدون تسبيحة الحمد وتشيد الفبطة التي وضعها الله نجما منيرا على جباههم ، فيصمت الطير لحظة منصتا الى الزامير والاصوات مقتبسا منها تفريده وغناؤه ، وتحول الرياح الى نسيم

يلامس البشرات المستبشرة ، ويحدث في الاغصان حفيفا شبيها برفرفة
الاجنحة البيضاء ، حفيفا يلتحق بالانغام المرسله من الزامير ، المنتشرة
في الاجواء حتى لكأن الشجر الذى صنعت من قصبه تلك الزامير يصفي
الى خلده ليستمع منه الى مصدر النغمات قبل ميلادها ، وبهزه الطرب
فيهم بالتحليق ، وحتى لتكاد الجماهير الصاغية تبتسم ارواح بعضها
لبعض ، وتخف اجسامها الى ان تحسب ان ليس لها ابدانا ، او ان
ابدانها أصبحت هي الاخرى روحا ثانية توأما لروحها .

تلك وليمة الروح كانت عندهم وتربيتها كما للجسم وليمته وتربيته
يرجع الفضل فى تحقيقها الى انسجام النفوس المؤهلة للانسجام والى سهر
الساهرين الا يتخلى عن الجوق اى زممار ، وان يأتي كل نافخ بآلته
الى الزمار الذى سوى على هندسة نغمات الكون ليسوي آله على
مقياسه .

كان القوم أخشى ما يخشونه ان يتخلف احد الزاميرين على الموعد
المضروب للموسم الموسيقى أو لا يسوي زمماره على القياس المحكم من
قبل ، فترتبك النغمات ويختل الوزن ويسقط المقام وبذلك يختل نظام
المجتمع كله وبالتالي نظام الكون الى اقصى نهايته .

كان يقع ذلك بالتأكيد لو قتل قابيل الجزيرة هايلها ، ولكنه وقف
عند رأسه يتعمده الى أن مات مبتسما بين ذراعيه .

مصطفى القصري

الرباط

من آثار المؤرخ الأديب أبي الوليد ابن الأعمر

” نشير الجمان ” في شعر من نظمني وإياه الزمان

عبد القادر زمامة

« نشير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان » .

بهذه السجعة المشتملة على . النشير . والجمان . والنظم والزمان سمي
أبو الوليد كتابه هذا . كما سمي كتبه الأخرى بسجعات أخرى مماثلة .

« المنتخب من درر السلوك . في شعر الخلفاء الأربعة والملوك »

« فريد العصر . في شعر بني نصر »

« روضة النسر في دولة بني مرين » .

وقد أعجب أبو الوليد بهذه السجعة التي سمي بها كتابه هذا فأدخل
عليها تغييرا في جزأها بعد نحو ربع قرن . وسمى بذلك كتابه الآخر :

« نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان .

والمؤلفون قبل أبي الوليد وبعده . تفننوا في استعمال كلمة الجمان في أسماء كتبهم . فالمؤرخ المغربي ابن القطان سمي كتابه :

« نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » (1)

والشاعر المغربي أبو عبد الله غريط سمي كتابه :

« فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان » (2) .

وذلك كله داخل في ظاهرة التصنيع الأدبي التي شملت الرسائل والخطبة . والمقامة . والقصيدة . وكل شيء حتى أسماء الكتب واستعراض أسماء الكتب التي الفت في عصر أبي الوليد ولاسيما في المغرب والاندلس يقنعنا أن أبا الوليد كان يعيش في عصر التصنيع . ويستجيب لدواعيه في كل أعماله الأدبية . شكلا . ومضمونا ، ومن جعلتها تسميه الكتب .

أما الدوافع التي حملت أبا الوليد . ونعني بها الدوافع الخاصة التي جعلته يجمع مادة هذا الكتاب . وينسقتها في شكل مؤلف له موضوع . ومنهج وطريقة في العرض . فهي فيما يظهر دوافع شخصية لاثبات الذات . والحصول على تقدير المعاصرين . وإفادة الوسط الذي يعيش فيه . مع ما ضمنه أبو الوليد من انتاجه الأدبي . وانتاج بعض أفراد أسرته الكبرى . والصغرى . وربط اسمه . ونسبه ربطا متكررا . ممثلا بملوك بني الأحمر . في سلسلة طويلة لا تنتهي إلا بالجد الأعلى . مع المحافظة على الكنى والحلى واللقاب ... !

وليس في الكتاب ما يدل على أنه ألف لملك . أو حاجب أو وزير . أو أنه ألف لأغراض سياسية . مؤقتة . لا بالنسبة لدولة بني الأحمر . التي ينتمي إليها . ولا بالنسبة لدولة بني مرين التي يعيش في ظلها .

ولعل أبا الوليد قصد بتأليف هذا الكتاب على هذه الصورة شيئا زائدا على الدوافع الشخصية . وهو مناقضة ومخالفة عصرية لسان الدين ابن

الخطيب في موقفه من بعض المعاصرين . الذين تناولهم في الكتيبة الكامنة .
والاحاطة . وغيرهما من كتبه بشيء غير قليل من التحريج والشتم وافشاء
الاسرار . وهتك الاستار ..!

فأراد أبو الوليد ، وقد اطلع على كتب ابن الخطيب (3) ، وشاهد
مصرعه المؤلم بفاس ، ان يجعل كتابه هذا خاصا بأدب المعاصرين ، وان
يتجنب كل ما يتعلق بالمعائب والعورات ، وان يقتصر على ما لهم من المجاسن
والانتاج الشعري بالخصوص ، من أبيات ومقطعات وقصائد .

وصرح في مقدمة كتابه بذلك قائلا :

« وقصدي في هذا الكتاب عند ذكر الملوك ، والامراء والوزراء ، والكبراء
وغيرهم من سائر الشعراء ، ان أغضي عما أجده لهم من القبائح . واذكر ما
امتازوا به من الفضائل والمناجح لان مثلي لا يليق به اظهار العورات ..! ولا
يحمد له تتبع العثرات ...! » (4) .

ففي هذه السطور التي أجمل فيها منهاجه . نشتم منها سخطه على ما
يجده في بعض كتب ابن الخطيب من تتبع عثرات خصومه . وهتك حرمتهم ..!

فموضوع الكتاب محدد دقيق . وهو جمع اخبار معاصري أبي الوليد
الذين لهم شعر . وكلهم بطبيعة الحال من أصل القرن الثامن الهجري وفيهم
الملوك . والامراء . والوزراء . والكتاب . والفقهاء . والقضاة . وفيهم شيوخ
أبي الوليد الذين أخذ عنهم . أو أجازوه . كما ان فيهم من عرفه أبو الوليد
معرفة عين . أو معرفة سماع . مع ادراكه بسنه . سواء كان وقت تأليف
الكتاب حيا في الاحياء . أو ميتا في الموتى ..!

فالموضوع . شعر . وخبر . فكل شخصية من شخصيات الكتاب لها
عنوان خاص ولها اخبار . وصفات . وحلى . يأتي بعدها أبو الوليد بما يختاره
لها من أبيات . أو مقطعات . أو قصائد . حسب المادة التي يملكها .

ولاجل ان يتجنب أبو الوليد الفوضى والتخليط في ذكر شخصيات كتابه

اختار منهاجا دقيقا . في تصنيف هذه الشخصيات الى اصناف . حسب ما عرف لها من القاب . ووظائف . وصفات وجعل لكل صنف بابا خاصا من كتابه . . .

فلكل من ملوك بني مرين . وملوك بني الاحمر . وملوك بني حفص . باب خاص يذكر في كل باب . ما لهؤلاء الملوك من شعر . حتى اذا فرغ من الملوك انتقل الى ابنائهم الامراء ...!

وبطبيعة الحال فان ابا الوليد طبق المنهاج فيما يرجع لبني الاحمر وذكر نفسه . وشعره . كما ذكر اخاه . محمدا . في نفس الباب الذي عقده لقومه . لانه وهو يؤلف كتابا في الشعر لا ينفصل عن مشاعره الذاتية . ان لم يكن يغذيها وينميها بعمله هذا .

ومن المستغرب ان ابا الوليد عقد الباب السادس في نثر الجمان وجعل موضوعه هكذا :

— الباب السادس في شعر ملوك بني العزفي وابنائهم —

والمعروف عند المؤرخين ان العزفيين بسببة كانت لهم رئاسة متوارثة منذ استبدوا بهذه المدينة اواخر عهد الموحدين وكانوا يدعون بالرؤساء وبالامراء ...!

وهناك ابواب لوزراء بني الاحمر . وكتابهم . وقضاتهم اما بالنسبة لبني مرين فهناك — زيادة على باب الملوك — بابان اثنان احدهما عقده لشعر كتاب بني مرين . والثاني عقده . لشعر فقهاء المغرب وقضاته . . .

فالابواب الرئيسية في الكتاب لا تتعدى العشرة الا ان ابا الوليد كتب لكتابه مقدمة . ضمنها الحنين الى الوطن . وهيا فيها قارىء كتابه نفسيا وادبيا ليسمع . ويرى . ما سيمليه عليه هذا الامير المبعد عن وطنه . وهو يعيش في دار غربة ووحشة . مع ان له وطنا ودولة ينتمي الى ملوكها . فروي عن شيخه : محمد بن سعيد الرعيني ، وابي عبد الله الفشتالي حديثا نبويا

روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . وهو قول النبی صلى الله عليه وسلم :

« اللهم حبيب لنا المدينة كحبنا مكة أو أشد . وصححها وبارك لنا في صاعها . ومدّها . وانتقل حماها فاجعلها في الجحفة » (5) . فهو محدث له سند متصل بالكتب الصحاح ورواتها ..!

وهو أمير مبعّد يحنو على المبعدين . ويحن الى وطنه كل حين ...

ولاشك ان هذا من براعة الاستهلال . وجمال المدخل . حيث ان أبنا الوليد يعبر في هذه السطور الاولى من المقدمة بطريقة ايحائية عما يجيش في نفسه . وما يريد ان يشارك قراءه فيه ...!

وخصص الجزء الاخير من المقدمة لمدح كتابه . وبيان منهاجه . ! وموضوعه . والاعتذار عما يمكن ان يكون فيه من خطأ ...!

وهناك الى جانب هذه الابواب العشرة الرئيسية والمقدمة الممهدة بابان ليس من صميم الموضوع . الذي حدده لكتابه ونعني بهما الباب الاول . والباب الثاني عشر .

فالباب الاول في موضوع أدبي عام عقده أبو الوليد لبيان فضل الشعر . وإباحة انشاده بالمساجد ..! ولبيان ما يتعلق بالشعر من التصنيع البديعي ..! الذي كان في ذلك العصر من الثقافة الاساسية عند الشعراء . وعند الكتاب .

والباب الثاني عشر في موضوع أدبي تاريخي خاص . عقده أبو الوليد لذكر ما قيل من الشعر في السيف الذي بصومعة القرويين ..!

ومناقشة أبي الوليد وانتقاد عمله من الناحية المنهجية أمر متيسر لكون منهاجه يقتضي البحث عن شعر نظمه شعراء في موضوعات متعددة . اما عمله في الباب الثاني عشر فهو البحث عن شعر خاص في موضوع معين . تناوله عدد من الشعراء . واما عمله في الباب الاول فهو دفاع عن الشعر من

الناحية الدينية والذوقية والتاريخية واعطاء الشاعر المكانة اللائقة به في المجتمع ..! ثم الدخول في جو مدرسي تعليمي باستعراض ما يتوقف عليه الشاعر من اتقان اساليب التصنيع ..!

ولعل ابا الوليد لا يعدم مبررا لعمله . لا بالنسبة للباب الاول ولا بالنسبة للباب الثاني عشر . لاننا اذا جئناه للنقاش والانتقاد من باب المنهاج . جاءنا للتبرير من باب الذوق . والاعتبار الأدبي الذي لاحظته . ليبدأ الكتاب بباب في الدفاع عن الشعر . وتصنيعه . ويختمه بباب ذي موضوع طريف . تناوله شعراء معاصرون . ليكون مسك الختام ..!

والحقيقة أن ابا الوليد كان دقيقا في المحافظة على منهجيته التي رسمها لهذا الكتاب . الذي جمع مواده من شعر المعاصرين وأخبارهم فيما عدا الملاحظة التي تتعلق بالبداية والنهاية . وفيما عدا ذكره لنصوص نثرية مصنعة لبعض المترجمين ..!

ففي ترجمة الكاتب القاسم بن يوسف ابن رضوان . وهو أخو أبي القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان .. يذكر رسالة كتبها المترجم لأبي عنان والتزم في كل كلمة منها بالسين ... ! (6) .

وفي ترجمة الكاتب علي بن محمد الصباغ العقيلي يذكر له رسالة مماثلة (7) .

وفي ترجمة الكاتب أبي عبد الله ابن جزي يأتي له برسالة التزم في كلماتها حرف الزاي (8) .

أما طريقة العرض فهي دقيقة مع ذوق في الترتيب . وأسلوب في الاختصار . بالاختصار على ذكر الاسم . والكنية . والنسب . وموطن الاسرة . وما لها من مفاخر . وما للمؤلف من علاقة بالشخصية . التي يتحدث عنها . ويذكر شعرها .

على اننا لا نسني عمل أبي الوليد هذا ، وبالنسبة لجل الشخصيات

ترجمة . الا من قبيل التجاوز في التعبير . لان العناصر الاساسية في جل التراجم مفقودة . لا بالنسبة للذين كانوا احياء . ولا بالنسبة لمن كانوا امواتا..! ومع ذلك فان المعلومات التي جمعها ابو الوليد والملاح التي رسمها . والآثار التي سجلها . لها أهمية واعتبار ... زيادة على أنه احتفظ بالحديث عن شخصيات لا نكاد نعرف عنها شيئا كشخصية شيخه الذي اجازه في التاريخ والآداب ..! عبد الغفار بن موسى البوخلفي (9) .

واستطرادات المؤلف متنوعة فمنها :

- ذكر وقائع ومشاهدات تحدث عنها المؤلف .
- رسائل وصلته من معاصريه .
- ربط شخصيته بسلسلة ملوك غرناطة .
- الحديث عن أشياء تتعلق بأنساب الأسر والأشخاص .

وشخصية أبي الوليد بارزة في هذا الكتاب لانه يربط نفسه بمن يتحدث عنهم في حالات كثيرة . ويسجل ما قيل فيه من ثناء ومدح ولا يتحرج من ذلك . كما لا يتحرج من تكرار نسبه والافتخار باجداده وذكر هذه الجملة .. قال اسماعيل ...

ويستغرب دارس هذا الكتاب حين يرى ابا الوليد وقد تحدث عن أكثر من سبعين شخصية من معاصريه . من طبقات شتى . ولم يذكر مستندا . ولا مصدرا . سوى كتابه — فريد العصر — وكأنه انها يتحدث بها خزنته ذاكرته . او جمعته أوراقه ومذكراته . وهذا مصداق قول مترجميه انه كان مولعا بالتقييد (10) .

كما يستغرب دارس هذا الكتاب الذي كان مؤلفه مشغولا بتحريره حوالى سنة 776 هـ = 1374 م كما سيأتي ان يجد فيه ابا الوليد يتحدث عن الفقيه الصوفي محمد بن أحمد المكودي الذي توفي سنة 753 هـ = 1352 م.

ويأتي بقصيدة كان هذا الفقيه الصوفي قد أنشدها ياها ..! كما أنشده بعدها موشجاً في الغزل الصوفي .

ومعنى ذلك ان أبا الوليد احتفظ في ذاكرته أو في أوراقه بهذين النصين مدة تزيد على العشرين سنة . قبل ان يسجلهما في هذا الكتاب ويقول : أنشدني لنفسه (11) .

ويكرر أبو الوليد العبارات الدالة على مقاصد معينة . وهي مفيدة في البحث عن ترجمته الخاصة وصلاته بأهل عصره ... فيقول . أدركته ..! بمعنى انه أدركه حياً .. وعاصره مدة من الزمان قبل ان يودع المعنى بالامر هذه الحياة ..! ويقول : رأيته . بمعنى انه أدركه حياً وشاهده ..! ويقول : أجازني . وأنشدني .. وشيخنا .. وصاحبنا .. وصاحبه وبيني وبينه وداد كبير..!

وسجل أبو الوليد في نثر الجمان صلته الوثيقة بالسلطان أبي عنان تلك الصلة التي يظهر أنها دامت وثيقة طيلة المدة التي جلس فيها أبو عنان على عرش بني مرين ورافقه فيها في حملته على إفريقية . وجالسه وتحدث اليه وحضر مجالسه المتعددة . كما حضر مهرجانات الصراع بين الأسد والثور التي كان يقيمها أبو عنان في فاس ..!

وقد روى أبو الوليد نصوصاً شعرية قليلة في هزم المهرجانات ولاسيما القصيدة الطويلة التي أنشدها في الموضوع صديقه الكاتب أحمد بن يحيى ابن عبد المنان الانصاري . وقدمها أبو الوليد بقوله :

« وأنشدني أيضاً لنفسه يمدح أبا عنان . ويصف قتل الأسد بين يديه بقصره . والثور المقاتل للأسد والأكرة . والمخاتل .. وغير ذلك مما يلعب به مع الأسد » والأكرة والمخاتل والأسد والثور وصفها ابن عبد المنان وصفا دقيقاً نابضاً بالحركة « .. (12) .

ويردف أبو الوليد هذه القصيدة بقصيدة أخرى يصف فيها صديقه ابن

عبد المنان مشهد آخر من قتل الاسد بين يدي السلطان أبي عنان في مشهد عظيم حضره أبو الوليد فيمن حضره من حاشية السلطان .. (13) .

والنصان الطويلان اللذان احتفظ بهما أبو الوليد في نثير الجمان زيادة على قيمتهما الادبية . لهما قيمة اجتماعية وتاريخية بالنسبة للعصر المريني الذي كانت هذه اللعبة معروفة فيه .

فالنصان يدلان على أن الأسد كانت موجودة في غابات المغرب اذ ذاك ليتمكن الاثنيان بها الى ساحة الصراع . كما يدلان ان المرينيين كانوا مفرمين بهذه اللعبة ولاسيما في عهد أبي عنان ...

والمؤرخون المغاربة — فيما نعلم — لا يكادون يعرجون على هذه اللعبة وان كانت المدينة البيضاء ما زال معروفا بها باب السبع السذي يسمى الآن باب المكينة . ولعل هذه التسمية لها صلة بلعبة صراع الاسد مع الثور حيث كانت المهرجانات تقام قرب هذا الباب فلذلك سمى باب السبع فيما يظهر ..!

وقد أشار لسان الدين ابن الخطيب الى هذه اللعبة في حديثه عن فاس من كتابه معيار الاختيار ، حيث ذكر ان بها « ملاعب الليث المفترس » كما أشار الى ذلك مرة ثانية في بعض تراجم الاحاطة . (14) .

ولعل هذه اللعبة كانت معروفة قبل عهد أبي عنان . وقبل دولة بني مرين نفسها بدليل ما جاء عند ابن الأبار في الحلة السيرة (15) .

والنصوص الشعرية التي جمعها أبو الوليد في نثير الجمان زيادة على شعره وشعر أسرته . وشعر الملوك والامراء في اقطار بر العدو هي التي تنبني عليها القيمة الحقيقية لهذا الكتاب . وهي التي تعطي لأبي الوليد لقب الاديب الذي جمع فأحسن الجمع واختار فأحسن الاختيار .

واستغرق الحديث عن شعر ملوك عصر أبي الوليد الابواب الخمسة الاولى بعد الباب الاول الذي خصصه لحكم انشاد الشعر .

وابتداء من الباب السابع شرع أبو الوليد في تقديم طبقات من الشعراء حسب وظائفهم والقابهم التي اشتهروا بها من وزراء وكتاب وقضاة وعلماء في كل من الاندلس والمغرب .

وابتدا بوزير غرناطة أبي الحسن ابن الجياب استاذ ابن الخطيب الذي عمل في بلاط بني الاحمر مع ستة من الملوك . واختار له قصيدة في مدح أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد ابن الاحمر . ثالث ملوك غرناطة المعروف بالملخوع ابتداها بقوله :

زارت تجرر نخوة اذيا لها هيات تخط بالنفار دلالها
والشمس من حسد لها مصفرة اذ قصرت عن ان تكون مثالها
وافتك تمزج لينها بقساوة قد ادرجت طي العتاب نوالها

— * —

ومدح مخدومه بقوله :

جمع العلوم عناية . بفنونها آدابها . وحسابها . وجدالها
معقولها . منقولها . وأصولها وفروعها . تفصيلها . اجمالها

— * —

وختم القصيدة بقوله في بني الاحمر :

وهم الالى فتحوا لكل ملمة بابا أراح بفتحيه أشكالها
مقلدين من السيوف عضابها متأبطين من الرماح طوالها

— * —

وكان منتظرا أن يأتي ذكر لسان الدين ابن الخطيب بصفة كونه من وزراء بني الأحمر بعد ذكر استاذة أبي الحسن ابن الجياب إلا أن النسخة التي تحتفظ بها دار الكتب المصرية من كتاب نثير الجمان والتي ندرس الكتاب بواسطة مصورتها . لا تشتمل على ترجمة خاصة لابن الخطيب بل أن بها بياضا يدل على بتر في أصل الكتاب ...!

وفي الباب الثامن يذكر أبو الوليد شعر كتاب بني الأحمر الذين بلغه خبرهم . وأبتدا بكاتب أديب صوفي النزعة هو أحمد بن إبراهيم ابن صفوان. وروى له قصيدة فائية عارض بها قصيدة فائية للشاعر الصوفي المصري عمر ابن الفارض (16) .

وذكر بعده عبد الحق بن محمد بن عطية المحاربي الذي شارك لسان الدين ابن الخطيب في العمل ببلاط الغني بالله واختار له قصيدة في مدح الغني مطلعها (17) .

يا قاطع البيد يطوي السهل والجبال ومضنيا في الفيافي الخيل والابل
يجوب آفاق أرض لا يؤنسها الا تذكر عهد للحبيب خلا



ويلاحظ أن أبا الوليد اقتصر في الباب السابع المخصص للوزراء على وزير واحد هو أبو الحسن ابن الجياب .

واقصر في الباب الثامن المخصص للكتاب على كاتبين هما أحمد بن إبراهيم ابن صفوان . وعبد الحق ابن عطية المحاربي .

ولا شك فيما يرجع للكتاب ان هناك آخرين طوى ذكرهم لانهم لا شعر لهم . أو لان شعرهم لم يصله . أو لم يرتض منه شيئا .

وبدا أبو الوليد الباب التاسع من كتابه بالحديث عن شخصية مغربية كبرى عاشت في الاندلس مدة كبرى. تعمل في دولة بني الأحمر. وهي شخصية أبي القاسم الشريف السبتي . استاذ أعلام ذلك العصر . واستاذ الأدب واللغة في عصره . ولثقافته العالية وأدبه الجم . ومؤلفاته القيمة ذكره تلامذته وهم جماعة من أعلام العصر . فيهم ابن الخطيب . وابن خلدون وابن زمرك وأبو اسحاق الشاطبي . والقاضي النباهي . وآخرون .

ولولع أبي الوليد بالأنساب . ولا سيما أنساب أهل البيت . فقد أتى بذكر سلسلة نسبه منوها بعلمه . وأدبه . وشعره ونثره . ويلفت النظر أن أبا الوليد استعمل كلماته الغامضة هنا . كما استعملها عدة مرات مع آخرين. فقال : أدركته . ورأيتة ..!

أما أدركته — فأمرها واضح ..! وذلك أن الشريف السبتي توفي سنة 760 هـ — 1358 م (18) فأبو الوليد أدركه بسنه وعاش بعده .

وأما رأيتة . فإنها تثير سؤالاً وهو متى ؟ وأين ؟ لأن أبا القاسم الشريف السبتي عاش مدة طويلة بالاندلس وبها توفي ..! فأين رآه أبو الوليد ..؟

الذي يظهر وتأييده وقائع التاريخ والنصوص . هو أنه رآه بمدينة فاس. وذلك أما سنة 755 هـ — 1354 م . التي جاء فيها وفد اندلسي أرسله الملك محمد الغني بالله تحت رئاسة لسان الدين ابن الخطيب :

« ومن أعضائه أبو القاسم السبتي » إلى الملك المريني أبي عنان بقصد طلب المعونة . والاستنجاد على قتال الغزاة الصليبيين ..!

وقد انشد لسان الدين بين يدي أبي عنان عند أول لقاء قوله :

خليفة، الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يبتطيع دفعه البشر

ووجهك في النائبات بدر دجى لنا . وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض اندلس لولاك . ما وطنوا . ولا عمروا
ومن به قد وصلت حبلم ما جحدوا نعمة : ولا كفروا
وقد اهتمهم بقوسهم فوجهوني اليك . وانتظروا



ويقول ابن خلدون :

قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد لم
يسمع . سفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا ..! (19)
واما سنة 757 هـ حين وفد للشفاة في المقرى الجد ...

وبهذه الافادة التي جاءت في كلام ابن خلدون خرجنا من غموض أبي
الوليد ..! وعرفنا ان رؤية أبي القاسم كانت بمدينة فاس . وأبو الوليد اذ ذاك
في حاشية أبي عنان ..!

وروى ابن الأحمر لابي القاسم قصيدة يقول فيها .

دعيني من مقال العاذلين وخلي بين تهيامي وبين
ومن يك ساليا فلبى حب سلو القلب منه غير هين
علقبت بمقلتي للنوم حرب بأعزل وهو شاكي المقلتين
مليح الدل شاقبت كل قلب شمائله وراقت كل عين
وذكر بعد الشريف السبتي شريفا آخر وهو علي بن أحمد المعروف
بالأحيمر . وأتى بقصيدته في مدح أبي الوليد اسماعيل بن فرج خامس ملوك
غرناطة . جاء فيها .

الآن تطلب ودها ووصالها من بعد ما شغلت بهجرك بالها
ولقد استحالت فيك سيماء الصبا حالا يروع مثلها امثالها
وانيتها متلبسا بروائع نكر بفودك اصبحت عذالها
بيض تخيل للنفوس نصولها سمرًا تحول للنحور نصالها
مثل الافاعي الرقط تنفث في الحشا وارى بفودك حتما اصلالها
وختما بأبيات جاء فيها :

وقفت وذو أحسابها من هاشم من خير سبط العالمين حيالها
ترجو رضاك وطالما أرضيتهم آل النبي وكنتم أرضى لها
كم من يد بيضا لدينا منكم شكر الاله وأولياه فعالها



وذكر أبو الوليد هذه الشخصية في كتابه الآخر نثير فرائد الجمان ،
ويظهر مما كتبه هنا وهناك انه اعتمد على المعلومات التي سجلها لسان
الدين ابن الخطيب في كتابه : الكتيبة الكامنة (20) .

واستفاد منها ولاسيما في ايراد النصوص الشعرية التي نظمها الاحمير
المالقي .

وكتب ابن الخطيب كانت معروفة لدى ابي الوليد ...

ثم ذكر شخصية شهيرة بالعلم والادب وكثرة التلاميذ وهي شخصية
محمد ابن الحاج المعروف بأبي البركات البليقي . ولهذه الشخصية شهرة في
المصادر الأدبية والعلمية عند المقرئ وابن الخطيب وغيرهما .

ويقول أبو الوليد انه ادركه ورآه ..! ويبين لنا هذه المرة الاجمال
بتعيين زمن الرؤية ومكانها .

« . . . وبعثه رسولا لملك العدو . وهو امير المسلمين المستعين بالله
أبو سالم ابراهيم فلقيته بفاس . وأنا اذ ذاك بها في حضرة الملوك من بني
مريـن منذ اخرجنا عن الاندلس بنو عمنا الملوك من بني الاحمر . آل نصر
فطلبت منه أن ينشدني من شعره فأنشدني ما نذكره أن شاء الله تعالى ..! (21)

ورحلة أبي البركات الى فاس سجلها أبو العباس ابن القاضي في جذوة
الاقتباس . ومن أجل ذلك ترجم له في اعلام فاس (22) .

وانشد أبو الوليد ما سمعه من شعر أبي البركات البلفيقي :

يغنى الهوى وغرام عزة بساق والشوق يذهب ما عدا أشواقـي
حلف الهوى الا يفارق مهجتي طول الزمان الى بلوغ تراقـي
فالوجد ما طويت عليه جوائحي والدمع ما جادته آماقـي
أنا فارس العشاق ما منهم فتى يهتز بين يدي يوم سبـاق
واذا هم يعدون خلفي سرعـا لم يظفروا يوم الهوى بلحـاق
فأنا الذي عرف الرجال مقامه من بينهم في مصرع العشاق

— * —

وقد روى أبو الوليد هذه القصيدة القافية . كما روى مقطعات أخرى
عزلية ووصفية .

وأبو البركات أديب أصيل . وشاعر شهير . وقد ذكر المؤرخون له ديوانا شعريا سماه :

« المعذب والاجاج من كلام أبي البركات ابن الحاج » (23)

وهو من أشياخ ابن الخطيب الذين نوه بقدرهم وافتخر بالاخذ عنهم (24) .

ويستمر أبو الوليد في تقديم قضاة وفقهاء الاندلس على طريقته من اعطاء معلومات عن الشخصيات ثم ذكر ما وصله من شعرها ، وعند ذكر شيخه « فرج بن قاسم بن لب التغلبي » يقول انه ارسل اليه بالاجازة من الاندلس .

ثم يستغل ما حدثه به هذا الشيخ في اجازته من رواية قصيدة حجازية « لأبي الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبي » مطلعها :

وصلنا السرى وهجرنا الديارا وجئناك نطوي اليك القفارا
فيرويها عن شيخه . القاضي . أبي عبد الله الفشتالي . وأبي الحسن المومنانى ويشرحها شرحا لغويا (25) .

ويظهر أن أبا الوليد — وان كان لا يذكر مصادره — اعتمد على نقول كثيرة من كتب الأندلسيين وكتب أهل المغرب الذين عرفوا الاندلس وعلى ما سمعه من أفواه المعاصرين . وما قيده من معلومات وجدها في مصادر شتى .

وفي الباب العاشر يلتقي بنا مع كتاب بني مرين وما لهم من شعر أنشدوه في موضوعات مختلفة .

وكتاب المرينيين جماعات شتى من مغاربة . وأندلسيين . وغيرهم ففيهم . التونسي والتلمساني . والفاسي . والسبتي . والاندلسي . ولكن أبا الوليد حسب منهاجه اعتبرهم جميعا كتابا لبني مرين وبهذه الصفة المشتركة ذكرهم في هذا الباب . وان كانت لهم حيثيات علمية تفوق صفة الكتابة .

وابتداً بعبد المهيمن الحضرمي . السبتي وهو شخصية لها وزنها العلمي والأدبي في ذلك العصر . وقد كتب للعزفيين بسبته ولبنى الأحمر بغرناطة . ولبنى مرين وكان من رجال دولة أبي الحسن المريني . وصحبه في حملته على إفريقية . وهناك توفى . بعدما شرق علمه وغرب (26) .

وروى عنه الرواة شيئاً كثيراً من العلوم الدينية والأدبية . ويكون مع بعض أقربائه أسرة علمية شهيرة ...

ثم تحدث عن الكاتب الحاجب محمد بن أبي عمرو التميمي التلمساني . ويذكر أبو الوليد أن أبا عنان رثى كاتبه هذا لما بلغه وفاته بقصيدة رواها :

لها باجداث العلى والمناصب تحيى ثراها واكفأت السحائب
وعوجا بأكناف الضريح الذي حوى من الجود والافضل أسنى المراتب



والمرثية طويلة النفس . فاذا صح أن أبا عنان نظمها هو نفسه فإنها تدل على شاعرية رقيقة بين جنبيه ..! (27) .

ورثاه أيضاً كاتب أبي عنان أبو عبد الله ابن جزي وكذلك شاعره أحمد ابن يحيى ابن عبد المنان . وهذا يدل على قيمة هذا الرجل والخسارة التي شعر بها أبو عنان يوم فقده ...

ثم تحدث أبو الوليد عن أبي القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان المالقي الأصل . ولم يسجله أبو الوليد في نثير الجمان بما يدل على مشيخة أو أخذ عنه . لكنه في مستودع العلامة حلاه « بشيخنا » وذكر أنه استجازه فأجازه . وتبادل معه في هذا الموضوع مراسلة تضمنت نثراً متصنعاً تخللته أبيات من الشعر . أتى فيها كل من أبي القاسم . وأبي الوليد بما يكره كل منهما للآخر من تقدير واعجاب واطراء .

وحرص أبي الوليد على اجازة ابن رضوان شيء معقول . وفي محله فهو شخصية مرموقة ذات آفاق واسعة في الرواية والدراسة (28) . احتلت مكانتها في كتب الفهارس والاثبات بسبب كثرة روايتها وكثرة الرواة عنها .

ولأبي القاسم ابن رضوان أخ يسمى القاسم ويكنى بأبي الفضل . ذكره أبو الوليد لأنه كان كاتب دولة أبي عنان . ولم يرو له شعرا . وإنما روى له رسالة كتب بها لأبي عنان التزم في جميع كلماتها حرف السين ..!

وبعد ابن رضوان وأخيه يذكر أبو الوليد شخصية علمية هي شخصية كاتب الأشغال أبي الحسن الخزاعي . التلمساني الأصل . وكان الخزاعي هذا من رجال العلم والأدب (29) ، وقد ألف كتابا سماه : « تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية » وهو كتاب حافل عن منشأ الحضارة الإسلامية وبواكرها في الحجاز ، ويدل على مكانة مؤلفه وثقافته الواسعة في عصره (30) .

وقد اتصل به أبو الوليد وأنشده شعره في مدح أبي عنان وذكره في مستودع العلامة منوها بمكانته وفضله .

ويذكر ابن القاضي في الجذوة في ترجمة الخزاعي . انه لما كبا بموسي ابن أبي عنان المريني فرسه بالشماعين بعد صلاة الجمعة بالقرويين أنشد الخزاعي :

مولاي لا ذنب للشقراء ان عثرت ومن يلما لعمرى فهو ظالمها
وهالها ما اعترأها من مهابتكم من أجل ذلك لم تثبت قوائمها
ولم تزل عادة الفرسان قد ركبوا تكبو الجياد ولم تنب عزائمها
وفي النبي رسول الله اسوتنا أعلى النبيين مقدارا وخاتمها
كبا به فرس أبقي بسقطته في جنبه خدشة تبدو مراسمها

حتى لصلى صلاة جالسا ثبتت لنا بها سنة لاحيت معالمها
ملى عليه الاله دائما ابدا ازكى صلاة تحييها نواسمها



وقد انطقت هذه الكبوة عددا من الشعراء في ذلك العصر وشغلوا
بالنظم فيها .
فقد قال ابو عبد الله محمد بن عباد الصوفي الشهير صاحب الرسائل
وامام القرويين اذ ذاك وخطيبها :

ان الجواد ما كبا الا لما فيه نبا
ذاك قبول ما به امانا تقربا



وقد خمس هذين البيتين ابو الوليد ابن الاحمر . كما خمسهما كاتب
من كتاب بني مرين وهو محمد بن ابي الفضل التميمي (31) .

ويستمر ابو الوليد في ذكر كتاب بني مرين واقتطاف منتخبات من
شعرهم وذكر بعض ملامح شخصياتهم الادبية . ولا شك ان هذا يصور لنا
الحالة الادبية التي كانت تحيط ببلاط بني مرين والجو الادبي الذي كان
محييا على كتاب دولتهم .

ويودع ابو الوليد جو الرجال الرسميين المرتبطين بالوظائف السياسية
الى جو القضاة والفقهاء والعلماء المرتبطين بالوظائف الشرعية والخطط
العلمية . وفيهم عدد من شيوخه الذين حضر دروسهم او طلب اجازتهم . او
استفاد منهم . بالمذاكرة والحديث والرواية .

ومن اجل الحديث من هؤلاء عقد الباب الحادي عشر من الكتاب .

وفي هذا الباب نجد القضاة والفقهاء الذين عاصروهم أبو الوليد وكانوا إلى جانب مكانتهم الدينية والعلمية يملكون الذوق الأدبي ويسهمون في نظم الشعر . لأن نظم الشعر إذ ذاك كان من متمات الشخصية ومن عناصر شهرتها وجاهاها عند أصحاب المناصب والسلطة .

فنجد في هذا الباب القاضي محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي (32) والقاضي محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي (33) ، ويلفت النظر هنا، أن أبا الوليد ينقل عن المؤرخ ابن أبي زرع أن قشتالة فرع من صنهاجة . وصنهاجة من حمير (34) .

كما يلفت النظر أن أبا الوليد كان يحضر حلقة دروس القشتالي التي كان يلقيها في مدرسة العطارين بفاس (35) .

وكانت بين الفشتالي وأعلام عصره مخاطبات ومراسلات . ولاسيما مع لسان الدين ابن الخطيب الذي نوه به في الترجمة التي كتبها له في الإحاطة .

ويتابع أبو الوليد ذكر القضاة والعلماء وهم قسمان :

قسم من شيوخه الذين وقع الحديث عنهم في الفصل الخاص بشيوخه . وقسم من أصحابه الذين عرفهم وزوى بعض أخبارهم وأشعارهم ..

ويلفت النظر أن أبا الوليد ذكر في ترجمة أحد أصدقائه وهو سعيد بن إبراهيم السدرتي المعروف « بشهبون » . أنه كان مغرماً بنظم الزجل في فاس وله براعة في أزجاله شهد له بها جماعة من أعلام العصر ... (36) ولم يذكر زجله ، وإنما ذكر موشحاً مدحه به ..!

ويختتم أبو الوليد كتابه نثر الجمان بالباب الثاني عشر الذي تحدث فيه عن السيف الذي قيل أنه جعل في أعلى صومعة القرويين وأنه من سيوف الإمام إدريس مؤسس المدينة . وما نظمته الشعراء في هذا السيف .

وقد أخلص أبو الوليد الى مفهجه والى طريقة العرض والى أسلوبه المتصنع فلم يجد عنها الا قليلا . ولعله كان يعلم ان جل اهل الادب من الشعراء والكتاب . وجل اهل العلم من الفقهاء والقضاة كانوا في ذلك العصر يأخذون انفسهم ويأخذون غيرهم باعتبار التصنع والتصنيع قضية أسلوبية لا جدال فيها ..! زيادة على اهل السلطة والنفوذ الذين كانوا يزينون حاشيتهم بمن استجمع اداة التصنع في النظم والنثر ..!

اما تاريخ تأليف نثير الجمان فيظهر حسب استقراء الحوادث وتاريخ الشخصيات المذكورة فيه ان أبا الوليد كان يكتبه فيها بين سنة 776 هـ = 1374 م وسنة 777 هـ = 1375 م .

والدليل على ذلك ان أبا الوليد يذكر شيخه محمد بن أحمد بن هبذ الملك الفشتالي المتوفى سنة 777 هـ . ثم يقول : « حله . سلمه الله » (3) وسلمه الله . دعاء للاحياء لا للاموات ...!

ويذكر ابن خلدون . ويتحدث عن بعض اخباره ثم يقول :

« وهو الآن في الاندلس في حضرة ابن عمنا أمير المسلمين الغنسي بالله » (38) .

وابن خلدون كان فعلا في الاندلس سنة 776 = 1374 م كما صرح بذلك في رحلته (39) .

واخبار الشخصيات . وملابس الظروف التي قيلت فيها الاشعار لا تخرج عن هذا التاريخ بمعنى ان تاريخها ليس متأخرا عن سنة 777 هـ بل هو متقدم عليها ...!

وقد اخبرنا ان يكون الحديث عن أهمية الكتاب موزعا بالاشارة الى كل الابواب التي عرضت ووقع الحديث عن محتوياتها ..!

والمعروف الى حد الآن من نسخ نثير الجمان نسختان فريديتان :

الاولى : نسخة دار الكتب بالقاهرة التي تحمل رقم 1863 — ادب —
وهي نسخة بخط مغربي كتبت ظلنا في القرن التاسع الهجري . مبتورة بئرا
قليلا من البداية والنهاية . وبها تبر وسطها ضاعت بسببه ترجمة لسان الدين
ابن الخطيب .

وحجم النسخة 21 سم x 16 سم ومسطرتها 21 سطرا واوراقها 130
الا ان عيب هذه النسخة هو الحزم الذي اتى على بعض الاوراق من جهتها
السفلى فلما رمت حجت عدة سطور . وعدة كلمات . ولاسيما من الابواب
الاولى كما ان ترتيب الاوراق يحتاج الى دراسة وتصحيح من جديد .

وهناك تعليقات على هامش الاوراق الا ان كثيرا منها حجب بسبب
الترميم الذي وقع في النسخة .

الثانية : نسخة الخزانة الملكية بالرباط تحمل رقم 3791 .

وهي نسخة بخط مغربي متأخر كتبت ظلنا في القرن الثاني عشر او
اوائل الثالث عشر نظرا لما جاء في بعض الاوراق الملحقة بهذه النسخة
ومسطرتها 21 سطرا . وحجمها 21 سم x 16 .

وقد عملت الارضة عملها في بعض الاوراق ولا سيما الاولى منها فلم
تبق من بعضها الا كلمات قليلة .

والنسخة غير مرتبة الاوراق لذلك كانت الاستفادة منها تحتاج الى
ترتيب الاوراق ليتمكن معرفة ما فيها من زيادة او نقص .

وثناء قراعتي لهذه النسخة ومقابلتها مع مصورة نسخة دار الكتب
لاحظت مع الاسف اننا اذا اردنا اخذ نسخة مصححة على النسختين
الموجودتين الآن . فان ذلك لا يتم الا بالبحث عن نسخة ثالثة تكمل النقص
المشترك بينهما .

وسبق للممستشرق الاسباني خوسيه باسكت ان نشر الباب الثالث من هذا الكتاب وهو المتعلق بشعر ملوك بني الاحمر ، وسمى مؤلف الكتاب هكذا : اسماعيل بن يوسف ملك غرناطة .. ! (40)

عبد القادر زمامة

-
- (1) طبع قسم منه بتطوان بتحقيق الدكتور محمود مكي .
 - (2) طبع بفاس سنة 1347 هـ .
 - (3) نثير فرائد الجمان ص 244 .
 - (4) نثير الجمان . 2 / ظ
 - (5) الحديث في صحيح البخاري في كتاب الحج .
 - (6) نثير الجمان 68 / و .
 - (7) نثير الجمان 74 / ظ .
 - (8) نثير الجمان 88 / ظ .
 - (9) نثير الجمان 115 / ظ .
 - (10) سلوة الانفاس ج 3 ص 256 .
 - (11) نثير الجمان 119 / ظ .
 - (12) نثير الجمان 88 / ظ .
 - (13) نفس المصدر 92 / ظ .
 - (14) انظر ج 2 ص 6 ط . الاولى وانشد ابياتا في الموضوع ، انظرها في الطيب والجهم .
 - (15) انظر ج 2 ص 261 .
 - (16) ذكره ابن الخطيب في الاحاطة ج 1 ، ص 229 ، ط . الثانية ، وهو من اشيائه جمع له ديوانا سماه : الدرر الفاخرة . واللجج الزاخرة . وذكره في الكتيبة ، ص 216 .
 - (17) ذكره ابن الخطيب في الكتيبة ، ص : 269 .
 - (18) المرقبة العليا للنباهسي ، ص : 177 .
 - (19) المعبر ، ج 7 ، ص : 691 . وكتاب الرحلة ، ص : 61 .
 - (20) انظر ، ص : 62 . وانظر نثير فرائد الجمان ص : 235 .
 - (21) نثير الجمان 45 / و .
 - (22) الجلوة ص : 182 . ط حجرية .
 - (23) نفع الطيب ج 5 ، ص : 473 .
 - (24) الكتيبة الكامنة ص : 127
 - (25) نثير الجمان 54 / و .

- (26) انظر عنه فهرس الفهارس : ج 1 ، ص : 258 . وابن خلدون ج 7 ص 515 ونفع الطيب ج : 5 ص : 240 . وجنوة الاقتباس ص : 278 .
- (27) نثير الجمان 64 / و .
- (28) انظر ما كتبه عنه احسان عباس في كتاب الميد الذي احدثته الجامعة الامريكية ببيروت 1967 ص : 99 .
- (29) جنوة الاقتباس ص : 309 . ودرة الحجال ج 2 ص : 442 .
- (30) التراتيب الادارية ج 1 ، ص : 26 .
- (31) مستودع العلامة ص : 39 . وجنوة الاقتباس 309 .
- (32) درة الحجال ج 1 ص : 283 . ونفع الطيب ج ك ص 241 . والسلوة ج 3 ص 276 .
- (33) الاحاطة ج 2 ص 133 ط . الاولى . والجنوة ص 146 .
- (34) نثير الجمان 96 / و .
- (35) نفس المصدر .
- (36) نثير الجمان 122 / ط .
- (37) نثير الجمان 96 / و .
- (38) نثير الجمان 83 / و .
- (39) كتاب التعريف بابن خلدون 6 ص : 226 .
- (40) مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد السادس (1 و 2) ص 187

إتجاه في الاطلاع

عبد الكبير الفهري الفاسي

ان المتتبع لحركة النشر والتأليف في الوقت الحاضر يبقى مشدوها عند ما يلم بما يطالعه الناس فالقليل منهم يطالع الروايات الاجنبية ولكن الاكثرية من القراء تجنح الى نوعين من الكتب قد يكون شكلها في قالب روائي كذلك، وقد يتخذ شكل محاولات وكتب عادية. وهذان النوعان هما كتب التاريخ والتراجم وسير مشاهير الرجال والروايات التاريخية من جهة والكتب عن المخترعات والروايات التنبئية العلمية مما يعرف بالافرنسية Roman d'Anticipation من جهة اخرى .

فقراء الروايات على صنفين : قراء مشغوفون بهذا الفن لانهم يتذوقونه ويتذوقون تحليل العواطف والخواطر النفسية ولربما كانوا من اهل هذا الفن او يحسون انهم منهم او يحسون من انفسهم القدرة على كتابة مثل

ما يطالعونه او على الاول القدرة على انتقاده والحكم عليه بعد تقويمه وتقديره . والصنف الثاني يتطلب من ذلك مجرد التسلية لما هم فيه من تكاليف الحياة اليومية ومشاقها على النفس التي تكد وتجهد من جراء ثقل عبء الايام عليها خصوصا مع البطالة لدى من يقضي الحياة في غير عمل يدفع الى القيام بواجب او ضمير او هواية فهم يقرأون ويهدفون بقراءتهم الى الخروج من حياة الواقع ومن واقع الحياة ليلجوا عالما خياليا ينسيهم بعض ساعات ما هم فيه من شؤون وما في تلك الشؤون من شجون .

وهؤلاء القراء انفسهم ليسوا صنفا واحدا بل هم صنفان يمتاز الاول بالثقافة العالية فلا يقرأ مطلق الروايات بل يقرأ كتب قدماء الروائيين سواء من كتاب اهل لغته او من اللغات الاخرى التي يحنقها . كما يقرأ الروايات التي عرف اصحابها من بين اهل الادب الرفيع الذي لا يتذوقه كل احد ولا يتذوقه في كل امة الا طبقة خاصة من الناس . واما الصنف الثاني من قراء الروايات فهم قراء الروايات البوليسية والمغامرات اي تلك الكتب التي تخرجك من واقع الحياة الى حياة خيالية اشبه ما تكون بالواقع من الحياة غير ان فيها عناصر من المفريات تنسيك انك منغمس اثناء قراءتها في صميم حياة سوداء قذرة ، حياة الاجرام والتلبس والمكر والتختل والاذية والبؤس والشقاء . وكان قارئها يحس من نفسه انه سيكون يوما من الايام ضحية من نوع الضحايا التي يقرأ عنها او فردا من اولئك الاشرار الذين تدور الرواية على ما يأتونه او يعيشونه من مغامرات او على ما يصدر عنهم من انواع المكر ومظاهره . فهو حسب احساسه وشعوره ورقته او غلظ طبعه وجفائه وقربه من الشر والمكر او بعده عنهما يبتئس للضحية ويشفق عليها ويتألم او يصفق لاعمال البطل ويفلو في تكميمه نفسيا . وقلما وجدت قارئاً لهذا الصنف من الروايات وله ثقافة فكرية واسعة او قابلية للتفكير فطرية لان مطالعتها لا تدعو الى تفكير او امعان في نظر ، بل تاتيكم بالالغاز معقدة في اوائلها ثم تحلها لك تدريجيا او تجعلك على ابواب حلها من غير ادنى مشقة . فمطالعتها عبارة عن كسل فكري او سقوط في درجة الذكاء الفكري كثيرا ما يصحبه شنوذ في الذوق . ونرى من المنكر حشرها في زمرة الانتاج الادبي لاسيما في الوقت الذي اصبحت فيه صناعة من الصنائع يتعيش منها كثير من الكتاب الذين يكاد يكون الادب اقل صفاتهم كما يتعيش منها كثير من الناشرين الذين اصبحت ثرواتهم لا

تعد ولا تحصى بفضل استفلالهم لهذا الميل الفاسد فى كثير من القراء
الشعبيين او من قراء الطبقة الوسطى من الناس . وقد يدخل فى هذا الباب
عدد من الجرائد والمجلات التى انشئت للحديث كل اسبوع او كل شهر
لقرائها عن حوادث الاجرام والفنك والاتلاف والتسميم ونشر صور
المجرمين على اختلاف انواعهم وتباين انواع اجرامهم الذى هو ظاهرة من
مظاهر تدهور الاخلاق والانحلال ، لعدم وجود وازع لا من دين ولا من
ضمير فى المجتمع الانساني الراهن . ويدخل فى هذا الباب بعض الافلام
التلفزيونية التى اخرجت من كتب الاجرام غير ان الظاهرة الكبرى فى هذا
الاتجاه فى الاطلاع هي الاقبال على مطالعة كتب التاريخ والاشتغال بالتاريخ
وحتى بما قبل التاريخ . وهذا الاقبال كان بلا ريب موجودا مشاهدا فيما قبل
العهد الذى نميش فيه غير أنه تزايد وتضاعف وشاع امره حتى فى الاوساط
التى ليست من اهل الاختصاص به وذلك الى حد بعيد . وتعليل هذا
التزايد والتضاعف سهل يسير اذا كنا نعلم ان الشعوب عاشت حريين
طاحتين اعقبهما عهدان تدهورت فيهما القيم الانسانية وارتبكت فيهما
الاحوال الاجتماعية واضطربت فيهما الشؤون الاقتصادية بحيث اصبح
الرجل سواء فى الشرق او فى الغرب - يعيش فى حيرة وارتباك لان الاستقرار
وهو ميزة كل حياة حضارية ، اصبح مفقودا فى كثير من الميادين وفى
كثير من مرافق الحياة فالانسان ينشد ذلك الاستقرار المفقود الذى
يعتقد بان السعادة فيه بين طيات الماضي الغابر او القريب لان فى بعض
ما مر من عهوده عرف الناس الاستقرار . الا يسمى الافرنسيون مثلا
عهد ما قبل الحرب العالمية الاولى العهد الجميل ؟ La Belle Epoque
اليست هناك نظرية يونانية قديمة تزعم ان عهد الانسانية الذهبية
L'Age d'Or كان فى فجر تاريخها ، وان وعي الانسان الباطني لا زال
يرجع الى ذكريات ذلك العهد الذى كان الذهب فيه هو المعدن السائد (1)
ثم مسخ بعد رصاصا وحديدا كما مسخ الانسان الذى كان قريبا من
الملائكة بلد الآلهة فى نظرهم - يحيى حياة سامية مثالية مسخ الى ما هو
عليه الآن فى عهد الانسانية المعروف فى التاريخ ؟ .
ومن المعلوم ان الانسان الحديث الذى يدين بالولاء

(1) ولا يزال والحمد لله

للعلم يجعله يعتقد ان تسلسل التطور يقضي بأن العصر الذهبي للانسانية هو رهن المستقبل وان اعتقاده كان في الاحقاب الغابرة هو مجرد خيال ولد مع الميثولوجيات وان خير الانسانية انما هو امام .

فالاقبال الموجود الآن على كتب التاريخ لا يمكن ان يعطى بغير ذلك نعم يمكن ان يضاف الى ذلك التعليل رجوع الانسان الى نفسه ودرس حياته الماضية لاستلهاها في حل شتى المشاكل التى ينتخبط فيها فى غير ما مضى وما ذلك الا لكون الارتباك الذى يعيش فيه الانسان الذى يجعله فى حيرة من امره فيحاول الخروج من حياته بولوج حياة الماضي التى يعكسها التاريخ فى دواوينه . ولعل هذا الاقبال هو الذى حمل المؤرخين على تجديد النظر فى شؤون التاريخ وتجديد أساليبه وطرق بحثه لان رجل اليوم ليس هو رجل القرن التاسع عشر ولا رجل القرون التى قبله

وهنا موضوع خاص بذاته يستحق ان يفرد له بحث خاص به . وقد ظهر من هذه الكتب الشيء الكثير وظهر منها ما فاق فى تكهنته تكهنت الروائي الفرنسى جول فرن Jols Vernes الذى عرف فى القرن التاسع عشر بتلك التكهنت ، كما ان بعض ما فى تلك الكتب فاق تكهنت الكاتب الانجليزى والرز Welles الذى خلف زميله الفرنسى فى العقد الثانى من هذا القرن واربى عليه بكثير بما شئت من كتب وروايات تفضل لك الرحلات الى القمر او الزهراء وما شئت من كتب تدرس لك الاشعة القاتلة من بعيد او عن كتب الدوس هكسلى التى تحدثك عن حياة مجتمع اقل ما فيه من عجائب انك تشتري فيه الطفلة او الطفل فى شكل ماء غير دافق من الصيدلية فلا يكلفك شراء ذلك عناء الحمل ولا الم الطفل ولا مشاق التربية الاولى كما تشتري الطيور فى الاقفاص والاسماك الحمر فى اوانى الزجاج !! .

غير ان هناك من يزعم - وهم علماء الانطوكرافيا وبعض علماء الروح - ان الانسان فى تطور مضطرب وان ما ينتظره فى مستقبل الايام هو افضل بكثير مما عرفه الى حد الآن مستنديين فى ذلك على ما بلغه الفكر الانساني

من هذه النظريات والاكتشافات العلمية الخارقة التي توجهنا ما وصل اليه العلم الحديث من تحليل الذرة وما سينبني على هذا الفتح العلمي من خير للانسانية ؟ وهذا الامل الذي نرجو من العناية الربانية ان يتحقق ولولا الامل لصاقت فسحة الاجل - وان تكلاه برعايتها - هو الذي يدفع كثيرا من القراء الى التهافت والانكباب على مطالعة كثير من الكتب والروايات التي تدور حول ما ستكون عليه الانسانية في مستقبل الايام في مستقبل قريب او بعيد لربما كان عنفوانه حول منتهى هذا القرن أي في سنة 2000 فعلى ما يدل هذا الاتجاه في الاطلاع يا ترى ؟ فان دل ذلك على شيء فانما يدل على حيرة الانسان وارتبائه في حياته اليومية لانه فقد طمأنينة الايمان بنفسه والايمان بوجوده ، كما فقد الاستقرار في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فهو في ملتقى الطرق ، وفي مهب الرياح ، بين ماضٍ حافل بذكرىات خير وشر وحاضر مضطرب مظلم لا تدعو الحياة فيه الى الاطمئنان كما هو على ابواب مستقبل لا يعلم ما تخبئه له الاقدار فيه .

وقد يقول قاريء : ان الحيرة والارتباك في الحياة الانسانية ، ليسا ميزة لعصرنا هذا دون غيره وان جميع الاجيال التي تقدمت قد عرفت قليلا او كثيرا من ذلك وعاشت فيه . نحن لا نناقش ذلك وانما نقول بان عصرنا هذا قد عرف ذلك الى حد بعيد ربما لم تعرفه الانسانية في عهد من عهودها ، وارتبطت مصالح الشعوب وتشعبت نظرا لسهولة اتصال الشعوب ببعضها سهولة لم تعهد فيما قبل . على اننا نعتقد ان فترات الاستقرار في تاريخ الانسانية لا تدوم الا بقدر ما تدوم الزهور ، وليس الارتباك او الحيرة الا مظهر من مظاهر المراك والكفاح . والكفاح سنة الحياة الاولى والاخيرة ، الكفاح بين النور والظلام ، بين العلم والجهل ، بين الخير والشر ، بين العدل والظلم ، بين الاستعباد والحرية .

تعب يطول مع الرجاء بلذي الهوى
خير له من راحة مع ياس

الرباط : عبد الكبير الفهري الفاسي

ابن سيده المرسي

دراسة في حياته وآثاره

بقلم المستشرق الاسباني:
د. داريو كابرانيلاس رودريغس
ترجمة وتعليق: حسن الوراكلي

بدأ اهتمامي بابن سيده منذ كنت طالبا بقسم فقه اللغات السامية في كلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد ، ففي ذلك الوقت ركزت عنايتي على معجمه « المخصص » - وهو يومئذ الاثر الوحيد الذي طبع لابن سيده - وشرعت اسجل ملاحظات وتعليقات حول مناح في المعجم المذكور تسترعي الانتباه ، وفي الآن عينه مضيت استقصي كل ما كتب عن ابن سيده في معاجم الرجال ، بيد ان ذلك كله لم يكن يقصد انجاز دراسة بكنفية عاجلة من هذا اللغوي الاندلسي .

وبعد ذلك بسنوات ، التقيت ، خلال صيف سنة 1955 في المكتبة الوطنية بباريس ، بالشاب التونسي الاستاذ محمد الطالبي ، وكان

يشتغل ، يومها ، باعداد اطروحة من مخصص ابن سيده تحت اشراف
المستشرق الفرنسي الكبير ريجيس بلاشير ، وفي السنة التالية تفضل
فاوسل لي من تونس نسخة من دراسته التي نشرها بعنوان : « المخصص
لابن سيده : دراسة ودليل (Al Muḥaṣṣas d'Ibn Sidah : Etude - index) »
وهي مكتوبة بالعربية باستثناء مقدمة تقع في ثلاث صفحات ، كتبها
بالفرنسية ، وقد عني الاستاذ الطالب بالدرجة الاولى في دراسته
المذكورة بوضع فهرس تامة وفق الترتيب الالفبائي ، لكل الموضوعات
التي تضمنها « المخصص » وهذه بادرة لم يسبق اليها الاستاذ الطالب في
طبعة المعجم المذكور اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن والحق ان
وضع الفهارس هنا جاء ليسر عملية الولوج الى هذا المصدر المعجمي
البالغ الثراء ويتيح استعماله على نحو مجد ومفيد ليس فقط بالنسبة
لطلبة اللغة العربية ولعشاق هذا اللون من الدراسة ، ولكن ، ايضا
للمتخصصين انفسهم .

وقد قدم الاستاذ الطالب بين يدي هذه الفهارس بنظرات خاطفة
في تاريخ اللغة العربية وترجمة وجيزة لابن سيده ووصفا عاما للمخصص ،
ثم ابرز بشكل خاص المناهج التي اتبعها ابن سيده في املاء معجمه .

وكان الشروع في نشر معجم ابن سيده « المحكم » في القاهرة
سنة 1958 بتصدير الدكتور طه حسين وتحقيق الاستاذين مصطفى
السقا وحسين نصار اللذين كتبوا له مقدمة قيمة ، حافوا جديدا لي
على مواصلة الاحتكاك بهذا اللغوي الاندلسي الشهير .

وفي سنة 1960 اتاحت لي الفرصة للاطلاع على كتاب الاستاذ
A. Haywood هايبود A. عن المعاجم العربية : تاريخها ومكانتها في التأريخ
العالم للمعاجم .

Arabic Lexicography, its history and its place in the general history
of Lexicography

وقد وقف المؤلف ، حين رسمه للاطار العام للمعجم العربي عند ابن سيده ، مشيراً الى مميزات عمله الرئيسية اللذين تقدم ذكرهما ، وهما : « المخصص » و « المحكم » دون تفصيل القول في ذلك ، وإنما حال بين الاستاذ ا. هايوود وبين الخوض في الجوانب والتفاصيل حين عوض لابن سيده سعة الموضوع الذي يعالجه كما يتراءى من عنوان كتابه وحرصه على منطقية التناسب بين اجزاء الكتاب .

ثم كان حصولي على النسخة الكاملة من « المخصص » الى جانب فهارس الاستاذ الطالبى ، وهي أداة للأفادة من هذا المعجم ، مما حمسني على المضغ في دراسة ابن سيده بشيء غير قليل من الاصرار والمواظبة ، وهي فواصة كنت بدأتها منذ اعوام عديدة ، لكنني كنت ادعها مرات كثيرة لاهالج موضوعات اخرى لعلها دونها عسرا ، لكنها ليست اهم منها ، وقد نتج عن ذلك كله مقال نشرته في مجلة « المنتخب من الدراسات العربية والعبرية » التى تصدرها جامعة غرناطة بعنوان : « المخصص لابن سيده المرسي : اول معجم موضوعي (1) في الغرب الاسلامي »

Muhassas

de Ibn Sida, Primer Diccionario de ideas afines en Occidente Musulman

وقد تضمن هذا المقال نظرة عامة حول بنية المعجم المذكور والمنهاج المتبع فيه تليغه والقيمة الحقيقية لمضمونه سواء بالنظر الى افقه التاريخي او فعاليته الحالية ، وقد افدت كثيرا فى كتابة هذا المقال من فهارس الاستاذ الطالبى كما انتفعت فيه بمختلف الاشارات والملاحظات المبثوثة فى دراسته التى قدم بها لتلك الفهارس .

وفى منتصف شتمبر (1962) انعقد المؤتمر الاول للدراسات العربية والاسلامية فى مدينة قرطبة ، وكان من الابحاث التى استمع

اليها المؤتمرون بحث للاستاذ هايوود عن ابن سيده (458 / 1065) اعظم لغوي-الاندلس .

Ibn S da (d. 458/1.066), the greatest andalusian lexicographer.

لفت فيه الانظار من جديد الى شخصية ابن سيده وحلل بكيفية اوسع مما فعل في كتابه السالف الذكر ، خصائص « المحكم » و « المخصص » .

وفي نفس السنة انعقدت الجلسات الاولى للثقافة الاسبانية - الاسلامية في غرناطة (من ثامن اكتوبر الى السادس والعشرين منه) ، وقد اسهمت فيها ببحث عن « المخصص » ، تناولت فيه من نحو اهمية هذا المعجم في حقل المعاجم العربية ، ومن نحو آخر اسبقته للمعاجم الاوربية التي الفت في نفس الاتجاه .

واذا كنت ، اليوم ، قد عزمت على ان اخص هذا اللغوي المراسي الذائع الصيت بهذه الدراسة الموجزة فان ذلك يلبي عندي باعشرين جوهريين : اولهما يتمثل فيما اشعر به من رغبة في ترتيب وتأليف ما كنت مضيت ادونه من مادة بين حين وآخر عبر عشرين سنة عن ابن سيده وآثاره والافادة من اشارات وملاحظات طالعتنا بها دراسات نشرت مؤخرا ، لها صلة ، من قريب او بعيد بابن سيده ، ولا سيما ارجوزته التي لم يستفد منها الباحثون المحدثون (2) فيما كتبوه عنه برغم ما نشره منها الاستاذ حبيب زيات في مقال يعرف بها بمجلة المشرق سنة 1938 . وهذه الارجوزة باللغة الالهية ، فهي تعرفنا على شيوخ ابن سيده ، وعلى الكتب التي درسها خلال فترة الطلب والتحصيل ، كما انها تسلط الاضواء على مزاجه المعقد وموقفه من ادباء وفقهاء عصره ، والعلاقة التي كانت تربطه بأميري دانية مجاهد الموثق وابنه اقبال الدولة العامريين .

وثاني الباعثين هو الرغبة في الاسهام بهذه الدراسة في تكريم روح

ابن سيده بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاته (1066 - 1966) ،
يحدوني أمل من وراء ذلك كله في « اخراج » شخصية ابن سيده العلمية ،
الاصيلة من نطاق المتخصصين والتعريف بها بين طلبتنا في قسم فقه
اللغات السامية ، بل في آفاق ثقافية اوسع من ذلك وارجب .

واذا كان هذان الباعثان يؤلفان معا ما قصدت اليه من كتابة هذه
الدراسة فانهما يفسران ظاهرتين لافتتين للنظر في ثناياها ، اولاهما
شرحي ، مرات متعددة لمصطلحات واردة في صلب النص (3) ، وهو امر
لا ادعي له اطلاقا لو ان هذه الدراسة كانت تقدم خاصة للمبتدئين في هذا
اللون من الدراسات وليس لعامة المثقفين ، وثانيتهما تفصيلي الكلام ،
استجابة لرغبتي في ان تصبح شخصية ابن سيده معروفة ومأنوسة لطلبة
اللغة العربية من الاسبان ، حين التعرض للدرس وتحليل أهم آثار ابن
سيده ، ونعني بذلك : « المحكم » و « المخصص » هذان المعجمان بما
تميزا به من دقة التأليف وروعة الاعداد وثراء المضمون يحملاننا على
اعتبار ابن سيده اعظم « معجمي » عرفته الاندلس .

مصادر اصليّة

يبدو لي من المناسب ، قبل ان نشرع في دراسة حياة ابن سيده
وآثاره ، ان اقدم ، هنا وصفا للمصادر الاصلية التي اعتمدتها في هذا
البحث ، وذلك حتى يتسنى للقاريء تكوين فكرة واضحة عن هذه
المصادر التي نستقي منها ، وقد وزعتها على ثلاث مجموعات .

1 (المترجمون القدامى .

لا بد ان ننبه قبل كل شيء - ونحن نبدا بما يمكن تسميته
الانعكاسات الخارجية لحياة ابن سيده - الى انه برغم وفرة عدد الذين
ترجموا له منذ تاريخ وفاته فان التفاصيل التي نظفر بها فيما كتبوا عنه

جد ضئيلة ، على أن هذا ليس ينبغي عزوه فقط الى خلو حياة هذا اللغوي الضرير من مواقف خطيرة وظروف مؤثرة ، بل ايضا ، وبنسبة كبيرة ، الى منهاج المترجمين العرب القدامى ، فقد كان الخلف منهم ينقل عن السلف ، مشيرا الى المصادر التى ينقل عنها احيانا ، ومغفلا ذكرها احيانا اخرى ، وتميزت عملية النقل عندهم فى اغلب الاحيان بالنسخ والحرفية او مع تغيير طفيف فى النص المنقول ، ومن ثم لم يوسعوا باضافات جديدة رقعة الصور التى انتهت اليهم من اسلافهم الا فى مرات معدودة تشكل فيما بينها الاستثناء الذى يؤكد القاعدة .

من اجل ذلك ، وايضا لكي نحدد عدد الاقتباسات والاستشهادات الوافرة ، اعتمدت فى كتابة هذا البحث احد عشرة مصدرا ، خمسة منها لمؤلفين اندلسيين وستة لمؤلفين مشارقة ، ومن الممكن تصنيف مؤلفي المصادر المشار اليها تاريخيا ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي الى اوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وفى الملاحق التى ذيلنا بها هذه الدراسة سنورد ما كتبه اصحاب تلك المصادر عن حياة ابن سيده وآثاره وسنشفع ذلك ببعض التعليقات . ويلوح ان هؤلاء المؤلفين الاحد عشر هم اصدق مترجمي ابن سيده سندنا واصحهم خبرا ، وهم : الحميدي وصاعد الطليطلي وقد عاصرا ابن سيده وتوفيا ايضا ، مثله ، فى النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ثم ابن خاقان وابن بشكوال وابن خير ، وكانت وفاتهم فى القرن الثاني عشر ، يلي هؤلاء الضبي المتوفى فى اوائل القرن الثالث عشر ، وفى عقبه يأتى ياقوت والقفطي وابن خلكان ، وقد توفوا فى فترات متأخرة من القرن الثالث عشر يعقب هؤلاء الصفدي المتوفى فى النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وتختتم هذه القائمة بالسيوطي المتوفى فى مطلع القرن السادس عشر .

ويمكننا ان نقسم هؤلاء المؤلفين الى طائفتين مختلفتين الى حد ما بالنظر الى الحيز الذى شغلته ترجمة ابن سيده فى كتبهم تضم الطائفة الاولى ياقوت والقفطي وابن خلكان والصفدي ، وترجمة ابن سيده عندهم

اطول واوفى مما عند غيرهم ، وتتألف الطائفة الثانية من المترجمين السبعة الآخرين ، ويلاحظ في كلامهم عن ابن سيده الإيجاز وشدة التشابه ، غير ان هذه الفروق الدقيقة بين الطائفتين لا ترجع الى فقر او ثراء المادة الخبرية التى كان المؤلفون المذكورون يتوفرون عليها فى ترجمتهم لابن سيده وعرضهم لآثاره ، بل هي راجعة ، على الاصح ، الى الميزة العامة التى طبعت كتبهم وما كان الواحد منهم يتوخاه فى كتابه ويهدف الى ادراجه من مواد فى تضاعيفه .

وهكذا فى الوقت الذى يكتفى فيه الحميدي والضبي من بين جميع المؤلفين المذكورين بترجمة الخالصة لابن سيده والاشارة الى نتاجه دونما تعيين او تحديد او تسمية كتاب واحد من كتبه ، يطالعنا ابن خير فى فهرسته وقد صب اهتمامه فقط على احصاء مؤلفات الرجل دون العناية بحياته .

ويعد كل من الحميدي وصاعد الطليطلي لكونهما عاصرا ابن سيده حجة فى ترجمته وذكر كتبه على ما فى كلامهما من ايجاز ملحوظ ، وقد افاد منهما جل مترجميه من بعدهما ، ومنهم من كان ينص على اسميهما ، ومنهم من كان ينقل عنهما نقلا يكاد يكون حرفيا دون ان يورد لهما ذكرا .

وينبغي ان نلفت النظر ، نلتجنب الوقوع فى خاط ممكن ، الا ان بعض المترجمين الذين استقوا مادتهم من صاعد الطليطلي اوردوا اسمه على اكثر من صورة ، فابن بشكوال ، مثلا ، يسميه القاضي صاعد بن احمد ، وياقوت يسميه القاضي صاعد الجياني او القاضي الجياني فقط ، فى حين يسميه القفطي القاضي صاعد والصفدي القاضي صاعد الجياني ، وكذلك نلمس اختلافا فى بعض نقولهم عنه مما يحمل على الافتراض بوجود نسختين مختلفتين من كتاب صاعد الطليطلي ، تؤكد هذا بكامل الوضوح وتؤكد اشارة لياقوت - نقلا عنه الصفدي - فيما يتصل باسم والد ابن سيده الذى يختلف عند

صاعد من نسخة الى اخرى على نحو ما سنرى فى الفصل التالي ، هذا ولم يكن صاعد من مواليد جيان ، بل انه ولد فى المرية عام 420 هـ / 30 - 1029 م ، وولى قضاء طليطلة وبها كانت وفاته فى الرابع من شوال عام 462 هـ / 6 يونيه 1070 م (4) .

(ب) اخبار ذاتية :

منذ ما يزيد على ربع قرن عثر الاستاذ حبيب زيات فى دمشق على ارجوزة لابن سيده ضمن مجلد مخطوط يتألف من ثلاث وثلاثين ورقة فى جملة اجزاء وجزازات شتى ، وليس من شك فى ان العثور على هذه الارجوزة يعد اكتشافا هاما لمعرفة شخصية ابن سيده ، وهذا المجلد الذى تضمن الارجوزة المذكورة غفل من التاريخ ولا خاتمه فيه ، وقد اكتفى ناسخه بكتابة هذه العبارة الوجيزة فى أعلى الورقة الثانية من الجانب الايسر : « من كتب من كتب الهريري من حلب » وفى آخر المخطوط ثماني صفحات من اوائل كتاب « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » ، وسأثره ارجوزة غريبة جدا ، قدم لها بالايضاح التالي ، بخط الهريري المذكور : « هذه ارجوزة ابي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي البارع المعروف بابن سيده المغربي المرسى صاحب كتاب المحكم فى اللغة رحمه الله تعالى آمين » .

ويزعم الاستاذ حبيب زيات انه لم يشر الى هذه الارجوزة احد من الذين ترجموا لابن سيده واحصوا مصنفاته ، غير ان هذا الزعم يبطله ما ورد من وصف للارجوزة المذكورة فى فهرسة ابن خير الاشبيلي المتوفى سنة 593 هـ / 1197 م ، وهذا نصه : « جزء فيه ارجوزة الاستاذ ابي الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الاعمى المرتبة على حروف المعجم المبنية على قولهم ما اسمك بكذا ، حدثني به شيخنا ابو الحسن يونس بن محمد بن مفيث (5) رحمه الله عن القاضي ابي عمر احمد بن يحيى بن الحذاء التميمي (6) ، وناظمه - اي ابن سيده » (7) .

وفى نسخة الأرجوزة التى عثر عليها الاستاذ زيات فى دمشق ،
والتي يمكن الى الآن اعتبارها النسخة الوحيدة ، اوهام فى
النقل واختلال فى وزن ببعض الابيات « لتعريف فيها او سقوط بعض
الفاظها » ، وقد نشر الاستاذ زيات - كما اسلفنا الاشارة سنة 1938
اهم مقاطع هذه الأرجوزة مذيلة بتعاليقات موجزة عليها ، ومن خلال النشرة
سأفيد فى كل اشاراتي الى الأرجوزة المذكورة خلال هذا البحث (8) .

والموضوع الجوهري لهذه الأرجوزة لغوي ، وقد مهد له ابن سيده
نفسه فى مقدمة استغرقت عشرين بيتا (9) ، بعد البسملة ، وتخيل
الناظم فى هذا التمهيد ان ركبا من رجال المشرق (اكارم الانفس ، ند
المنطق) تركوا اوطانهم ، لعل (حب العي او نبوة من الزمن) كان هو ما
حملهم على ذلك مثلهم كمثل انبياء كثيرين هاجروا اوطانهم فى الازمنة
الماضية وضاعف الاله ، بعد ذلك ، سلطانهم فى تلك المواطن التى استقروا
فيها :

وكم نبي تارك اوطانه شد الاله ، بعد ذا ، سلطانه

ولكى تتاح الفرصة لافراد الركب للتعريف بانفسهم تصور الناظم انهم
سئلوا ، فردا فردا ، عن كل ما من شأنه ان يكشف عن حياتهم ، فتوالت
اجاباتهم واحد اثر الآخر ، انهم اذ كانوا فيما مضى فتيان مرصين لعبوبين ،
يعيشون فى كبريات الحواضر الواقعة على ضفاف الانهار او المظلة على
مياه البحر الزرقاء ، فان كلا منهم ، اليوم شيخ قبيلة ورب اسرة وفارس
يجيد تسديد السهام ، وشاعر ورجل البذل والعطاء ، يذكر اسم الاب
والخال ومسقط الرأس ويذكر المطية والقسي والوحش والطير الذى كان
يقتنص وما كان يأكله منها ويهديه ، وما كان يقدمه الى حبيبته من هدايا
ايام الشباب ، ثم هو يذكر اسم حبيبته وما كان ينشدها من شعر عند
الاهداء وما كانت تنشده هي فى الجواب . كل ذلك بالفاظ مبدوءة بنفس
الحرف الذى تداوله من حروف المعجم كل رجل منهم فى دوره (10)

ولاعطاء صورة عن المنهج الذى سار عليه ابن سيده فى هذه الارجوزة
اورد الاستاذ حبيب زيات اولها وآخرها : اي فصل الهمزة وفصل الياء ،
وسنكتفى نحن بتقديم الابيات الثلاثة فى كلا الفصلين نتبين منها اسلوب
ابن سيده فى هذا الرجز ، فلنقرأ ، اولاً ، الابيات الثلاثة الاولى من فصل
الهمزة :

ان تسألوا باسمي فاني احمد فى كل لاواء الزمان احمد
ووالدي اربد الهمام فى كل انواع العلى امام
ونسبي في بيئة الحمام اهل التقى والبأس والايدى (11)

وهامى ذي الابيات الثلاثة التى يستهل بها فصل الياء وهي شبيهة
بالايات السابقة سواء من حيث المضمون او الشكل :

واسمي ان تسأل بذلك يشكر ووالدي ملك الملوك يعصر
ونسبي في بيئة الحمام اهل الندى والبأس والحامد
ولي خال في بني يربوع في فدك حل وفي ينيوع

ويستنتج مما نشره الاستاذ زيات من الارجوزة ان ابن سيده قصر
غرضه فيها على عرض لغة البدو فى الصحراء ، فجاءت شاهدا على
حافظته القوية ومعرفته بوحشي العربية ونادرها .

وبلدي من ارفع البلدان امد داري ، ولرى اسوان
اما لدى اركبه فالابل او اكن لعنو اهن السيل
ان الاتان للقلوص ثانيه لاسيما ان اصبحت يمانيه
وقد ابان الفضل تلك البيفا وكان صبرا واجدا لما ابتفى
اما قبسي فهي من الاء وربما تخذتها من آء

واسهمي ممن حائط الاراك ليس لمن تفشاه من حراك
 وربما استجدتها من اثاب تعجل من ارمي عن التشاؤب
 وربما كانت من الامطي منبتها في العاتك الوطي
 اما الذي اقنص فالاوز او الانوق ، فهي نعم البز
 احى عن الالية والابهام منها ، ويفدو ابطها طعامي
 تمت اهدي بعد ذلك ابطا الى فتاة من طباء الارطي
 ذات دلال اسمها امامه تمشي الهوينا مشية الغمامه
 انشدها بأحسن النشيد ما يبعث الورق على التفريد
 اما لجنح الليل من صباح اما يزال ضافي الجناح
 فعند ذلك تنشد الحسناء ما اذني عن غيره صماء
 آل عدي ازمعوا الرواحا فودعت اجسامنا الارواحا

ومما يلفت النظر في الارجوزة ان ابن سيده كان يتوسع كثيرا في
 بعض الحروف ويطلق فيها العنان لبديته ، وهكذا مثلا ، نجد فصل الدال
 يتضمن واحدا وثمانين بيتا ، وفصل الزاي سبعا ومائة بيت ، وهو
 اطولها نفسا واكثرها استطرادا ، في حين يحتوي فصل اللام على اثنين
 ومائة بيت وفصل النون على ثلاث ومائة بيت ، غير انه تجدر الإشارة
 الى ان طول هذين الفصلين الآخرين يرجع اولا وقبل كل شيء الى
 استطرادات هامشية نات بالمؤلف عن استرساله في انماء موضوعه
 الرئيسي .

ومهما يكن من امر فاته مما لا شك فيه ان ابن سيده اذا كان
 استهدف من ارجوزته غرضا لغويا ، وقد جاءت معرضا لمعارفه المعجمية ،
 وهي معارف في غاية الثراء والتنوع ، فانها لتشكل بالنسبة لنا ، مصدرا

قيما فى الكشف عن سيرته نظرا لما حوته من اخبار ذاتية وافرة كما
اشرنا فى المدخل وكما سنلمس ذلك فى الفصول التالية.

ويظهر ان ارجوزة ابن سيده استهوت بعض من اطلع عليها ، فحاول
معارضتها ، وكان من بين الذين عارضوها فى اسلوبها وتركيبها العام
- كما يشير الاستاذ زيات - عبد الرحمن بن احمد الحميدي الذى عاش
فى مصر وتوفي بها فى سنة 1005 هـ / 1596 م . وفى المكتبة الوطنية
بباريس مخطوط يحتوي على منظومة على حروف الهجاء تتضمن معرفة
اسم الشخص واسم ابيه وامه وبلده وقبيلته وملبوسه وزاده وصيده
وعدته وشعره ومثله (12) .

وفى اطار الاخبار الذاتية نملك مصدرين آخرين على جانب من
الاهمية ولو انهما لا يرقيان الى اهمية الارجوزة التى سبق وصفها، وهما
مقدمتا ابن سيده لمعجميه ، المحكم والمخصص ، ففيهما الى جانب حديثه
عن دواعي التأليف والهدف منه والمصادر التى رجع اليها فى ذلك والمنهج
الذى سار عليه فى املاء المعجمين ، ما يلقي الضوء على مزاج ابن سيده
وعلى ما كان يضره له بعض الادباء المعاصرين له عن حسد وما يدبرونه
له من دسائس ، وفى المقدمة الى ذلك ما يكشف عن خصال اميري
دانية الذى عاش فى كنفهما (13) .

ج) المامات متممة :

بالاضافة الى مترجمي ابن سيده الذى تقدم ذكرهم فى اول
هذا الفصل ، والى الاخبار الذاتية التى فرغنا من عرضها ، بالاضافة
الى كل ذلك أفدت ، ايضا ، فى هذه الدراسة من عدد لا بأس به من
الماعات تسد ، احيانا ، ثغرات فى بعض ما اوردته المصادر السالفة الذكر
او تبرز الفروق الدقيقة فيما بينها .

وتطالعنا هذه الالماعات ، وهي بعامة فى غاية الایجاز ، وتتوزعها كتب متنوعة ، فى ترجمة ابن سيدة نفسه او فى ترجمة شخصيات اخرى كانت على ارتباط به كاساتذته او كاميرى دانية او بعض العلماء والادباء المعاصرين له ، وقد تطالعنا كذلك فى بعض الكتب التى كان لها تأثير مباشر وقوي فى تكوينه وفى انتاجه العلمى والادبى .

وبرغم ان المجال ، الآن لا يتسع لتمييز كل الماعة من هذه الالماعات ، الا اننا نستطيع التلميح هنا الى ان هذه الالماعات تفيدنا فى الحديث عن مصنفات ابن سيدة اكثر مما تفيدنا فى ترجمته ، وذلك على نحو ما نلاحظ ، مثلاً ، عند الشقندى وابى الفدا والمقرى وحاجى خليفة من بين آخرين .

(1) المعاجم الموضوعية هي التي يعنى فيها بجمع الفاظ كل موضوع على حدة ، وهي اقدم ما عرفه العرب من انواع المعاجم ، وقد تمثلت المحاولات الاولى فى شكل رسائل مفردة يحشد فى كل رسالة منها الفاظ موضوع معين ، وذلك مثل كتب الانسان ، وكتب الابل وهلم جرا ، ويعتبر الفريب المصنف ، لابي عبيد القاسم ابن سلام (- 224 هـ) اشهر ما ألف فى المشرق من هذا النوع من المعجمات ، أما فى الاندلس فتتمثل المحاولات الاولى فى رسالتين للقالى هما : ((الابل ونتاجها وجميع احوالها)) و ((حلى الانسان والخيال وشياتها)) ، وتوج هذا الاتجاه المعجمى فى الاندلس بمعملي ، هما : (ا) كتاب العالم لمحمد بن ابان بن سيد ، قيل بانه كان يقع فى نحو مائة مجلد مرتب على الاجناس بدأ بالفلك وختم بالذرة ، (ب) ((المخصص)) لابن سيدة .

- المترجم -

(2) ينبغي أن يستثنى منهم الاستاذ البير حبيب مطلق : انظر كتابه : « الحركة اللغوية فى الاندلس » المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ، ص 322 و ص 359 ، والاستاذ محمد رشاد الحمزاوي ، انظر بحثه القيم « تكملة فى ترجمة ابن سيدة » المنشور فى « جليات الجامعة التونسية » العدد 5 (1968) ص 17 وما بعدها ، هذا مع العلم بان كلا من كتاب الاستاذ مطلق وبحث الاستاذ الحمزاوي ظهر بعد صدور كتاب الدكتور كابانيلاس عن ابن سيدة .

- المترجم -

(3) من هذه المصطلحات ، على سبيل التمثيل (الارجوزة) و (البسطة) و (ايام العرب) ، وقد ضربت صفحا عن ترجمة شروح المؤلف لتلك المصطلحات ، لاعتقادي ان القارئ العربى لهذا اللون من الابحاث فى غنى عنها .

- المترجم -

(4) انظر

Pons Boigues, Ensayo bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles. Madrid (1898), Ensayo n° 106, pp. 139-140.

وانظر ايضا ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ص 419 والملحق ص 585 - 586 ، ويعرف بالجباني ايضا ابو علي الحسن بن محمد الفساني ، المتوفى سنة 698 هـ - 1104 م ، لكن هذه النسبة غير صحيحة ، فالذي عاش في جيان هو والده ، اما هو فقد ولد بمدينة الزهراء . انظر : Pons Boigues المصدر السابق ، رقم البحث 133 - ص 169 - 170 . بروكلمان ، الملحق ص 629 .

(5) ولد ابو الحسن هذا في قرطبة عام 447 هـ / 1055 م ، وتوفي بنفس المدينة عام 552 هـ / 1137 م ولمعرفة اعماله ، انظر : Pons Boigues المصدر السابق ، رقم البحث 161 ، ص 201 .

(6) كانت ولادته هو الآخر في قرطبة عام 380 هـ / 990 م ، وقد ولي قضاء طليطلة وامضى فترة في دانيه ، وهناك اتصل بابن سيده ، ثم عاد الى قرطبة ، وكانت وفاته باشبيلية عام 467 هـ / 1074 م ، للمزيد من المعلومات عنه ، انظر : Pons Boigues المصدر السابق ، رقم البحث 112 ، ص 151 .

(7) انظر ابن خير الاشبيلي ، الفهرسة ، طبعة كوديرا وريبيرا . ص 423 .

(8) انظر ، حبيب زيات : (ارجوزة غميس للامام ابن سيده صاحب المخصص في اللغة) مجلة المشرق ، العدد 36 - (1938) ، من ص 181 الى ص 191 ، اريد هنا ، ان ازجي الشكر خالصا لصديقي الحميم J. Finnegan على ان تفضل فبحث لي بميكرو فيلم لمقال الاستاذ زيات نظرا لعلم طبعه على حدة ونفاذ عدد مجلة المشرق المنشور فيه ، هذا ويشير بروكلمان لمقال الاستاذ زيات في الجزء الاول من كتابه ص : 376 حيث تحيل خطأ على عدد المشرق - 36 - ، كما يشير اليه في الملحق الجزء الثالث ، ص : 1216 .

(9) انظر : مجلة المشرق ، العدد 36 ، ص : 182 .

(10) حافظ ابن سيده في ارجوزته على الترتيب المألوف لحروف المعجم حتى حرف الزاي ومن بعده سار على السياق التالي : ط - ظ - ذ - ل - م - ن - ص - ض - ع - غ - ف - ق - س - ش - ه - و - ي

(11) راينا من تمام الفائدة للقارئ وحتى تتسنى له معرفة منهج ابن سيده بشكل اوضح في هذه الارجوزة ، ان نورد بقية ابیات فصل الهمزة وهي :

- المترجم -

(12) مجلة المشرق ، ع - 36 - ص : 180 ، يذكر الاستاذ زيات في الحاشية ان هذه المنظومة توجد ضمن مجموع مخطوط برقم 3417 (الورقة 10 - 12) بالمكتبة الوطنية بباريس . وانظر

G. Vajda, Index général des manuscrits arabes musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris (Paris, 1953) p. 450

على ان رقم المجموع المذكور هو 3238 . وانظر أيضا ، بروكلمان ، ص : 350 - 351 . والملحق ، ص : 383 - 384 .

(13) ساعد للحدث عن المقدمتين حين اتناول بالدرس المجهين المذكورين .

في ما وراء الرضياء

حسن الطريق

يا حامل الوحي سفرا كل أحرفه
يا حادي الركب لما حان مواعده
ولم يعد يعرف الحق المبين سوى
يا من غدا شعلا غراء ناصمة
تدنيك مني - وما قد غبت - عاطفة
الفاك فيها وشيشا لا يماثله
واستقي من رواق اليوم امنية
ما بين هشاشة الرويا وبين منى

نور اصائله الشقراء ابحار
في الليل ، وانطفأت في الافق اعمار
من عنده منك في الاعماق ابصار
اشراقها اثر وديان وانهار
واحرف كل ما في نبضها نار
طيب الجنان اذا ما حل اذار
كل الذي بي لها في القلب اثار
فيها غيوم دروب النفس انوار

الفاك نشرني حبا تزيد به
 اصفي الى هجسها وحدي وأنبش ما
 لم تكبر الروح الاك الغداة ، ولم
 يذيني دنف فرد اكابده
 ليست تبدده الاشجان في كبدي
 يا فرحة تتوالى عبر اخيلة
 كانها للرؤى وشي تطرزه
 تهمي مفاتها جذلى وتزرع فى الـ
 لا (اللات) دامت ولا (العزى)، وقد غمرت
 ولا (منات) ولا (الازلام) قد بقيت
 يزور منه الدجى ان شع مطلعـه
 يسابق العزم فى ايامض ملمحه
 يا فرحة لبست فيها مواكبنا
 سبحان من قد اسال السحر منك على
 وسربل الروح باللقيا ، وقد رجعت
 دنيا تسير ، وقد ارسى مكارمها
 دنيا الرسول الذي احيا النهى وبه
 من عطرها استروحت وحي الهيام، وما
 قلبي يسيل بها دوما كان به
 مهما تناثرت الاحلام وانشعبت
 استل من فيضه دمعا تلوح به

سبائب النفس سحرا فيه احتسار
 فى الغيب منها ، وان الغيب اسرار
 يمج بها غير ما يذكيه اكبار
 لا ينتهي ، فهو فى الاحشاء موار
 ان دمدم اليوم فى الاعماق اعصار
 ضياؤها ابدا كالغيث مدرار
 انامل او كان الكون قيثار
 صحراء دينا به الاصنام تنهار
 خيوطه الكون ، فهو الآن امصار
 بها لنا اسهم تعطى واعشار
 كانه هامة قد حفها غار
 ويحتويه بنا فى القلب اصرار
 انسانها حينما ضجت بنا الدار
 افق مفاته الاكبار اشعار
 كانها فى سكون الليل اوتار
 فينا ، وبلغها للناس مختار
 كل الورى قد غدت لله تختار
 جف الشذا ، فهو ازهار وازهار
 نبعا يفيض ، وفيه الفيض زخار
 شفاف قلبي ، فان النبع فوار
 صابتي ، وهي فى الاغوار اغوار

سبحان من قد أحال الفار معجزة تسمو على كل ما قد يحمل الفار
به استوى الوحي وانقضت أعاصره تبدد الجهل فينا ، وهو جبار
تزيحه عن مدى الوجدان دون ونى فتنتهي سبة قد شابهها عـار
يا فرحة طلعت بيضاء فاتنة لم يبق من بعدها سقم وأكـدار
صارت بنا آية تتلى ومعجزة وانها قدر ترعاه أقـدار
العرائش حسن الطريق

إِنصَافُ ابْنِ خُلْدُونِ مِنْ تَهْمَةِ التَّهْجَمِ عَلَى الْعَرَبِ

د . عثمان عثمان اسماعيل

كان الأصل في التهجم على العرب كما أوضحت في بحث سابق (1) قد حدث من طائفة الشعوبية في أول عهدهم بالاسلام لتشويه سمعة العرب ، ثم اتبعهم السنيون في صدر الاسلام كذلك فأخذوا يحطون من شأن عرب الجاهلية ظنا منهم أن ذلك يعلي من شأن الاسلام ، وهكذا اجتمع على العرب الأعداء والأصدقاء على السواء . ثم سلك المستشرقون المفرضون نفس السبيل اصرارا منهم على ترويج فكرة الفراغ العربي (2) وبنوا زعمهم على أساس قول مبتور لابن خلدون في مقدمته حيث يقول : « ان العرب أعرق في البداوة وأبعد عن الصنائع.. » (3) وقد تجاهل المستشرقون عن قصد بقية النص الذي يقول : « ان أسباب الحضارة والترف بالعواصم التي أنشأها العرب عبر الفتوحات الاسلامية دفعت أولئك العرب منذ العصور الاسلامية الاولى الى استخدام ملكاتهم الفكرية لاستنباط أصناف الصنائع ومركباتها » (4) ...

وإذا كان النص الأخير لابن خلدون يقر حضارة العرب بعد الاسلام ، فقد ذهبنا في بحث سابق (5) الى أبعد من هذا الحد وأثبتنا حضارة العرب قبل الاسلام . ولكننا ارتأينا ضرورة تخصيص بحث قائم بذاته حول اصطلاح (العرب) الذي ورد بنصوص ابن خلدون المختلفة لننظر اليه نظرة جديدة ربما غابت عن البعض ، وسوف ندعم رأينا الجديد بنصوص سابقة ومعاصرة ولاحقة لنص ابن خلدون نفسه نتبين منها حقيقة معنى اصطلاح (العرب) والدلالات التي ينصرف اليها في كل مناسبة من المناسبات .

ولا بأس أولا أن نلخص رأينا في محاولات الآخرين لتفسير لاصطلاح على أساس نسب ابن خلدون وأصله ، حيث يرى البارون دي سيلان الذي ترجم المقدمة أن ابن خلدون استخدم اصطلاح (العرب) بمعنى (البدو) وأنه لم يكن يقصد التهجيم على العرب (6) ، وأن العرب عند ابن خلدون هم البدو الرحل ، وقد أيد ذلك الاستاذ الرئيس محمد الفاسي (7) والاستاذ الدكتور أحمد فكري وغيرهم وقالوا بأن ابن خلدون كان عربيا يشير بلفظة (العرب) الى (الأعراب) . كما نشر الدكتور علي عبد الواحد وإفسي ، دراسة أكاديمية متقنة للكشف عن عبقرية ابن خلدون ومظاهر عظمتة فيما خلفه من آثار ، وخاصة مقدمته ، وقدم لها بدراسة خاصة لحياة ابن خلدون لتبيان العوامل التي أثرت في تكوينه العقلي والعملي (8) . وليس من قبيل الصدفة أن ينص الدكتور علي عبد الواحد على أن شهرة الرجل (بابن خلدون) ترتفع الى جده التاسع خالد بن عثمان الذي كان أول من دخل من هذه الأسيرة بلاد الأندلس مع الغزاة الفاتحين من العرب وقد اشتهر فيما بعد باسم خلدون وفقا للطريقة التي جرى عليها حينئذ أهل الأندلس والغرب إذ كانوا يضيفون الى الأعلام (واوا ونونا) للدلالة على تعظيمهم لأصحابها مثل (خلدون، وحمدون، وزيدون..) (9) وبعد اثبات نسب ابن خلدون العربي عاد الدكتور علي عبد الواحد فخصص بحثا للرد على (اتهام ابن خلدون بالتحامل على العرب في مقدمته (10) يخلص منه الى أن ابن خلدون لا يقصد من كلمة (العرب) في مثل هذه الفصول (الشعب العربي) ، وإنما يستخدم هذه الكلمة بمعنى (الأعراب أو سكان البادية) (11) . كما أشار الى تفسير المؤرخ التركي جودت الذي شرح لفظ العرب عند ابن خلدون (بقبائل عرب) فتفيد اضافة (قبائل) المفهوم (12) البدوي لا الحضري .

وقد ادعى البعض أن ابن خلدون كان بربريا ، ويمكننا أن نفترض في هذه الحالة أن تكون قد ترسبت في نفسه مشاعر الضيق ضد الأمويون لما عرفه من بعض الأحداث التي أحاطت بالبربر ابان فتح المغرب على عهدهم فاهجم العرب متأثرا بحقده الموروث في شخص بني أمية . اذ الواقع أنني أقرر هنا بأن ابن خلدون لم يعترف لبني أمية بأعمال عمرانية أو فنية عندما قال أن العرب لم يعرفوا المباني والمصانع الا بعد اتصالهم بالفرس أيام العباسيين (13) . غير أن هذا الاحتمال يضعف عندنا لعدة أسباب ، فنسبته الى البربر قائمة على غير أساس صحيح ولا تدخل أصلا في تفسير موقفه من العرب فقد جاء في أول النص نفسه (... والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه ، اذ العرب أغرق في البداوة وأبعد عن الصنائع ...) . وإذا كانت بعض الأخطاء التي ارتكبها ولاية أو ملوك الأمويين واستغلها الخوارج لاشغال ثورة البربر قد حدثت على نحو معين حرص المستشرقون على تضخيمه (14) فلسنا نفترض جهل ابن خلدون الفيلسوف المؤرخ بما حدث لعدة شعوب أخرى معاصرة حسب أسلوب ذلك العصر ، بالإضافة الى أن ابن خلدون قد عاش في فترة زمنية تفصلها عن تلك الأحداث المبكرة قرون عديدة وتطورات اجتماعية وفكرية هائلة أدت الى انصهار عناصر المجتمع العربي الاسلامي في كل منطقة من مناطق الشرق والغرب على السواء أدت الى مفهوم جديد للفرد العربي وهو كل من يحمل لواء الاسلام مسترشدا بسنة رسوله العربي مساهما في بناء ودعم حضارته العربية الاسلامية .

وقد ذهب البعض كذلك الى أن ابن خلدون كان يدين بالمذهب الشعبي المعادي للعرب وأنه كان كافرا بالعروبة (15) فيكون تفسير استخدامه للفظ (العرب) في المواقع التي يفهم منها هجوم على العرب تفسير يعني شعوب العرب على الحقيقة . ولعل هذا التفسير نفسه كان سببا في اتجاه وفهم المرحوم الدكتور طه حسين في رسالته عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) حيث يعرض مظاهر الضعف التي انتهى اليها أمر العرب على عصر ابن خلدون ويقول (فليس غريبا ان يزدرهم ابن خلدون ، ولا سيما انه عاش في ظل الأسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا أفريقية الشمالية في القرن الخامس الهجري (16) ...) . ومع اننا لسنا الآن بصدد مناقشة بحث الدكتور طه حسين غير أنه يلزم التذكير مؤقتا بأن العرب على

عصر ابن خلدون لم يكونوا على نحو من الضعف الذي أشار إليه طه حسين لا في المشرق ولا في المغرب، لقد كان ابن خلدون يعاصر في المغرب الإسلامي دولة المرينيين بالمغرب الأقصى التي مدت سلطاتها شرقا حتى افريقية ، وشمالا حيث امتدت سيطرتها على الأندلس بالممالك الإسلامية المتبقية بها لاسيما دولة بني نصر بغرناطة بل وعدة ممالك نصرانية أخرى أوقعت بها الهزيمة تلو الأخرى . فضلا عن ارساء قواعد الحضارة وتنويع مظاهرها ورقة فنونها وصياغة علومها وآدابها وعمرانها الأمر الذي أشاد به المؤرخون وتشهد به مآثر ت خلفوها بعدهم ذكرها ابن خلدون وشهد بها المستشرقون انفسهم . ومن ناحية أخرى فان الدكتور طه حسين نفسه يبرر ويؤيد وجود شعوبية خطيرة بالغرب الإسلامي في قوله أن ابن خلدون عاش في ظل الأسر البربرية المجاهرة بعداها للعرب بينما الثابت أن دولا بربرية كبرى سعت لربط نسبها بالاصول العربية فالمهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين عده البعض عربيا ونسبه البعض الآخر الى المولى ادريس الذي تفرق نسبه في مختلف انحاء المغرب ويرفع ابن خلكان نسبه الى الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طلب (17). فضلا عن أن التاريخ فيما عدا بعض حوادث الفتح الإسلامي المبكر لم يحدثنا عن عدا ما بين البربر والعرب على طول تاريخ الإسلام بالمغرب العربي ، لقد اكتمل نماذج وتجانس المجتمع واستوى تعريب البربر عادات ولغة ودينا منذ قرون مضت. وهكذا نستطيع القول بضحالة وسطحية تصريح طه حسين بمجاهرة الأسر البربرية بالعداء للعرب . كما ان تقرير تخريب العرب لافريقية الشمالية في القرن الخامس تصريح غير علمي لم يستوعب دراسة الجوانب الكافية لتقييم الواقعة اذ ينبغي أولا ادراك الموطن الأول لتلك القبائل ثم طبيعتها وأماكن انتقالها والغرض من دخولها المغرب (18) والدور الذي قام به بنو زيري وبنو حماد أنفسهم في استمالة تلك القبائل المرتزقة بالمال لاشراكها فيما دار بينهما من حروب . ذلك أن الانصاف يقتضي عدم تحميل تلك القبائل تبعة التخريب ، فقد اشترك في المسؤولية الخليفة الفاطمي بالقاهرة الذي أرسلها لغرض التخريب بالذات ، ثم مسؤولية أبناء العمومة من صنهاجة القائمين بافريقية والقسم الشرقي من المغرب الأوسط فقد كانوا يقتسمون تلك القبائل في صفوفهم أثناء حروبهم لبعضهم . كما لا ينبغي الجري وراء زعم المستشرقين القائلين بأن هجرة القبائل أحدثت صرما في العلائق بين المشرق الإسلامي والمغرب بينما تكمن

الحقيقة في أهم النتائج غير المباشرة لنزوح تلك القبائل من الشرق إلى الشمال الأفريقي واختلاط هؤلاء البدو الحقيقي بالطبقات المغربية الأصلية في البوادي والصحاري والجبـال فخلعوا عليهم عاداتهم وتقاليدهم بل ولغتهم العربية وأدبهم الشعبي بصورة أكدت الفتح الحقيقي المعنوي للعروبة والإسلام بالمغرب .

فإذا عدنا الآن إلى غالبية الآراء التي صرحت بأن ابن خلدون كان يقصد باصطلاح (العرب) الإشارة إلى (البدو أو الأعراب) وليس (مطلق الشعب العربي) وعلى رأس تلك الآراء ما أدلى به الدكتور علي عبد الواحد وأني في تحقيقه الممتن ، وجدناه يتمنى أخيراً لو أن ابن خلدون استعمل كلمة (البدو) للدلالة على قبائل البدو الرحل بدلاً من كلمة (العرب) التي استخدمها في كل الحالات فأحدثت (19) الالتباس .

وسوف ندلي الآن برأي قد يكون له شأن من الاعتبار على ضوء ما ينبغي معرفته من تاريخ الألفاظ والمصطلحات وتطورها بالنسبة لاختلاف الزمان والمكان . ذلك أن المؤرخ المحقق يدرك تماماً ما أصاب الشعوب والدول والمدن والأنهار بل والحقبة التاريخية نفسها من تطور في الأسماء ومدلولاتها عبر التاريخ فيحمل النهر الواحد (20) مثلاً أكثر من ستة أسماء عبر تاريخه الطويل يختلف كل منها عن الآخر في عصر من العصور . وبهذا لا يستطيع المؤرخون المعاصرون اليوم فهم طبوغرافية أي موقع من المواقع التاريخية والأثرية دون معرفة مدلولات الأسماء في كل عصر من العصور التي مرت بها . هذا الوضع نفسه ، المسلم به اليوم دون جدال ، كان يفرض على الباحثين في تراث ابن خلدون وآثاره الوصول إلى معرفة حقيقية لمدلول اصطلاح (العرب) على عصره وعند غيره من المؤرخين المعاصرين له وبالذات في منطقته الخاصة وهي منطقة المغرب العربي الإسلامي وهو ما نعني الآن بالقاء الأضواء عليه .

أولاً : ود البعض لو أن ابن خلدون استعمل كلمة (البدو) للدلالة على النوع الذي يقصده عند التهجيم عليه و البدو لتمييزه عن (العرب) الذين شاد بهم في أماكن أخرى وكان من الأنسب أن يودوا استعمال ابن خلدون

لاصطلاح (الأعراب) فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة التوبة على سبيل المثال في عدة آيات (21) تنصرف للدلالة على المعنى المقصود (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم) (22) وكذلك في سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ...) (23) ، كما تبين لنا مواطن الأعراب من بعض الآيات (وممن حولكم من الأعراب منافقون) (24) ، و (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) (25) ، وهكذا يتضح لنا معنى (الأعراب) على عصر الرسول الأعظم ووقت نزول آيات القرآن الكريم ، ولو أنه لا يختلف عن مفهوم (البدو) .

ثانيا : أشار الدكتور وافي الى المراجع والدراسات التي قالت بأن المعنى الذي يقصده (26) ابن خلدون من كلمة (العرب) في مجال التهم كان أحد المعاني القديمة للكلمة (26) . ونحن ندعم ذلك الرأي بذكر بعض المعاني التي نجدها في المنجد (عربت معدته بمعنى فسدت معدته ، وعرب الجرح بمعنى تورم وتقيح ، وعرب الطعام بمعنى أكله ، وأعرب الشيء أبانه) والواقع أن الابانة تكون بتعرية الشيء ، و (عريد الرجل ساءت خلقه وصار عريدا ، والأعرابي هو الجاهل من العرب) ، والأعراب هم سكان البادية خاصة والواحد أعرابي ((27) .

ثالثا : ونأتي الآن الى لب الموضوع وهو النظر في استعمال اصطلاح (العرب) عند مؤرخين ورحالة آخرين مفاربة (28) على الخصوص عاشوا ومروا بمنطقة الغرب الاسلامي من المغرب والاندلس الى المشرق عبر الشمال الأفريقي بحرا أو برا قبيل أو أثناء حياة عبد الرحمن بن خلدون .

1) ابن جبير الاندلسي : (614/539 هجرية)

من علماء الاندلس في الفقه والحديث (29) ، عاش في عصر سابق على عصر ابن خلدون اذ ذكره ووصفه لسان الدين بن الخطيب معاصر عبد الرحمن بن خلدون في كتابه (الاحاطة في أخبار غرناطة) ، وقد قام بثلاث رحلات أهمها رحلته التي استغرقت ثلاث سنوات ابتدأها من الاندلس بحرا

سنة ثمان وسبعين وخمس مائة حتى وصل الاسكندرية بعد أن وصف لنا أهوال البحر . ثم واصل رحلته من الاسكندرية برا وبالنيل ، سالكا طريق الحجاج المعروف على عصر صلاح الدين . وها هو يقول (ثم كان الوصول الى قوص ... وهذه المدينة جميلة ... ومحط للرحال ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين وفيها يفوزون بصحراء عذاب ... وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه ... أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه الى المبرز وهو موضع بقبلى البلد ... وأصبحنا مقيمين به بسبب تفقد بعض **الجمالين من العرب** (30) لبيوتهم وكانت على مقربة منهم .. وسرنا في الصحراء نبئت فيها حيث جن علينا الليل ، والقوافل العيذايية والتوصية صادرة واردة والمفازة معمورة أمنا ... فلما كان يوم الاثنين ... نزلنا على ماء بموضع يعرف بدنقاش ... ولا يسافر في هذه الصحراء الا على الابل لصبرها على الظما ... وفي هذا الماء وقعت بين بعض جمالي **العرب اليمينين** أصحاب طريق عذاب وضمائها ... وبين بعض الأغزاز ... (31) مهاوشة كادت تقضي الى الفتنة ... والقصد الى عذاب من قوص على طريقين : أحدهما يعرف بطريق العبدین وهذه هي التي سلكنها .. ورمنا في هذه الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ...) (32) .

ونحن نرى من هذا النص استعمال اصطلاح (العرب) على الجمالين الذين قادوا القافلة بركابها وأحمالها عبر المفازة التي لا ماء فيها ، دون التعرض لأذى (نبئت فيها حيث جن علينا الليل) و (المفازة معمورة أمنا) وجمالي العرب اليمينين أصحاب طريق عذاب يضمنونها الى أن يقول (ومن عجب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقاعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل اما لاعياء الابل الحاملة لها او غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مضمونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس(33)

وهكذا يطلق ابن جبیر في أواخر القرن السادس الهجري اصطلاح (العرب) على العرب آمني الجانب مأموني العاقبة الذين يعيشون في كنف نظام مستقر آمن الى أقصى الحدود ولو بقلب الصحراء حتى ولو كانوا من **الجمالين**

(2) محمد العبدري البلنسي :

وبعد ذلك بحوالي قرن وضعت الرحلة المفريية التي اسماها مؤلفها (ما سما اليه الناظر المطرق في خبر الرحلة الى بلاد المشرق) والمشهورة برحلة العبدري (34) الذي بدأها من حاحة بجنوب المغرب الأقصى عام 688 هجرية . وعلى طول الطريق البري الذي سلكه العبدري من فاس الى الاسكندرية يصف أهوال الصحراء ومخاطر قطاع الطريق والمعترضين والخوف والهلع من القتلة النهابين **ويطلق عليهم اسم (العرب)** فيقول (ان المسافرين عندما يخرج عن انظار مدينة فاس لا يزال الى الاسكندرية في خوض ظلماء وخطب عشواء لا يأمن على ماله ولا على نفسه ... يظلم ويغفى ويهتضم ، تتعاطاه الأيدي الغاشمة وتتهاداه الأكف الظالمة . لا منجد له ولا معين) (35) .

وينشد أبياتا يصرح فيها بمخاطر العرب وسلبهم ونهبهم وقطعهم للطريق نقتبس منها :

وخيم فيها كل فظ اذا رأى بنية شخص لم يكف عن الهدم
يرى أن حكم النبت والناس واحد فما ينثني فيهم عن الخضم والقضم
ويرتاح للحجاج حين يراهم كليث طوى منه الطوى راح للضم
وكم مارد مهما غدا انقض نحوه بشهاب من الفرسان أقصد من مهم
وكم صف صف في السلاسل منهم كما صف في الأرباق حاشية البهم
فأموالهم للنهب والأهل للسبا وأورواهم للنار والجسم للحطم
فيا أيها الساري المعد لأرضه ليهنك أمن في ذراه من الظلم
ويهنيك أن تحظى بقرب جنابه **فتأمن من عرب هناك ومن عجم** (35)
على أن العبدري لا يستثني من أهل المغرب وعلى طول طريق رحلته

سوى سكان القبلة فيقول : (كان سفرنا ... عام ثمانية وثمانين وستمئة ومبداه من حاحة صانها الله . وكان طريقنا على بلاد القبلة ... وهم اهل ذمام واحترام وحماية للجار وايواء للغريب على ضد ما عليه اكثر اهل المغرب.. وما زلنا فى كنف لطف الله تعالى وتحت ذيل عنايته لا يهيجنا أحد الا رده الله عنا خاسئا حتى انفصلنا عنها ... ولما انتهينا الى المفازة التي فى طريق تلمسان وجدنا طريقها منقطعا مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة الا على حال حذرواستعداد وتلك المفازة مع قربها من اضر بقاع الارض على المسافرين لان المجاورين لها من اوضع خلق الله واشدهم اذاية . لا يسلم منهم صالح ولا طالح . ولا يمكن أن يجوز عليهم الا مستعد يتفادون من شره . وطلائعهم ابدا على مرقب لا يخلو منها البتة (37) .

ويعود العبدري الى ذكر **العربان (وهم العرب لغة)** بمعنى العرب الذي قصده سابقا فيقول (ثم وصلنا الى باجة وهي مدينة جرعا الدهر اُجاجة . قد هتكتها الأيدي العادية (38) وفكت بها الخطوب المتmadية حتى صارت وهي حاضرة بادية فخشوعها لائح وضاعتها بادية وقد حدثت بها ان اهلها لا يفارقون السور **خوفا من العربان** . وانهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعد ليوم الضراب والطعان) ... (39) (والذي فى بلاد افريقية من عجائب البناء وآثار الاعناء أمر يضيق عنه الوصف ... وقد دلت آثار تلك البلدان على ضخامة مملكتها فى غابر الزمان على ضد ما هي عليه الآن ... لا يسلكها الا مخاطر ولا يعدم من **عربانها ايلام** خاطر (40) . وقد استوى لديهم الصالح والطالح واتفق فى مذاقهم لكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح اتخذوا اخذ الحاج خلقا ودينا واعتقدوا اهلاكه ملة ودينا ... على كل مرقب منهم عقاب يرقب الضيفان ليغزهم أمر عقاب . فما مر بتلك المسالك سالك . ولا يخطر على تلك المعابر عابر . ولا يرد فى تلك المناهل ناهل . الا انقضوا عليه انقضا الصقور على البغاث ...) .

وهكذا لم يصبح أمانا لبس فى استخدام العبدري لاصطلاح (**العرب** **والعربان**) بمعنى (**الاعراب**) المتوحشين قاطعي الطريق السفاكين . ومع هذا فسوف يؤكد العبدري نفسه **الاعراب** بهذا المعنى (وبعد مكابدة الأين... وصلنا الى القفر القواء أرض برقة فوجدنا بركة هي أم البراري والقفار ...

يستعذب عذابها المنفض من الحجاج ... سكنها من الاعراب كل فظ غليظ(41) بل الهم من ذلك انه يعود فيقول في هؤلاء الناس سكان برقة من الاعراب (وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم وعرب الحجاز أيضا نصحاء . ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم فلم يختلط كلامهم بغيره . وهم الى الان على عربيتهم . ولم يفسد من كلامهم الا القليل ...) (42) .

فالعبدي اذن وهو الضليع في النحو واللغة وابن حاجة المتضلعة في اللغة الى اليوم يذكر سكان برقة فيصفهم أولا لخصالهم السيئة بالاعراب (كما سبق أن وصف غيرهم من قاطعي الطريق باسم العرب) ثم يعود كما رأينا الى تسميتهم بالعرب . ولو كان الكاتب على عصر العبدي يتصور قصور القارئ عن فهم المقصود عند اطلاق (العرب أو الاعراب) لفصل كلامه وأبانه وهو القادر عليه . أنظر اليه عندما يعود فيقول (وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم) فهو يعرف أنه يتحدث عن الأعراب الخطرين المارقين ولكنه متأكد ان القارئ يفرق دون لبس بينهم وبين (عرب الحجاز النصحاء) فعرب الحجاز عرب وليسوا أعرابا .

3) لسان الدين ابن الخطيب : (43)

وننتقل الآن الى القرن الثامن لنرى استخدام الاصطلاح عند لسان الدين بن الخطيب (713 — 776 هـ) الذي عاصر بنفسه ابن خلدون وكان له معه شؤون ، وسوف نقدم الآن حججا من نصوص لسان الدين تعتبر أكبر دليل على صحة رأينا في استخدام اصطلاح (العرب) في كلا المعنيين دون حاجة من الكاتب الى التخصيص والتفريق بين (العرب والأعراب أو البدو) . وقد اخترنا هذه النصوص من القسم الثالث (44) بالذات من كتاب لسان الدين المعروف بأعمال الأعلام فهو القسم الذي يتناول فيه تاريخ المغرب العربي من بداية الفتح الاسلامي حتى صدر دولة الموحدين (45) .

يقول لسان الدين عند ذكر دولة المعز بن باديس (والمعز أبو تميم هذا هو أول من صرف دعوة العبيديين الى غيرهم من بني العباس ، وأزال أسماءهم في سنة احدى وأربعين (46) . فلما بلغ صاحب مصر وهو المستنصر ووزيره الجرجاني ، دبر في دخول العرب الى أفريقية ، ولم يكن منهم قبل

بها أحد ، وقال : والله لأرمينه بجيوش لا اتحمل فيها مشقة . فدعا العرب وأباح لها مجاز النيل الى المغرب ، وكان ممنوعا عنها قبل ذلك ...) (47)

اذن فقد ادخل الخليفة المستنصر الفاطمي القائم بدعوة العبيديين بالقاهرة العرب الى افريقية حوالي عام 441 هجرية ولم يكن منهم أحد بأفريقية قبل ذلك . فاذا استقام معنى العرب هنا على شعوب العرب المتحضرة وحدها فمن اذن فتح المغرب ؟ ومن أين أتى الأغلبة والأدارسة والعبيديون والأمويون الغربيون ؟ ومتى بدأ اذن تعريب المغرب واسلامه ؟ ثم تصريح ابن الخطيب ودعا المستنصر (العرب وأباح لها مجاز النيل الى المغرب وكان ممنوعا عنها قبل ذلك) لماذا كان ممنوعا عنها من قبل ؟ هذا السؤال يجيب عنه لسان الدين في نفس النص (فعبر منهم خلق عظيم شقى بهم المعز (48) ومن بعده الى اليوم ! فسيبوا البلاد وأيتموا الأولاد ، وانتهبوا الطارق والتلاد ، وحسبك بدخول مدينة القيروان شهرة ، ووقية شنيعة . والى اليوم فالخطب بهم لا يرفع . والوطن الخصيب الرحيب قفر بهم ...) (49) كذلك يأتي تأكيد استعمال لسان الدين للفظة (العرب) مقرونة بالتخريب والتدمير في قوله (ولما توفى المعز بن باديس بالمهدية بعد أن كانت عليه هزيمة العرب من زغبة اللاحقين من المشرق واستباحة مدينة القيروان عنوة ، بما هو مشهور الشناعة على الأيام ، معدود من مصائب الاسلام ...) (50) .

وهكذا أطلق لسان الدين بن الخطيب المعاصر لعبد الرحمن بن خلدون في القرن الثامن الهجري اصطلاح (العرب) على قبائل البدو الرحل (وجعل لمن جاز منهم فروة ودينارا ..) (51) فهي ليست اذن جيوشا نظامية تصدرها الألوية والأعلام وتتبعها المؤن والعنادر وتتدرج فوقها القيادات وتسبقها العيون والمراسلات ، انما هي قبائل البدو المتوحشة الهمجية التي حصرت سابقا عن مجاز النيل وعن الجواز الى افريقية . فاذا كان المؤلف على عصر ابن خلدون يشعر بلبس في استخدام كلمة (العرب) واتجاه معناها الى غير الدلالة التي يقصدها من صفات (البدو أو الاعراب) وصفات (العرب) لتعمد التخصيص .

(4) ابن بطوطة (52) : (704 — 779 هـ)

وهذا هو معاصر آخر لابن خلدون مغربي الأصل كذلك يقول في رحلته (ولما وصلنا الى بجاية . . . فأشـار علي أبو عبد الله الزبيدي بالاقامة فيها ... فأبيت ... فقال لي أما ان عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق ... الى ان وصلنا مدينة بونة ... ثم تركنا بها ما كان في صحبتنا من التجار لأجل التخوف في الطريق وتجردنا السير ... الى أن وصلنا مدينة تونس ...) (53) . ففي هذا النص يتكرر استعداد المسافرين بترك أمتعتهم ونفائسهم داخل بعض المدن للتخفيف وسرعة السير وحرصا على نفائسهم كذلك خوفا من (غارة العرب في الطريق) فالمغيرون قاطعوا الطرق من العرب ومقامهم بمتاهات الصحراء يتحنون الفرص لقطع الطريق فهؤلاء دون شك ولا ريب هم الأعراب أو البدو .

ولم يكن استخدام ابن بطوطة اصطلاح (العرب) بمعنى (البدو أو الأعراب) من قبيل الصدفة فما هو يعود في وصف رحلته فيقول (ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا في بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيد وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانتهم وعصمنا الله منهم ...) (54) بل أن هذا النص يعبر لنا بوضوح عن مدى خطورة هؤلاء (العرب) الذين استعد لهم الركب بمائة فارس من بينهم الرماة كما يتكرر اصطلاح (العرب) بنفس المعنى في قوله (وتجاوزنا مسلاته ومصراته وقصور سرت — وهناك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من اذابتنا ...) (55) .

وسوف نؤيد الآن ما سبق لنا طرحه وهو اطلاق كتاب ذلك العصر لاصطلاح (العرب) في كلا الحالتين سواء أشاروا الى العرب أو الأعراب دون اهتمام بالتخصيص ليقينهم بادراك القارئ الغرض ، عندما نقتبه الى استخدام ابن بطوطة في النصوص السابقة لاصطلاح (العرب) بمعنى (البدو أو الأعراب) الذين تنطبق عليهم آيات الكتاب الكريم المشار اليها سابقا كما ينطبق عليهم أوصاف الرحالة المذكورين ، ونميز بين ذلك وبين ما نلاحظه في النصوص التالية بنفس الرحلة التي نحن بصدها . وسوف نرى

الآن معنى اصطلاح (العرب) بعد وصول ابن بطوطة الى الاسكندرية وشعوره بالأمن والأمان ثم سلوكه الطريق البري النهري بمصر الذي سبق ان سلكه ابن جبير .

يقول ابن بطوطة (ثم وصلنا ... الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهي الثغر المحروس والقطر المؤنوس ...) (56) ثم (.. جزنا النيل من مدينة ادفو الى مدينة العطوانى ومنها اكثرينا الجمال وسافرنا مع طائفة من **العرب** تعرف بدغيم فى صحراء لا **عمارة بها الا انها آمنة السبيل** ... ثم وصلنا الى مدينة عيذاب ... فتعذر سفرنا فى البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكثرينا الجمال منهم الى صعيد مصر فوصلنا الى مدينة قوص ... وانحدرنا منها فى النيل ... فبت بمصر .. وقصدت طريق الشام .. ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل : ... والعريش والخروبة بكل منزل منها فندق ... ومن منازلها قطيا المشهورة .. **وطريقها فى ضمان العرب** قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر ثم يأتي الأمير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به أثر طالب **العرب باحضار مؤشره ، فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم فياتون به الأمير فيعاقبه بما شاء ...) (57) .**

هؤلاء (العرب) الوارد ذكرهم بتلك النصوص الأخيرة (طائفة من العرب تعرف بدغيم) و (عدنا مع العرب الذين اكثرينا الجمال منهم) و (طريقها فى ضمان العرب) و (طالب العرب باحضار مؤشره فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم) ، أعرب هم أم اعراب ؟

لقد سبق أن حددنا صفات الأعراب على ضوء الآيات الكريمة الواردة بسورة التوبة (58) وسورة الحجرات (59) وهو الوصف الذي ينطبق على قاطعي الطريق المتوحشين الذين ورد ذكرهم بجميع النصوص التاريخية التي شرحناها سابقا دون أن نتعرض لنص واحد لابن خلدون وقد استعملت جميعها اصطلاح (العرب) للدلالة على الأعراب أو البدو

والآن فما هي صفة (العرب) فى النصوص الأخيرة التي أوردناها على لسان ابن بطوطة بعد وصوله الى الاسكندرية وشعوره بالأمن والأمان داخل

المدن وفي قلب (صحراء لا عمارة بها الا أنها آمنة السبيل) و (طريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه ...) لا شك أن هؤلاء (عرب) وليسوا (أعرابا) وبهذا نستطيع القول بأن ابن بطوطة أطلق اصطلاح (العرب) في كلا المعنيين (العرب والأعراب) دون حاجة منه الى التمييز .

وسوف لا أبالغ الآن اذا قررت بعد اقامتي بالمغرب والجزائر أن لفظة (عرب) لا زالت مستعملة حتى يومنا هذا بالبوادي على الأقل للدلالة على قاطعي الطريق الخطرين ، هذا الى جانب اعتزاز شعوب وحكومات تلك المناطق في نفس الوقت بأنهم عرب بمعنى الشعب العربي بشيئهم وخصائصه الكريمة .

وخلاصة القول أن المؤلفين السابقين على عصر ابن خلدون والمعاصرين له ومنهم رحالة فقهاء محدثون عرفوا بدقة العبارة وتخير اللفظ كابن جبير مؤسس فن الرحلة ، ورحالة لغويون تكاد تطفئ عنايتهم باللغة على عنايتهم بفن الرحلة كالعبدري ، ومؤرخون سفراء أدباء شعراء طبقت شهرتهم الارحاء كلسان الدين بن الخطيب ، ثم رحالة مغاربة جمعوا معارف المغرب والمشرق كابن بطوطة الطنجي ، قد ورد على لسانهم جميعا اصطلاح (العرب) للدلالة على (الأعراب أو البدو) أحيانا ، وللدلالة على (العرب) بمعنى شعوب العرب الكريمة أحيانا أخرى .

ومع هذا فقد علق بعض المستشرقين المبكرين على استخدام ابن خلدون لاصطلاح (العرب) للدلالة على الحالتين (60) (العرب والأعراب) وقاموا بمحاولات كبيرة وأقاموا الدنيا وأقعدوها وحذا حذوهم بعض كبار رجال الفكر من العرب والمسلمين كالمرحوم طه حسين (61) وعبد الله عنان وغيرهما فحققوا لاعداء العروبة والاسلام مبتغاهم ، فمنهم من نجح في تدعيم خرافة (نظرية الفراغ العربي) قبل الاسلام وبعده واستغل ذلك الاتجاه في التهجم على العرب ، ومنهم من أعجزته وسيلته عن تحطيم تراث العرب فاكتفى من الغنيمة بتحطيم شخصية ابن خلدون والافتراء عليها باعتبارها قلعة الفكر العربي التي رسمت الخطوط الكبرى لأول فلسفة تاريخية عرفها الفكر الانساني على الاطلاق .

وفي نظرنا ، ان ضخامة أعمال ابن خلدون وتنوع محتواها وكثرة شيوعتها وما حققته من شهرة بعد كشفها ، كان العامل المباشر في اتجاه الانظار الى ما جاء ضمن نصوصها بخصوص (العرب) دون غيرها من مؤلفات الآخرين ، الأمر الذي أدى الى عكوف مئات الباحثين من مختلفي الجنسيات واللغات على تحقيق نصوصها والتدقيق في عباراتها وكلماتها والا فما هو السبب في عدم اثاره نفس المشكلة بالنسبة لمفكرين آخرين من العرب سابقين أو معاصرين لابن خلدون على النحو الذي أبرزناه بالحجة والدليل المادي ؟

وهكذا نطمع من وراء فكرتنا تلك ، المؤيدة بالنصوص التاريخية ، انصاف ابن خلدون من تهمة التهجم على العرب ، كما نأمل من جهة أخرى وضع حد لاستغلال بعض المفرضين المتحاملين على حضارة العرب والمسلمين الذين يحرفون القول عن مواضعه والذين يخوضون فيما لا يعلمون .

دكتور عثمان عثمان اسماعيل

-
- (1) دكتور عثمان عثمان : الآثار العربية الاسلامية بالمغرب العربي وحرب المستشرقين . دعوة الحق - الرباط - عدد يونيو 1974
 - (2) شرح فكرة الفراغ العربي والرد عليها بمقالنا بدعوة الحق - الرباط عدد يونيو 1974 وما يليه .
 - (3) المقدمة نشر لجنة البيان العربي بالقاهرة 1957 ، ج 3 ، ص : 836 - 929 ، وتعليق احمد فكري على النص في كتابه المدخل ص : 9 - 10 .
 - (4) المقدمة نفس الطبعة والجزء 6 ص 923 وتعليق احمد فكري بالمدخل 6 ص : 30 .
 - (5) دكتور عثمان عثمان : دعوة الحق - الرباط - عدد يونيو 1974 .
 - (6) ترجمة البارون دي سلان 2 حاشية 359 و ص 411 وتعليق احمد فكري في المدخل ص 10 وحاشية 3 ص 10 .
 - (7) الاستاذ الرئيس محمد الفاسي : ابن خلدون والسياسة 6 التربية الوطنية الرباط عدد نوفمبر وديسمبر 1959 ، ص : 7 - 11 .
 - (8) دكتور علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ، الكتاب رقم 4 من سلسلة اعلام العرب .
 - (9) نفس المصدر ، ص : 13 .

- (10) نفس المصدر ٦ ص : 219 - 228 .
- (11) ص : 220 - و ص : 227 .
- (12) نفس المصدر الفصل الاول .
- (13) وهو تفسير غير دقيق وغير صحيح لان أسس الحضارة والعمران العربي الاسلامي وضعت ايام الامويين ، انظر مقالنا بدعوة الحق ٦ عدد مارس 1960 عن نشأة الفن الاسلامي .
- (14) انظر راي بروكلمان المتعصب في تاريخ الشعوب الاسلامية ٦ ص : 158 - 316 .
- (15) علي عبد الواحد ، نفس المصدر ٦ ص : 726 .
- (16) علي عبد الواحد وافى : نفس المصدر ٦ ص : 225 .
- (17) الدكتور ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ٦ ص : 260 .
- (18) دكتور سيد سالم : المغرب الكبير ابتداء من ص : 666 .
- (15) الدكتور علي عبد الواحد وافى نفس المصدر ٦ ص : 227 .
- (20) كتابنا « تاريخ شالة الاسلامية » تحت الطبع بدار الثقافة - بيروت - انظر الفصل الاول الخاص بالفلذكة اللغوية عن تطور اسم نهر أبى الرقراق عند المؤرخين عبر التاريخ ، وكذلك اسم مدينة شالة نفسه .
- (21) سورة التوبة الآيات 90 / 97 / 98 / 101 / 120 .
- (22) سورة التوبة الآية 97 .
- (23) سورة الحجرات الآية 14 .
- (24) سورة التوبة الآية 101 .
- (25) سورة التوبة الآية 120 .
- (26) دكتور علي عبد الواحد وافى : نفس المصدر ص 228 وحاشية رقم 1
- (27) منجد لويس معلوف تحت مادة (عرب) .
- (28) من منطقة الغرب الاسلامي . (المغرب العربي والاندلس) .
- (29) رحلة ابن جبير ٦ نشر دار صادق ٦ بيروت 1964 ٦ انظر المقدمة ص : 5 وما بعدها .
- (30) رحلة ابن جبير ، نفس الطبعة ص : 41 .
- (31) نفس المصدر ٦ ص : 42 .
- (32) نفس المصدر : 43 .
- (33) نفس المصدر السابق (رحلة ابن جبير) نفس الطبعة ص 44 .
- (34) رحلة المبدري تحقيق أحمد بن جدو ونشر كلية الآداب بالجزائر .

- (35) رحلة المبدري نفس الطبعة 6 ص : 2 .
- (36) نفس المصدر ، والقصيدة طويلة وردت بصفحات 2 - 3 - 4 - 5 والابيات مقتبسة من ص : 2 - 3 - 4 .
- (37) نفس المصدر 6 ص : 8 .
- (38) نفس المصدر 6 ص : 33 .
- (39) رحلة المبدري ، ص : 34 .
- (40) نفس المصدر 6 ص : 76 .
- (41) نفس المصدر 6 ص : 79 .
- (42) نفس المصدر ، ص : 81 .
- (43) انظر مقدمة الجزء الثاني من اعمال الاعلام الذي نشره ليفي بروفنسال تحت عنوان : (تاريخ اسبانيا المسلمة) للتعرف على اهم مؤلفاته ومحاولات نشرها . الطبعة الثانية دار المكشوف - بيروت - 1956 .
- (44) القسم الاول يتناول تاريخ المشرق الاسلامي والقسم الثاني يتناول تاريخ الاندلس الاسلامي .
- (45) انظر تعليقنا على القسم الثالث من اعمال الاعلام فى مقالنا القادم بنفس المجلة (المناهل) العدد الثاني .
- (46) وهي سنة احدى واربعين واربعمئة هجرية .
- (47) القسم الثالث من (اعمال الاعلام) للسان الدين بن الخطيب ، الذي نشره الاستاذ ابراهيم الكتاني تحت اسم (تاريخ المغرب العربي فى العصر الوسيط) الدار البيضاء 1964 6 ص : 72 / 73 / 74 .
- (48) كان المعز بن باديس الصنهاجي فى افريقية بعد تحول العبيديين عنها الى مصر وتأسيس القاهرة .
- (49) تاريخ المغرب العربي فى العصر الوسيط نفس الطبعة 6 ص : 74 وهو القسم الثالث من اعمال الاعلام للسان الدين .
- (50) نفس المصدر ، ص : 77 .
- (51) نفس المصدر 6 ص 74 .
- (52) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمود بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة 6 امره ابو عنان المريني ان يكتب اخبار رحلته ولقبه المستشرق دوزي

بالرحالة الامين ، وكان ارتحاله الاول ايام ابي سعيد عثمان المريني وفرغ من كتابه سنة 757 هجرية .

(53) رحلة ابن بطوطة طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر 1967 ، ج 1 ، ص : 6 .

(54) نفس المصدر ، ص : 8 .

(55) نفس المصدر ، ص : 8 .

(56) نفس المصدر ، ص : 8 .

(57) نفس المصدر ، ص : 31 .

(58) سورة التوبة الايات : 90 / 97 / 98 / 101 / 120 .

(59) سورة الحجرات الاية 14 .

(60) على طريقة عصره دون حاجة الى تحديد كما اوضحنا .

(61) ونعتقد شخصيا ان المرحوم طه حسين ربما كان واقعا تحت تأثير حالة الركود التي

اصابت الادب بالمشرق العربي على عصر ابن خلدون ووصمته بالتكلف والصنعة والجمود

فسادت امامه صورة العرب واعتقد بازدياد ابن خلدون لهم .

الأدب المغربي على عهد الدولة العلوية العصر الأول

(1139 - 1171 = 1727 - 1757)

د. محمد الأخضر

تنازع أمر السلطة بعد وفاة مولاي اسماعيل أبناؤه الكثيرون ، وطوائف الجند من قبائل جيش المغامرة والودايا وعبيد البخاري . وقد بسط هؤلاء نفوذهم على السلطانين مولاي أحمد الذهبي (1139 - 1141 = 1727 - 1728) الذي لقب هكذا لسماحة أخلاقه ، ومولاي عبد الله (1141 - 1171 = 1728 - 1757) . واثناء ذلك تابعت الحياة الثقافية سيرها على مهل نحو التقدم ، وأتم مولاي عبد الله الذي نصب على العرش أربع مرات عمل أبيه في هذا المبدآن . من ذلك أنه جدد مجموعة الكتب التي كان مولاي اسماعيل قد أمر وزيره أحمد بن الحسن اليعمدي (1) بجمعها ، وتشتمل على عشرة أجزاء في مختلف العلوم ، لكل منها مقدمة في ترجمة أحد العشرة المبشرين بالجنة من صحابة رسول الله صلى عليه وسلم (2) ، وأوقف الكتب النفيسة على جامع القرويين وغيره من المعاهد العلمية .

ب - الحياة الفكرية :

بفضل الجهود التي بذلها كل من مولاي الرشيد وأخيه مولاي اسماعيل من بعده في المضمار الثقافي ، تمكنت حركة النهضة التي انبعثت مع قيام السعديين من أن تستمر طوال هذا العصر . حقا ان النتائج السيئة التي كان من المعقول التخوف منها بسبب هدم الزاوية الدلائية لم يمكن تفاديها فحسب ولكن ذلك عاد بالخير والبركة على العلم والثقافة . ففي فاس التي نقل اليها كبار علماء الدلاء مع الامام أبي علي اليوسي ، لم يمض وقت قصير حتى تصدر هؤلاء العلماء البدو كراسي التدريس وأخذوا ينافسون منافسة قوية علماء الحاضرة الادريسية . فبعد أن استوحش الدلائيون فاس عندما نفوا اليها وكابدوا من « وخم المدينة » مدة أخذوا يألون العيش فيها ، وساعدهم على ذلك وشجعهم السلطان مولاي الرشيد، وتمت عملية الاندماج مع أبناء هؤلاء الوافدين في الوسط الفاسي الذي فتحو أعينهم فيه ، مكونين بذلك جيلا جديدا اشتهر في النصف الثاني من عهد السلطان مولاي اسماعيل .

باستثناء التاريخ (3) الذي يعتبر الافراني أهم شخصية بارزة فيه ، فان سائر العلوم قد تقدمت بكيفية تدريجية مناسبة ، وسنستعرض هذه العاوم محاولين استخراج قيمتها وأصالتها بالنسبة للعصور السابقة ، ونذكر من ألف فيها وأهم ما ألف .

1) العلوم الشرعية :

لكي ندرك تطور هذه العاوم خلال العصر الذي ندرسه ، لابد من اشارة خفيفة الى المراحل الأساسية التي قطعتها على عهد الدول العظيمة السابقة : المرابطية والموحدية والمرينية . فمنذ القرن الخامس = 11 م ، والامبراطورية الصنهاجية في كمال سطوتها ، خضعت بلاد المغرب عموما والمغرب الأقصى خصوصا ، الى مذهب عبد الله بن ياسين (4) الذي كان يدعو الى الرجوع الى الاسلام السني . فبدلا من الرجوع الى الأصليين الأصليين — القرآن والسنة — والى الاجتهاد (5) للبث في مسائل القضاء ، تشبعت الفقهاء بأراء علماء مذهب مالك مكتفين بترديد أقوال المتقدمين وشرحها

أو اختصارها ، فصاروا بذلك أشبه بقراء كتب منهم بعلماء باحثين . وقد أهملت دراسة الأصول (6) بل منعت واستعيض عنها بدراسة الفروع (7) الفقهية من عبادات ومعاملات ، وكان للفقهاء الرجعيين السلطة المطلقة في تنفيذ الأحكام

وفي أيام الموحدين (550 = 1155) وقع اصلاح في الميدان الديني تمثل في الرجوع الى الاجتهاد والبحث في القرآن والحديث باعتبارهما مصدري الدين والتشريع . منع التقليد المالكي ، وقام أحد الملوك الأولين (7) لهذه الدولة يعطي المثل في ذلك ، فأمر باحراق مدونة سحنون (8) ، وكتاب ابن يونس (9) ، والنوادر ، والمختصر لابن أبي زيد القيرواني (10) ، وتهذيب البراذعي (11) ، والواضحة لابن الحاجب (12) ، ووقعت الاستعاضة عن هذه الكتب المحروقة بموطأ الامام مالك بن أنس (13) ، وسنن البزار (14) ومسند ابن أبي شيبة (15) ، وسنن الدارقطني (16) ، وسنن البيهقي (17) ، بالإضافة الى الكتب الخمسة الصحاح : سنن أبي داود (18) ، وجامع الترمذي (19) ، وسنن النسائي (20) وصحيح البخاري (21) ومسلم (22). وكانت هذه الكتب الخمسة الأخيرة تكون رمز المملكة الموحدية .

ولما جاء المرينيون الغوا اجراءات الموحدين المتخذة لصالح المذهب الظاهري ، وأقروا من جديد المذهب المالكي حيث ما زال العمل جاريا به الى أيامنا هذه .

وخلال الفترة الأولى التي امتازت باعتلاء العلويين العرش ، سجلت بعض الاعمال في هذه العلوم الشرعية ، وظهرت أسماء لامعة مثل محمد بن أبي بكر الدلائي ، ومحمد ابن ناصر الدرعي ، وعبد القادر الفاسي ، والحسن اليوسي ، وابن رحال المعدني ، ومحمد بن عبد السلام بناني ، وعبد الرحمن الفاسي ، وأبي سالم العياشي وغيرهم . هؤلاء الأعلام حاولوا أن يبعدوا كل ما من شأنه أن يحرف الحقيقة أو يفتح باب اللبس ، مقلدين في ذلك طريقة

ابن عرفة التونسي (23) الذي كان يوصي بالاكْتفاء بتفهم المتن وتحليل الشرح في تلقين العلوم الدينية .

أخذ بهذه الطريقة الشيخ محمد ابن ناصر ونقلها الى تلميذه الحسن اليوسي . أما العياشي فسيذهب الى أبعد من ذلك ناصحا بالصعود الى أعلى ما يمكن في سلسلة رواية الحديث ، سالكا بذلك طريق الشيخ محمد ابن عبد الله معن (24) التي أخذها بدورها عن ابن المبارك (25) . ونقف مع محمد بن سليمان الروداني (26) على تطور في ميدان اختيار كتب الحديث يستهدف جمع أكبر عدد منها ، منتقلا من الخمسة الصحاح الى الثمانية ، بادخال سنن البزار التي أقرها الموحدون . كما نجد العالمين الفاسيين عبد القادر وابنه عبد الرحمن بصفة خاصة يسيران قدما في تنمية منهج الفقه المتعلق بأحكام القضاء الذي دشنه أحمد الوئشريسي (27) في المعيار ، ويكونان العمل الفاسي (28) .

وبالجملة ، فان دراسة هذه العلوم كان مبنيا على النقد المعقول ، معارضا للتقليد الأعمى للفقهاء المحافظين .

2 — التـصـوـف :

كان من آثار الحروب الأهلية واحتلال بعض الثغور المغربية ظهور رد فعل ديني قوي لدى خاصة العلماء وعامة الناس ، ففيما يتعلق بالفقه تجلّى ذلك — كما رأينا — في العمل على الرجوع الى منابع الاسلامية الأولى، في نفس الوقت أخذت تبرز حركة مقاومة البدع التي يمكن أن تعكر صفو تلك المنابع . وبالتأمل في عواقب الناس وجهل المجتمع وزندقته وبطلان هذا العالم وخداع ظواهره ، أصبح العلماء يعتقدون أكثر فأكثر بأن تلك المصائب التي حاقت بالمسلمين إنما هي من أثر غضب الله تعالى ، فيزهدون في ملذات الحياة ليعيشوا عيشة التقشف والنسك . وينتهي الأمر بمعظمهم الى القيام بأداء فريضة الحج حيث يجدون العزاء والتسلية ، وذلك ما يبين سبب كثرة توجه المغاربة الى الشرق في هذه الفترة ، ووفرة ما كتبوه من رحلات في طليعتها الرحلة العياشية .

3 - الرحلة :

حافظ هذا النوع من التأليف الى حوالي نهاية القرن الحادي عشر = السابع عشر — على الطابع الديني الذي كان يمتاز به ، فلا تجد فيه الا القليل النادر من وصف الاقطار التي يمر بها الرحالة او الاشخاص الذين يحتك بهم ، ولا تكاد تقف بالمرّة على ملاحظات تتصل بالجوانب الجغرافية ، والعراقية (الايطنوغرافية) ، والاجتماعية . وبالمقابل تعثر في هذا النوع على مباحث طويلة في موضوعات فقهية وصوفية ، ونقول تتعلق بتراجم الصالحين والاجازات والاسانيد .

ان الذين يمثلون هذا النوع من الرحلات اصدق تمثيل هم ، بالإضافة الى العياشي ، أحمد بن ناصر الدرعي (29) ، وعبد المجيد الزبادي (30) ، ومحمد بن عبد السلام بن ناصر (31) ، ومع ذلك يلاحظ عند هؤلاء بعض التطور نحو مزيد من الشخصية والموضوعية في وصف مشاهداتهم (32) . وستكتسي كتب الرحلات ابتداء من القرن الثاني عشر = الثامن عشر طابعا ادبيا خالصا عندما يتسع أفقها بامتداد الاسفار الى أوروبا والاتصال بحضارة جديدة ومدهشة .

ولما كانت هذه الاسفار راجعة في اصلها الى اقامة علاقات دبلوماسية بين المغرب وبعض الاقطار الاوروبية كاسبانيا وفرنسا وايطاليا ، لأجل المصالح السياسية وتبادل الاسرى أو فدائهم ، فانها مكنت مختلف السفراء المبعوثين من قبل ملوك المغرب من أن يدونوا ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن البلاد التي زاروها . وبما أنهم كانوا في الغالب من رجال القلم فقد تركوا لنا مؤلفات أدبية مفيدة جدا (33) .

أقدم الرحالة السفراء لهذا العهد ، الوزير الغسائي (34) الذي وجهه المولى اسماعيل عام 1102 = 1690 الى ملك اسبانيا كارلوس الثاني لمفاوضته في شأن تبادل الأسرى لدى الطرفين على اثر معارك بحرية عديدة ، وتشتمل الرحلة التي كتبها هذه الدبلوماسية خلال سفره الطويل في اسبانيا على معلومات مفيدة عن البلاد وأخلاق أهلها ، وذلك ما يجعل منها

كتابا أصيلا وأديبا صرفا (35) . وستعرف هذه الرحلة نجاحا عظيما فيستوحي منها اغلب الرحالة في الجيل التالي .

4 - التراجم وعلوم أخرى :

من بين ما ألف في موضوع التراجم نجد على الخصوص كتب سير وغهارس يلتزم فيها كل مؤلف بذكر شيوخه وما قرأ عليهم من مؤلفات ، مثل فهرست أبي سالم العياشي ، وعبد القادر الفاسي (حررها ابنه عبد الرحمن) ، والحسن اليوسي ، دون أن ننسى الفهرست القيمة التي عثر عليها أخيرا ، وهي صلة الخلف لابن سليمان الزوداني .

حقا ان نفس المؤلف الذي ما انفك مثار اعجاب مترجميه ، قد امتاز بخاصة في علوم الفلك حيث صنع بيده أسطرلابات وكرة أرضية لحساب مواقع النجوم وحركاتها ، وسيشتهر مؤلف آخر أكثر من ذلك لكن في ميدان اللغة ، أعني محمد بن الطيب الشركي (36) الذي سيتخرج على يده علماء بارعون مثل الشيخ مرتضى الزبيدي (37) ، وسيكسبه شرحه الضخم للقاموس تقدير علماء المغرب والمشرق ..

لكن ماذا يمكن أن يقال عن الطب الذي ستقترن به من الآن فصاعدا المصاعب التي عرفها هذا العلم بالمغرب ، كابن شقرون المكناسي (38) ، وعبد الوهاب أدراق (39) ؟ الحقيقة أن كلا منهما سينكشف لا عن طبيب ماهر في العلاج فحسب ، ولكن أيضا عن مفكر عميق وفاحص حائق .

وقبل أن ننقل الى الأدب بمعنى الكلمة نشير الى أن هذه الفترة تميزت بإنتاج كتابين بالغين الأهمية : الاقنوم لأكبر مشارك مغربي عبد الرحمن الفاسي ، والقانون للحسن اليوسي ، وهما مخصصان للعلوم بصفة عامة ، إلا أن أولهما عبارة عن دائرة معارف منظومة في بحر الرجز من النوع التعليمي ، والثاني نثر يبحث خاصة في مسائل التعليم والدراسة .

5 - الأدب :

ذكرنا فيما يتعلق بالزاوية الدلالية الظروف التي نقل فيها المولى

الرشيد علماءها الى مدينة فاس وعلى رأسهم اليوسي الشهير ، وأشرنا كذلك الى النشاط الأدبي الذي كان عليه أولئك الأعلام الجبليون في مقاومتهم برغبة علماء المدينة الادريسية . لقد ساعدت هذه العوامل الأدب ليس فقط على ان تمتد حركة النهضة التي ظهرت بوادرها مع مجيء السعديين الى الحكم ، ولكن أيضا لتنمو وتزدهر . ولما كان اليوسي مخضرمًا عاش أيام السعديين والعلويين ، وربما كان أكبر شخصية أدبية مغربية ، فإنه يكون حلقة الاتصال بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري = 17 و 18 الميلادي ، وهو بدون منازع رئيس مدرسة سيستمر أشعاعها طويلا وتخرج تلاميذ موهوبين ، أمثال محمد بن زاكور (40)، ومحمد ابن الطيب العلمي (41) وعلى مصباح الزرويلي (42) . انهم جميعا أساتذا وتلاميذ ، ماهرون في الشعر مهارتهم في النثر ، يطرقون جميع الأنواع والمواضيع التقليدية ، غير انهم يمتازون بخاصة في النثر الفني ، ولهم فيه آثار جميلة . وباستثناء ابن زاكور الذي سيتخصص في النقد الأدبي ، ويتفوق فيه حتى على زملائه المشاركة (43)، فإن الآخرين جميعا سينكبون على نوع (المتنوعات الأدبية) حيث سيؤلف كل منهم على الأقل كتابا في الموضوع . وهكذا سيتلو محاضرات اليوسي كتاب الأنيس المطرب للعلمي ، الذي سيجد بدوره نظيرا له في كتابي أنس السмир ، وسنا المهندي للزرويلي (44) . ومن المعروف ان هذه الكتب ما هي الا تقليد مطابق لقلائد العقيان الذي عرف بالمغرب رواجًا عظيمًا استمر حتى الربع الأول من هذا القرن (45) ، لكن بينما تختص القلائد بذكر منتخبات لأدباء الاندلس في القرن الخامس الهجري = 11 الميلادي ، نجد ظاهرة التنوع أكثر وضوحًا في الكتب الأخرى لاشتمالها على مزيد من ضروب القول والاستطراد ، كما ان الاشارات في هذه الكتب تتعلق بالمغرب والاندلس والمشرق ، فتقدم كل ما هو نادر وطريف في ميدان المعرفة . لذلك فان قراءتها سهلة ممتعة ، والنثر المستعمل فيها رشيق وبسيط أحيانا . وأخيرا فان هذه المؤلفات صور صادقة لأصحابها تمتاز بمزيد من الشخصية والحيوية .

أما المقاومة فتتطور بشكل مواز لهذه المتنوعات لتبلغ أوج تقدمها مع كبار الكتاب من أمثال محمد الطيب العلمي ، ومحمد المنشاوي الدلائي (46). وغير خاف على أحد أن هذا النوع من الأدب لم يتطور عمليا منذ الهذاني (47)

الى الحريري (48) واليازجي (49) ، ومع ذلك فان المقامة المغربية تتميز بدقة الملاحظة وبساطة اللغة ، وتقدم مشاهد رائعة لمجتمع العصر الذي كتبت فيه ، مسجلة بعناية كل كبيرة وصغيرة .

ولن نختم هذا الفصل دون أن نذكر بالدور الهام الذي قامت به في الحياة الفكرية بالمغرب الندوة الأدبية التي أنشأها في سوس الأمير الشاعر محمد العالم ، فقد ساهمت المجالس العديدة التي ترأسها الأمير — والتي سنقدم نماذج منها فيما يأتي — في خلق منافسة طيبة بين الشعراء ، وفي تطوير الأنواع والمواضيع الهزلية التي كانت حتى ذلك الوقت مبعدة الى الدرجة الثانية . هكذا نقف على نهضة أدبية احتفظ لنا بصورتها لحسن الحظ مؤلف معاصر مجهول تحت اسم نفحات الشباب .

الرباط — د. محمد الأخضر

- (1) انظر ع. الزرويلي ، سنا المهندي ، ميكرو فيلم رقم 791 من المكتبة العامة بالرباط .
- (2) نذكر بان اصحاب النبي عليه السلام العشرة المبشرين بالجنة هم الخلفاء الراشدون (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) وطلحة ابن ابن الزبير، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة وعامر بن الجراح .
- (3) انظر عن هذا الموضوع ، ل. بروفنسال، الشرفاء ، ص. 141 — 142 .
- (4) انظر أخبار ابن ياسين في مادة المرابطين من دائرة المعارف الاسلامية 1 : 322-323 .
- (5) انظر المصدر السابق ، مادة اجتهاده : 476 — 477 .
- (6) المصدر السابق ، مادة اصول ، 4 : 1112 — 1116 .
- (6) مكرر المصدر السابق ، مادة فقه ، 2 : 110 .
- (7) يتعلق الامر بعبد المومن أو بحفيده يعقوب المنصور . انظر م. المنوني ، العلوم والآداب ، ص. 51 — 52 .
- (8) سحنون عبد السلام (159-242 = 776-856) قاضي القيروان الذي نشر المذهب المالكي في شمال افريقيا . انظر ك. بروكلمان، تاريخ الادب العربي 1 : 77 ، والملحق 1 : 299 .
- (9) انظر المصدر السابق ، 1 : 387 ، والملحق 2 : 963 .
- (10) المصدر السابق ، 1 : 177 ؛ والملحق ، 1 : 300 .
- (11) المصدر السابق ، 2 : 239 ؛ والملحق ، 2 : 337 .
- (12) المصدر السابق ، 2 : 36 ؛ والملحق 2 ، : 35 .

- (13) المصدر السابق ٦ : 175 ؛ والملحق ، أ 297 .
- (14) المصدر السابق ، أ : 518 ؛ والملحق ٦ أ 274 .
- (15) المصدر السابق ، الملحق ٦ 1 : 215 .
- (16) المصدر السابق ، 1 : 165 ؛ والملحق ٦ أ : 275 .
- (17) المصدر السابق ٦ 1 : 363 ؛ والملحق ، 1 : 618 .
- (18) المصدر السابق ٦ 1 : 161 ؛ والملحق ٦ 1 : 266 .
- (19) المصدر السابق ، 1 : 161 ؛ والملحق ، 1 : 267 .
- (20) المصدر السابق ، 1 : 162 ؛ والملحق ٦ 1 : 269 .
- (21) المصدر السابق ، 1 : 157 ؛ والملحق ٦ 1 : 260 .
- (22) المصدر السابق ، 1 : 160 ؛ والملحق ٦ 1 : 265 .
- (23) انظر المصدر السابق ٦ 1 : 184 ، والملحق ٦ 2 : 347 .
- (24) انظر أخبار من عند ل. بروفنسال ، الشرفاء ٦ ص. 267 وهامش 5 .
- (25) انظر ترجمته فيما يأتي ٦ ص. 185 - 187 .
- (26) انظر ترجمته فيما يأتي ٦ ص. 81 - 88 .
- (27) انظر ترجمته عند ك : بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ٦ 2 : 248 - 356 ؛ والملحق 348 : 2 .
- (28) انظر دائرة المعارف الاسلامية ٦ 1 : 440 - 441 (الطبعة الجديدة) .
- (29) انظر ترجمته فيما يأتي ، ص. 134 - 137 .
- (30) انظر ترجمته فيما يأتي ، ص. 192 - 197 .
- (31) انظر ترجمته فيما يأتي ٦ ص. 293 - 301 .
- (32) انظر فيما يأتي مقتطفات من رحلات هؤلاء المؤلفين ، ص. 136 - 137 ؛ 196-197 ؛ 314 - 315 .
- (33) لمزيد من التوسع في هذا الموضوع انظر مقالات م. الفاسي المنشورة في مختلف المجلات ٦ لاسيما : أ - الرحالة المفاربة وآثارهم ٦ دعوة الحق ، عدد 2 ، 3 4 ٦ يناير 1959 ؛ ب - الرحلة السفارية المغربية ، البيئة ٦ عدده اكتوبر 1962 ٦ ص. 11 - 24 . الاكسیر فی فكاك الاسیر ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط ٦ 1965 ، ألف - راء .
- (34) انظر ترجمته فيما يأتي ٦ ص. 122 - 125 .
- (35) انظر تفصيل ذلك فيما يأتي ٦ ص. 124 - 125 .
- (36) انظر ترجمته فيما يأتي ، ص. 201 - 206 .
- (37) انظر ترجمته عند ك. بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، 2 : 288 ؛ والملحق ، أ : 805 ٦ 6 و 2 : 398 و 537 .
- (38) انظر ترجمته فيما يأتي ٦ ص. 161 - 166 .

- (39) انظر ترجمته فيما ياتي ص. 187 - 190 .
- (40) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 126 - 133 .
- (41) انظر ترجمته فيما ياتي ص. 137 - 151 .
- (42) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 172 - 178 .
- (43) حقيقة ان هذه الفقرة فى المشرق داخلة فى نطاق عصر الانحطاط للادب العربي - (1258 - 1800) . انظر ش. بيلا ، اللغة والادب العربي ، ص. 167 - 185 .
ان هذا النقد المنبني على معلومات مدققة جدا فى اللغة والنحو والبلاغة كان اكثر دقة ومهارة .
- (44) يضاف الى هذه الكتب الحلل السندسية لاحمد الحلبي ، وهو شامي مات بفاس عام 1120 = 1708 . انظر ل. بروفنسال ، الشرفاء ص. 286 - 287 ؛ ج. بيرك ، اليوسي ، ص. 117 .
- (45) حسب رأي ل. بروفنسال ، يذكر الانس اكثر بالمنتقى المقصور لابن القاضي ، فيكون نظيرا له على هذا النحو ، انظر ل. بروفنسال ، الشرفاء ص. 297 .
- (46) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 152 - 158 .
- (47) انظر ترجمته عند ك. بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، 1 : 93 ؛ والملحق 1 : 150
- (48) المصدر السابق ، 2 : 494 ؛ والملحق ، 2 : 765 .
- (49) المصدر السابق ، 1 : 276 ؛ والملحق ، 1 : 486 .

أبحاث أندلسية

ذيلٌ وتعليق حول ”قضية المعتمد بن عباد“ القسم الأول

عبد الرحمن الفايسي

يا له من قال حسن هذا الذي جادت به الانباء ، لمناسبة التجمع الاسلامي المسيحي في قرطبة ، من ان شعار ذلك اللقاء قد اتاح اقامة الصلاة صلاة الجمعة بين اعمدة مسجد قرطبة على غير ميعاد او انتظار !!

وهكذا كان !! وجلجل صوت الاذان في تلك الابهاء ، وهوم المؤذن بترديد الشهادتين وكأنه اضغاث من احلام ذلك المسجد بماضيه البعيد، او كأنه تهويم من وراء الغيب بما تهجس به خواطر المؤمنين حمية لدينهم الجنيف !!

لكنها - وايم الله - الحقيقة الماثلة في زخرف الحطم ، او الحطم جاء كفلق الصبح ، متبرجا في جهارة اليقظة والحقيقة .

وليكن الحدث على أية حال اريد لها ، ولاي هدف ينظر منه واليه ،
فنحن المسلمين في مشارق ومغارب الارض ، نتفرس فيه الفأل الحسن ،
ونستروح من قبله سائحة الخير ، ولو رست وراءه صفوف متعاقفة من
اسوار الخلفيات ، ورصدت امامه سعالي واشباح النوازع والاغراض !

فالي ذكرى قرطبة « الحسناء »

والي « خطيبها » الذي ظل عرس الجزيرة في عهودها الزاهرات ،
الضاحكات ، وفي فترات النكدات .

الى الذي ظل اسمه على صفحات التاريخ الشعار الاصيل والمثال الفريد
لذلك الفريوس .

الى المعتمد بن عباد .

اقدم تحية وذكرى هذه الصفحات

وهي مناسبة اقدمها بين يدي القراء ، مرجيا منها ان تشفع لي
في حديث يعتبر موضوعه - في الحقيقة - من المعاد المعادي بعدما
اعتورته اقلام الباحثين من مغاربة ، ومشاركة ، ومستشرقين ، وبعدما
نصبت له الموازين لاعلان كلمة الحق في جزيرة ابن عباد ، وما اتاه في
حقه امير المسلمين .

على ان هذه الصفحات انما هي هوامش مقتضبة ، ونظرات
مختصرة تجاه البحث الذي نشره الاستاذ عباس الجراري بالعديدين
العشرين والثاني والعشرين من مجلة « الثقافة » الجزائرية (ابريل -
ماي - غشت - سبتمبر 1974) تحت عنوان : قضية المعتمد بن عباد
فالي هذا الاستاذ الصديق يتوجه الفضل ، او يعود الملام ، اذ الامر معقود
بالفائدة المتوخاة ، ومعلق بالجديد المنتظر من ابحاث هذا الميدان .

وكما يلاحظ ، فقد افرغ الاستاذ فقهه في عنوانه ، فجئج الى

التعبير بقضية المعتمد بن عباد ، متجانفا ما درجت عليه الاقلام من التعبير بالأساة ، وهو فى هذا يوزن بما نهد اليه من نصب ميزان العدل ، واصدار الحكم النهائي فى قضية زاغ فيها الكاتبون عن مهيع الواقع ، واستناموا الى الهوى ، وركبتهم العاطفة ، فما درجوا على حق او صواب ، وعلى حد تعبيره : (لو اننا نظرنا الى الاحداث التى احاطت بهذه القضية ، نظرة شاملة ، تصح احداثها فى وحدة متكاملة ، لا تفصل بعض هذه الاحداث عن بعض ، لانصفنا ابن تاشفين مما يتهم به ، ولوضعنا قضية المعتمد بن عباد فى اطارها الحقيقي ، بل لما اعتبرناها غيبة او مأساة ، او ما الى ذلك من الاسماء التى تنسب اليها) .

تلك كانت توطئة ، اردفها الباحث بعرض تناول كما يقول : (اهم الظروف التاريخية التى احاطت بقضية المعتمد ، والتى قصصنا من عرضها الى ايجاد اطار يتيح لنا ان نضعها فيه وان ننظر اليها فى موضوعية من خلال ما ينعكس داخله من معالم وملامح ، بعيدا عن الملابس والخلفيات التى ارتبطت بالقضية واثرت فى بعض الدارسين ، وبالفيت فى التأثير فجعلتهم ينساقون لها ، لا يرون ولا يحكمون غيرها) .

وعلى نفس هذا المنهج ، ستسير هذه الذيل والنظرات ، كما هو طابع ذيل وتعليق سابقات ، تضيف الى الموضوعية ، والنظرة الشاملة ، تعميق النظر فى الاحداث ، مع الالتفات ايضا الى السابقات منها والمواكبات المشابهات ، وحتى الى اللاحقات ، حتى يتوفر تكامل الوحدة بينها وتخلو النظرات من الشائبات .

وهكذا اتابع الباحث ، وهو الآن يعرض على القارئ ملامح مسرح الاحداث ماثلة فيما كانت تتخبط فيه البلاد الاندلسية على عهد ملوك الطوائف من مفاسد وضعيتها الرعناء ، فتراه يقدم لنا الانقسام والفوضى كاسباب ونتائج للخطر النصراني الذى كان حاقا بالظروف القائمة ، وبعدها ، سجل لنا ما ترتب عليها ، وجاء عقبى لها حيث (ساعد المسيحية على تجميع قوتها للاستيلاء على طليطلة وعلى كثير من الاراضي القتالية ، كذا) كما انتزعت الجيوش النصرانية مدينة قورية وكانت لبني الافطس) .

وبهذا ، وبه وحده - كما سنرى بعد - عرض علينا حجم الخطر ، ومداه ، واسبابه حسبما هي في رأيه ، ثم تابع الحديث مباشرة محاولا رسم الخطوط الرئيسية للعهد ، ماثلة في تعداد نقائص امراء الطوائف وما انتهت بهم اليه من استغلاظ العدو باظهار حمايتهم ، ومحالفتهم ، (ومن كان يهاكن من امراء الطوائف كانت تؤخذ منه الجزية) وكانما رأى الباحث هذه فريدة في السمع والعيان ، فجلب لها نصا فريدا من كتاب « التبيان » .

وينتهي من هذا الى الدخول فى موضوع تداول ملوك الطوائف امرهم بازاءالخطر الذى صورده على الوجه السالف ، وتجاه شبح خطر الانسياح المرابطي ، ثم ما كان من وقوعهم على اختيار رعي الجمال على رعي الخنازير، والاستنجد بيوسف بن تاشفين، وفي هذا الفصل وفيما تشقق عنه، تتناثر ملامح اخرى لاجتماع ملوك الطوائف ماثلة ايضا في نقائص ملوكه التى عاينها ابن تاشفين بنفسه ، او كانت لها آثار على حركته ، كالنزاعات ، وعواطف الاثرة والحسد التى كانت تسود بينهم ، وذهاب المعتمد بن عباد فى انانيته الى حد استغلال الجيش المرابطي فى اغراضه، وحتى هذه، وان كانت معروفة فى الرواية العربية حين عرضت لمحاولة المعتمد الفاشلة للاجهاز فى غيبة ابن تاشفين بخيله الاندلسية، وحتى بالفرسان المرابطية ، على « ابن رشيق » الذى انتزى من يد « ابن عمار » على مرسية ، فقد أبى الباحث الا ان يقيم الحجة على المعتمد على لسان المستشرق « يوسف » !! اشباح حتى لكانها فريدة من فرائد هذا الالماني العملاق .

فيا لخيبة المعتمد بن عباد !! دفع الجزية للاسبان على قيد الحياة، وجاءت عليه الشهادة من الالمان وهو هامد بين الصفائح والتراب !! .

وفى نفس المجال يستوحي الباحث من جرية القصة ومن نص يوسف المستشرق قتيصة سيادة عوامل التفرق عوضا عن الاتحاد ، ويشير الى اشتغالهم بالخساسات كالتى كانت تجري فى معترك تلك الظروف بين « ابن صمادح » وبين « المعتمد بن عباد » الى ما كانوا منصرفين اليه من وقوع بعضهم فى بعض عند يوسف بن تاشفين ، وفى اثناء تلك الظروف الحرجات .

وعند هذا الحد يصل الى النقيصة العظمى وام الخبائث ، وهي
الخيانة ، حيث اكتشف ابن تاشفين ما كان من اتصالات بعضهم بالعدو
وبالذات في ذلك الحين .

وكذلك كان ترتيب هذه النقيصة في آخر القائمة السوداء ، وهي
جريرة المنهاج، وسياق القصة فلا ملام !! .

ومن هنا نشارف فصل تصفية ملوك الطوائف والكائنة على المعتمد
ابن عباد صاحب قضية فقه الباب ، وبه يستوفي الاطار عناصره التي
عرضها الباحث بين يدي القراء ، ثم عمد في الاخير الى تسجيلها كخطوط
لذلك الاطار حسبما نقلناه بحروفه من غير زيادة ولا نقصان .

والذى يفهم مما سمعنا وراينا ، ان ذكره الخطر النصراني بعقب
نقيصتي الفوضى والانقسام مباشرة ، يفهم منه انها كانا السبب دون
سواهما من بقية النقائص التى تناثرت فى فصول كلامه بعد ، والا تعين
ان يصير الى طريقة تتيح تسجيل جميع النقائص التى هي اسباب ،
ثم يعقبها بما تسبب عنها ، وبذلك يكون المنهاج بنجوة من مغبة
ذكر سببين اثنين فقط يعقبهما المسبب ، ثم تاتي بقية الاسباب متناثرة
هنا وهناك .

وحتى اذا اعتبرنا ان جملة النقائص التى ذكرت بعد نقيصتي
الفوضى والانقسام تعود كلها كيفما تعددت وجوها واسماؤها الى هذين
الاصليين ، فالملحظ عليه انه قصر النظر على ما لاحظته من نقائص الملوك،
حتى لكان (بداية الاستيلاء على الاندلس) انما حاقت بالبلاد عقبى لما كانوا
عليه ، وليس لخلائق رعاياهم اي يد لا من قريب ولا من بعيد ، وليس
لمواقفهم تأثير يذكر فى المجال ، نعم قد يصح ان يبيعها رؤساؤها
- ويبيدهم الحل والعقد فى تلك الازمان - ولكن التاريخ يسجل ما هنالك،
وكل شيء حسبما يظهر !!

ثم ان الانقسام والفوضى وتوابعهما ما كانت ظواهر لخلائق ملوك
الرقعة الاسلامية الاندلسية دون ان تكون سمات ملحوظة فى ملوك الرقعة

النصرانية القشتالية وطابعا لتاريخهم المعاصر لمسلمي الجزيرة، ومنذ ايام الغتة المبيرة الكبرى في مطلع القرن الخامس حتى عصر المعتمد بن عباد ، فقد سادت الفتنة في الشمال سيادتها في الجنوب ، فكان الشماليون منغمسين الى الاذقان في حال من الفوضى والانقسام ومن التهاك الطاحن على الحكم بين الاقرباء والجيران من الملوك والامراء ، وعرفت قشتالة وليون حروب السنين الطوال التي اهلكت الحرث والنسل ، وخربت الديار ، وحتى في ظروف معركة الزلاقة ومعترك الاحداث بعدها ، فقد كان الخلاف والصدام مستعربين بين الفونصو السادس ، وبين السيد الكامبيادور صاحب احداث بلنسية التي لا تخفى بحال ، وبين هذا وبين (بيدرو) ملك ارجونة، والامثلة على ذلك كثيرة بل حتى ان بعض مساويء اخرى ظاهرة في تصرفات ملوك الجنوب الاسلامي قد كانت من المساويء التي لم يتورع عن اجتراعها ملوك الشمال المسيحي ، ولنسمها اخف اسمائها وهو ليونة الدين ، فكما كان الامراء المسلمون يوالون النصارى ويستعينون بهم وبمرتزة جنودهم في حرب اخوانهم المسلمين منذ عهد الخليفة سليمان المستعين وعلي ابن حمود، حتى عهد المعتمد وملوك جيله، كذلك نرى ملك ارجونة ((راميرو)) بن ((سانشو)) الاول واحد اخوة ((فيرناندو)) يستعين باصحاب طليطة وسرقسطة ووشقة المسلمين وذلك عند محاولته الاستيلاء على مملكة نبرة ((نافار)) التي كان عليها اخوه الاكبر غارسيا ، واستجار سمييه غارسيا الآخر ملك جليقية والبرتغال واحد اولاد فرناندو الاول ، بالمعتمد بن عباد وذلك عندما قامت الحرب الاهلية بين الاخوة ابناء فيرناندو واستولى اخوه شانشو الثاني على مملكتي بني عمه نبرة ((نافار)) وارجونة ((اراجون)) ، وعلى مملكتي ليون وجليقية من يد اخويه الفونصو (المعروف فيما بعد بالفونصو السادس) و(كارسيا) الذي فر من المعركة ولم يتخرج من الالتجاء عند صديقه ابن عباد ، كما ان الفونصو الذي كان اسر في الحرب مع اخيه قد استطاع ان يفر من اسره ولم ير ملاذا في غير طليطة الاسلامية عند المامون ابن ذي النون .

ويا لله ! هي هي طليطة نفسها التي عاد اليها فاتحا لا لاجئا وعلى عهد القادر حفيد المامون .

والحوادث بين هؤلاء الاخوة ابناء فيرناندو تشبه تمام الشبه الحوادث الدامية التي جرت من جراء تقسيم المملكة ايضا بين المقتدر من بني هود واخوته ، وقد راينا المستعين ابن هود يستعين على اخيه بصديق ابيه وحليفه من قبل السيد الكامبيادور وبمرتقة جيشه ، وكان المنذر اخوه يستعين بسانسو ملك ارجونة ورامون امير برشلونة .

كما نجد لخيانة الكونت جارسيا اردونيز الذي وقف محاربا في صفوف المرابطين شبيها في جانب المسلمين .

ويبدو من تشابه الحوادث والتصرفات ، انها نسخة واحدة لا تفرق الا بالاسماء .

وهكذا نلاحظ حتى ليونة الدين قاسما مشتركا بين المسلمين في الجنوب وبين المسيحيين في الشمال ، مثلما هو الحال بالنسبة الى الانقسام والفوضى على الوجه الذي رأيناه ، فعيوب الجيل كانت في هذه الجزيرة مقسمة بالسوية بين الطرفين !.

فكيف جاز ان ترجح المشيئة الالهية كفة المنقسمين الفوضويين ومن لان دينه في الشمال على كفة المنقسمين الفوضويين ومن لان دينهم في الجنوب ؟ .

افما كان يجوز ان يتجه البحث الى التعمق في فهم الاحداث مع الالتفات الى السوابق منها واللاحق ، فقد تراءى لنا فيها الى جانب الفوضى والانقسام وتوابعهما ، اما نقائص اخرى مما ينسب الى الملوك ، واما نقائص في رعاياهم ، واما امراض مجتمعية غير خاصة بامرائه وملوكه، وانما هي من فصيلة امراض الشعوب رعايا وملوك ؟ .

الانقسام والفوضى وما تفرع عنهما ، ظاهرتان منظورتان مذكورتان في الرواية التاريخية لهذه القضية بحروفهما فلا جدال !!

ولكن الرواية التاريخية شيء ، والبحث فيها بالمنهجية التي سجلها

الاستاذ الجراري في توطنته شيء آخر، فلا مناص فيما يبدو من اضافة خطوط والوان اخرى لنضع امام القاريء الصورة الكاملة لما كانت تتخبط فيه البلاد الاندلسية على عهد ملوك الطوائف واستعلاء الدولة المرابطية .

ولنجعل نصب العين باديء ذي بدء (كما تكونوا يولى عليكم) فهي تهدينا للبحث في اشياء واشياء .

ولا ننسى ما قيل في هذا المقام من ان خفض العيش الذى كان يمرح فيه الاندلسيون في مناطقهم الجنوبية قد افقدهم الاخلاق الحربية ، وطبع عليهم الضعف . فلم يكونوا يستطيعون منازل من ربوا في الشمال على شظف العيش !! فهي من ملحوظات هذا المجال .

ولعل القراء وقد اخذت تنتصب الآن في ذاكرتهم بعض الظواهر وتترى من رصيد معلوماتهم يذكرون ان المنصور بن ابي عامر ، عندما وضع التراتيب العسكرية ، ونظم الرتب للجيش ، وبث الوعي العسكري في البلاد ، لاحظ وهو مجرب الرجال في الزحف والنزال ، عجز اهل الاندلس عن مجاراة همته ، فلما جاء بعضهم يذكرون له ضعفهم عن الصدام والحرب والطعان ، وان غيابهم في الغزوات ، يحيل ارضهم الى موات ، وضع يده في يدهم على ان يتركهم لعمارة ارضهم ، وعليهم ان يعطوا من دخلهم كل عام ، ما يقيم به الاجناد التى تسد مسددهم فى صفوف حماة الاسلام ، ومن ثم كان الكثير من كبار قادة جيشه من فرسان بربر افريقيا، ومن المتطوعين للجهاد واهل السابقة فيه من اهل شرق العدة ، وهم الذين كانوا عدته فى قمع الشرك ، وقص جناح حركة الاسترداد .

وحول قصة استقرار بني زيري بسيط ((البيرة)) اولا، ثم انتقالهم الى بسيط غرناطة واختطاطها على منحدر الجبل ، بعدما كانوا قد عزموا الجواز الى مهادهم الاول بافريقيا عند ظهور بوادر الفتنة اثر انهيار الدولة العامرية . . حول هذه القصة يعرض علينا الامير الزيري فى مذكراته (1) صورة لذلك العجز فيقول : (وكان اهل البيرة فى بسيط من الارض ،

وكان بهم من الفش بعضهم لبعض ما ان الرجل منهم ليتخذ بازاء داره مسجدا وحماما فرارا من جاره ، ولا يرجعون الى طاعة ولا حكم وال ، وكانوا مع هذا من اجبن الناس ، واخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون قتال احد ، ولو كان الذباب ، الا بمن يحميهم وينب عنهم ، فلما بصروا باختطاف سلاطين الاندلس ، وانها اضرمت نارا ، وتوقعوا ان يتخطفهم الناس ، وجهوا الى زاوي (2) المذكور شاكين مما هم فيه ، ويقولون : ان كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا الجهاد أكد عليكم ، أنفس تحيونها ، وعزة تلوون اليها ، ونحن شاركوكم باموالنا وانفسنا ، لكم منا الاموال والسكنى ، ولنا منكم الحماية والذب عنا) .

وعلى عهد الملك عبد العزيز ابن ابي عامر اناخت على بلنسية سرايا الملك فيرناندو ، واستطاعت ان توقع حمايتها في احبولة التظاهر بالانسحاب التقليدية ، واثخنوا فيهم بين بلنسية ومرسية ، ولم ينج ابن ابي عامر الا بفضل جواده السريع الذي يبدو انه متدرب على مثلها في مثل هذه الاحوال وقد سجل ابن عذارى (3) عن هذه الواقعة صفحة رائعة لم ينسبها لاحد ، كما نقل عن ابن بسام ان خبرها لم يقع عليه في كتاب ابن حيان، وهي صفحة تفيض بروح التهكم ، وتشع بلمحات البيان ، وكانت رنات الاسجاع المرصوفة فيها عنصر تائير وروعة ، وآية الاحتفال والاهتمام بتجسيدها على هذا الوجه ظاهرة ، وذلك ما ينم طبعا عن اهتبال بما حصل في الواقعة وانك لتحس انفاسه ترفر تارة وتهمد اخرى تحسرا على حالة الضعف العسكري التي كان من عقباها ما كان في هذه الموقعة .

واضع امام القاريء سطورا منها اسنادا لما نقلته عن صاحب ((التبيان)) واقتطف الكلام من حيث ابتدا العدة في نصب الاحبولة التي قصت لحمة بلنسية الجناح :

((ثم كأيدهم العدو باظهار الاضطراب ، والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الهضاب ، استدراجا لهم واستطرادا ، وجدا في طلب مكروهم واجتهادا ، فماج رعاعهم ، وتنادى بالنفير مهنتهم وصناعهم ، حتى قيل ان مخشين تناديا الى الخروج وقد ايقنا بسبي العلوج ، فهما

يتنازعان المنى ، ويقولان نحن اعلم بفعلات القنى ، وهيهات ، تلك اقصف للظهور ، وهذه اشفى لبعض الصدور ، وخرجا ولا سلاح الا رشا يتجاذبانه ، ثم اصطلحا بعد فافتسماه ، لا يستهيبان ضيق المنهاج ، ولا يشكان فى اقتياد الاعلاج ، وساعد اولئك الرعاع الحائنين اميرهم يومئذ المترف عبد العزيز بن ابي عامر ، فخرج بالخير والنفير والجهم الفقير ، يحسب الطعن كالقيل ، وبطن السيوف كالقل ، ويتخيل صليل الحسام بين القصرتين والهام ، ما كان اتسع له ذرعه ، ومرن عليه سمعه ، من نغم الاوتار وترنم الاطيار ، فلم يرع العدو يومئذ الا خروج اهل بلنسية الاغمار والاغفال ، الى تلك المصارع والاجبال ، يمشين مشي قطا البطاح ، تاود اهيف الخصور ، رواجح الاكفال ، فظفر العدو يومئذ بهم ، اتاهم من ظهورهم ، فحكم السيف فى جمهورهم ، ولم يبق الا من احززه اجله ، وخفي على سهم المنية مقتله) .

وباثر معركة الزلاقة ومعنوية الاندلسيين فى الربيعان ، نهد المعتمد لرد العادية عن لورقة وهي من املاكه فى الشرق ، وكان العدو قد تحرك اليها كدابه قبل الزلاقة حيث كان يستعرض عضلاته فيما بينها وبين المرية ومرسية وبسطة (4) معتمدا على حصن لبيط المنيع بموقعه فوق الجبل داخل التراب الاسلامي بين لورقة ومرسية ، وبما عبا فيه من جند بلغ الف فارس واثني عشر الف راجل ، وقد عمد المعتمد قبل جواز ابن تاشفين الثاني الى الجزيرة لمنازلة الحصن فجهز جيشا جعل على راسه ابنه الراضي ولكن هذا تمارض واطهر التشكي ، فلم تخف على والده ظاهرة التقاعس عن معاناة الحرب ، ففاضبه اياما ثم سرعان ما عطفه الحنو نحوه ، وتلك قصة قصيدة المعتمد الساخرة الشهيرة .

الملك فى طي الدفاتر فتخل عن قود المساكر

وصدق من سماها فردوسا فقد كانت الخساسات والسيئات
تتضائل امام فيوضات الافكار والاذواق !!

وعندها عهد المعتمد الى ابنه المعتد فخرج على راس الجيش الذي يبدو ان والده عقد النصر بكثافته ومعنوياته ، ولكن لم تكن كثرة ولا معنوية عند اللقاء ، ولم يسع الاندلسيين واميرهم الا

القرار ، وكذلك عجز حتى جيش المعتمد عن ملاقاته العدو في لورقة (5) ،
وتلك كانت قصة قصيدة ابنه الرازي التي يقول في مطلعها :

لا يكرثك خطب الحادث الجاري
فما عليك بذاك الخطب من عار

ولما قصد فرناندو الاول منطقة الشجر بغرب الجزيرة ، ودفع بسرية
ثقيلة نحو شنترين الواقعة على نهر التاجو اصاب اهلها الفزع ودهمتهم
الفوضى لولا ان لحق بهم اميرهم المظفر ابن الافطس قبل وصول العدو ،
فهرعوا اليه قائلين : (لقد هممنا ان نستسلم للعدو ، ولو لم تاتنا
لضعفنا عن دفاعه) (6) .

وعولجت النازلة بجزيرة سنوية في مقابل الجلاء عن المدينة .

وفي أحد فصول الرسالة التي وجه بها المعتمد بن عباد جوابا
على رسالة الفونسو ما يلي : (والذي جراك على طلب ما لا تدركه ، قوم
كالحمر ، لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة ، او من وراء جدر) .

وتقول الرواية التاريخية ان الجواسيس جاءت من محطة الفونسو
ليلة الزلافة وانبأت بان ابن ملك النصارى كان يقول لاصحابه : ان ابن
عباد هو مسعر هذه الحرب ، فاقصدوه واهجموا عليه ، فلا ارى ان
ابن عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة .

وليكن هذا صحيحا ، او غير صحيح ، فهو يعبر ولو عند واضعه
عما كان عليه اهل الجنوب في نظره ونظر اهل الشمال .

((ولا يعكر علينا في هذا الذي اشرنا اليه من الضعف العسكري
ما نقل (7) عن الرقيق القيرواني في وصف اهل الاندلس بانهم (اهل
جهاد) فالرقيق لم يعرف من اهل الاندلس الا الاوائل ، عندما كانت
دنيا المسلمين في الجزيرة ما تزال بخير ، ولو انها في معتزك عصر الفتنة
الكبرى المبيرة ، فقد توفي حوالي نهاية العقد الثاني من القرن الخامس

والجيوش الاسلامية ما زالت تعيش يومئذ على رصيد العزة الاسلامية في عهد الخلافة ، وبمعنوية امجادها ، واخبار غزوات المنصور بن ابي عامر ما زالت ملء اسماع الدنيا الاسلامية والمسيحية ، وتثير في قلب الديار الاندلسية الحمية الاسلامية التي لانت ثم انهارت على عهد الاجيال اللاحقة التي عاشت تحت ما يكاد يشبه الى حد بعيد ، نظام الحماية في القرن العشرين ، وذلك على عهد فرناندو الاول وولده الفونسو السادس وهو عصر المعتضد بن عباد وابنه المعتمد .

واحب ان اقول بوجه آخر ان المؤرخ الرقيق عاش في عصر كانت فيه الحروب بين الطرفين ما زالت تأخذ احيانا صبغة الحرب السجال ، فقد نلاحظ مثلا انتصار المقتدر ابن هود ملك سرقسطة على راميرو الاول ملك ارجونة (اراجون) في الحروب التي قامت بينهما وانتهت في الاخير بمصرع راميرو سنة 1063 لما اغار على مدينة وشقة من مدن الثغر الاعلى وعلى نواحيها (8) ولكننا نلاحظ ايضا ان الاخذ بثار الهزيمة ياتي سراعا وبحمية في وضعية حملة صليبية استولت على بر بشت في نفس السنة الموالية ، ويلاحظ ان المؤرخ ابن الكردبوس عندما اشار في تاريخه (9) . الى جملة انتصارات اندلسية ككسر الفارة على ناحية غرناطة على عهد باديس بن حبوس الزيري ، يسجل ذلك بعقب قوله مباشرة (وطال اشتغال الروم بعضهم في بعض) ولسنا نمر بهذه الملحوظة دون ان نفهم منها بكل وضوح ان الطاقة العسكرية الاندلسية ما كانت تعمل عملها الا عندما يكون النصارى منهمكين في حروبهم الداخلية وخلافاتهم المتوالية .

ويعنيانا من مستفاد هذا العرض ما نستشفه من عقابيله خلال مجرى الاحداث ، وبمضي الزمان ، فلم يكن تأثيره على عهد ملوك الطوائف برؤسائه وشعوبه ماديا وحسب وذلك لما فرض عليهم العدو من فادح الجزى ، وما ابتز من ذخائر واعلاق ، او ما كبس من قلاعهم وحصونهم بالتطاول والاستعلاء ، وانما كان له ايضا تأثيره المعنوي على النفوس والاخلاق ، وتجلى اوضح ما كان في استعدادات نشات مع الجيل الصاعد ، وفطرة فطر عليها ، فقبل الدنية في دينه ودنياه وطبع الله على قلبه فحرمه من بواثع المحبة ومن المقومات الانسانية .

وذلك ما سنتعرض الى تفصيل القول في آياته وظواهره ، لنقع على الاسباب المباشرة التي عجلت بالفارقة ، ونضع امام القارئ صورة المجتمع الاندلسي الحقيقية على عهد ملوك الطوائف ، وعندما كان المرابطون ينشئون دولتهم القوية العلمية الاصلاحية .

وعندها ، وحين نعرف على الوجه المذكور سبب الخطر الذي حاق بالاندلس ، نفرغ لتصوير ذلك الخطر في حقيقته الجغرافية والتاريخية التي ازعجت بفداحتها امير المرابطيين للعزم على القيام بحركته الانقاذية .

- يتبع -

الرباط - عبد الرحمن الفاسي

فالى الذبول والتعاليق التالية :

- (1) كتاب التبيان (صحيفة 18) أنقل بكثير من التحفظ والاحتباس عن صاحب الكتاب ، ولا يصح الاعتماد على ما يقوله ما لم يكن معززا بنص من الخارج ، والمقدمة التي وضعها المستشرق الفرنسي بروفانسال لم توف بالتعريف بالكتاب ، ولم تحلله التحليل الذي يحتاج اليه ، وأرجو أن يتاح لي تقديم فصل عنه بعد الفراغ من هذه الذبول .
- (2) زاوي بن زيري هو عم الامير عبد الله صاحب التبيان وكان من قادة الدولة العمارية ومثله ابن أخيه حبوس ابن ماكسن .
- (3) البيان المغرب ج 3 ص 252 .
- (4) البيان المغرب (ج 4 ص 141) بالملحق المنقول من كتاب : الحل الموشية .
- (5) في رواية فلاندي المقيان أن خصمه في لورقة هو المظفر صاحب بطليوس ، وهو الذي تصدى ليحول بينه وبينها والمرجح ما أثبت في الاصل نظرا لموجهات واسباب لا تتصل بمحل الشاهد هنا ، وانظر ترجمة الراضي في الحلة السيرة (ج 2 ص 75) وراجع القصيدين بتمامهما وقصتهما في فلاندي المقيان ط بولاق (ص 31 - 33) .
- (6) البيان المغرب ج 3 ص 238 .
- (7) نفع الطيب ج 1 ص 193 طبع وتحقيق المرحوم محمد محي الدين .
- (8) تاريخ ابن الكردبوس ص 74 .
- (9) ابن الكردبوس بنفس الصحيفة .

مع المبرد في كتابه التيجاني والمراثي

عرض وتعليق : محمد ابن تاووت

هذا الكتاب القيم ، يعتبر تضخيماً لما ورد في اواخر كتاب الكامل ، للمؤلف نفسه ، فهو وان قصد به مناسبة خاصة ، نجمت عن موت صديق المؤلف الحميم ، القاضي اسماعيل بن اسحاق الازدي ، احد اعلام المالكية ، والذي خصص له القاضي عياض في ترتيبه ترجمة وافية لم ينل مثلها منه ، وفيما عدا مالك ، احد من هؤلاء المالكية - الا ان أصله في الكامل ، وحتى المؤلف نفسه نجده يقول :

« كنا ذكرنا اشعاراً من اشعار المتقدمين ، فقلنا نملئها على وجهها ، ثم رجعت الى أنها مجموعة في الكتاب الكامل ، على شرح جميع اعرابها ومعانيها ، فان رجعت ، رجعت معادة ، وهو ما يؤخذ من ثم » .

اذن ، فكان المؤلف سها ، عما ورد في كتابه الكامل ، ثم تذكر ذلك ، ولكنه لم يطل هنا بما ثم ، من شرح واعراب وتبين معنى .

وليس في الواقع ، خاصا بأشعار المتقدمين ، بل في الكامل من اشعار المحدثين المعاصرين ، ما بعضه اكمل مما ورد في هذا الكتاب مثل قصيدة ابراهيم بن المهدي في رثاء ابنه ومثل مرثية عبد الصمد بن المعذل لعمر بن سعيد بن سلم ومثل مرثية العتبي لولده وآخرين كما ان المراثي والتعازي، تناولها معاصرون للمؤلف ، في كتبهم ومجامعهم ، وان لم يخصصوها آنذاك بالتأليف مثل الجاحظ ، في كتابه «البيان والتبيين» ، خاصة ، ومثل ابي تمام في الباب الذي خصصه للمراثي من ديوان حماسه ، ففي هذا كثير من النصوص كما في البيان وزيادة .

وبعد ، نلقي نظرة على صفحات الكتاب ، لنسجل على بعضها ما لاحظناه عليه :

اولا : فيه بعض الشخصيات ، ذكرت غفلا ، كأنها كانت معروفة ، لعصر المؤلف ، ولكنها غمرها الزمان ، فأصبحت في حاجة للتنقيب عنها وهذا ما يجعل الانسان في شك من ضبطها، ضبطا علميا فقد وردت هذه العبارة : « قال أبو الحسن عن أبي بكر عن أبي المليح » .

أبو الحسن ، هذا معروف في الكتاب وفي الكامل ، بأنه المدائني الذي أكثر المؤلف عنه الرواية ، أما أبو بكر وأبو المليح ، فالبحث عنهما متعب، وجزى الله خيرا الجاحظ في بيانه ، وعبد السلام هارون المحقق ، الذي هدانا الى أن أبا بكر اسمه سلمى بن عبد الله أو روح ، وأنه راو عن الحسن وابن سيرين وأبي المليح ، كما هنا ، وان اسم هذا عامر أو زيد أو أسامة بن عمير ، وكلاهما ذكرهما الجاحظ من خطباء هذيل .

وورد في صفحة أخرى عن الاصمعي ، ان معتمر بن سليمان لما مات اخوه حزن فكان يدعو الله ان يراه في المنام ، وأنه لما ذكر ذلك لشعيب بن الحبحاب ، قال له : « ان الحزن ينضو عن ابن آدم كما ينضو صبغ الثوب ، واو بقي على ابن آدم قتله » .

فمن شعيب بن الحبحاب هذا ؟ لقد اجهدت نفسي في التعرف عليه ، فوجدته يتردد في كتاب المصاحف للبستاني ، كأحد رجال الحديث والقراءات ، ثم وجدته مذكورا بقصته ، وفيها اختلاف بسيط ، في كتاب البصائر والذخائر ، لابي حيان التوحيدي ، الا أن محقق الكتاب ابراهيم الكيلاني اثبت مصحفا ، هكذا « الحبحاب » وهذا لا يكفي في التعرف عليه كما نرى .

فهذا مثال من تلك الاعلام التي وردت مجردة ، وحيرتنا في امرها ، اما لكونها كانت مشهورة ففمرت فيما بعد ، واما لكوننا بعيدين عن مجال الرواية والرواة ، وربما كان الامر ان شأنها .

وهناك نوع آخر من الحيرة ازاء اعلام اخرى ، فقد يرد علم في صفحة ، ثم يرد في صفحة اخرى ، مغايرا لما ذكر به لاول الامر ، وربما ذكر مرة ثالثة ، مغايرا لهما معا .

ومثالا لهذا ، نجد رجلا ورد اولا باسم زبآن بن منظور ، ثم ورد باسم وكنية « ابي وهب زبآن بن منظور بن زبآن » ثم ورد باسم « منظور بن سيار » .

فارتبكنا ازاء هذه الاعلام مع الكنية ، هل اصحاب الاعلام اشخاص متعددون ، وهو الظاهر ، ام صاحب الكنية هو صاحب الاعلام كلها ؟ . وبعد استشارة كتب التراجم والانساب والاخبار ، اتضح لنا ، ان ابا وهب انما هو منظور بن زبآن بن سيار ، هو الحسن الذي تزوج ابنته ، فكان منها الحسن ابو عبد الله ، والد ادريس الاكبر . وليس هو زبآن بن منظور ، ولا هو منظور بن سيار ، على ان هذا ابوه ، ولا هو زبآن بن منظور بن زبآن ، بل هو كما قلنا وعرف في التاريخ والانساب ، بأنه ارتد ثم اناب ثم تزوج امرأة ابيه على عهد عمر فامر بطلاقها ، ثم مانع في تزويج ابنته من الحسن ، بعدما قتل زوجها بوقعة الجمل ، ثم رآناه يشاهد عبد الله و ابراهيم والحسن ابناء الحسن المثنى . وربما كان في هذا الاضطراب ، يد للتحريف بالحذف آنا والتقديم والتأخير والزيادة

أحيانا أخرى، ونحن أميل الى هذا التدخل ، بدليل ورود بيت اثر قصة منظور بن سيار ، صحف فيه « بابن عمار » فهذا هو التصحيف بعينه .
ومن قبيل الاعلام ايضا ، نجد فى الكتاب ابا لامراة ، تدعى هائلة ،
باسم منقذ بن سليمان .

فمنقذ معروف فى الانساب القبلية ، ولكن سليمان ، بعيد كل البعد
ان يكون موجودا بهذا الاسم عند العرب وفى عهودهم الساحقة فهذا الاسم
لم يعرف عندهم ، الا بعد مساكنة اليهود اياهم ، وفى يثرب بصفة خاصة ،
حيث وجدنا من بني النجار من الخزرج ، سليمان بن الحرث الذي قتل فى
أحد ، ولا نعرف غيره ممن سمي بهذا الاسم على فجر الاسلام الاول ، ولم
يشع الا بعد أن سمي عبد الملك ابنه به . ونستعرض مثلا اسماء لاجداد
النبي عليه السلام ، فلا نجد منها من اسماء الانبياء لبني اسرائيل ، الا
الياس ، وهذا غريب وربما كان من قبيل الاتفاق ، ومن القواعد المقررة
انه لا يوجد من الاسماء العربية للانبياء الا اربعة ، وهكذا اذا قرأنا قوله
تعالى « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ،
ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحا هدينا
من قبل ، ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ،
وكذلك نجزي المحسنين ، وزكرياء ويحيى وعيسى والياس ، كل من
الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا » فاننا لا نجد ، عدا من
ذكرنا ، على فجر الاسلام ، الا ابراهيم ابن النبي عليه السلام .

قد يقال ، ان اسماعيل ، عرف ابا لاعظم قبيل من العرب ، فكيف
تقول ان العرب لم يتعرفوا على الاسماء العبرية ويستعملوا بعضها الا عندما
ساكنهم اليهود يثرب خاصة ؟.

والجواب بسيط فمعرفة الاسماء شيء والتسمية بها شيء آخر ،
فهذا آدم أبو البشر ، وهذه حواء امهم ، لا نسمي لا باسم الاب ولا باسم
الام فى العربية عامة ، وان كان المسيحيون من الاوربيين خاصة يسمون
بهمسا .

على أن هذا الاسم ، سليمان أبا المنقلد ، ربما يكون واقعا من قبيل
التصحيف ، بدليل أن هائلة أيضا ، تصحفت بهيلة ، وهي هائلة ، كما في
كتاب الاشتقاق لابن دريد ، الذي أبان - كغيره - وجه التسمية بهائلة .
واقطع من هذا أن سليمان أبا المنقلد لم يرد بكتاب نسب عدنان وقحطان
للمؤلف نفسه .

ولا يستغرب مثل هذا التصحيف بالكتاب ، مثلا نجد فيه ما يلي :
« وفزارة بن ذبيان بن بغيض ، وبنو عبس بن بغيض ، فكان عبد الله
وذبيان اخوين . . (ثم قال بعد حرب بعث) فحرب الانصار ، حرب بعث ،
وحرب بعث ابني بغيض حرب داحس » .

فترى في النص أن « عبس » تصحفت بعبد الله ، وأن « عبس
وذبيان » ، حل محلهما أخيرا كلمة « بعث أو انهما لا لزوم لذكرهما بعد
ما نص على كونهما ابني بغيض ، فتكو كلمة « بعث » مقحمة لا محل
لها هناك على كل حال ، ويكون الكلام هكذا : « وحرب ابني بغيض » الخ . .
نترك الاعلام ، وفيها من نحو ما تقدم كثير ، والغالب أنه تصحيف وتحريف ،
ولنتوجه الى غيرها ، مما لا يد لغير المبرد فيه ، منه هذه الرسالة ، التي
عزاها الى النبي عليه السلام ، كاتبا بها الى معاذ بن جبل ومعزيا في ابنة :

من محمد رسول الله ، الى معاذ بن جبل ، سلام عليك ، فاني احمد اليك
الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد : (فان انفسنا واهلينا واموالنا ودائع الله ،
جل ذكره ، وعواريه المستودعة ، يتمتع بها من يشاء ، الى أجل معدود ،
ويقبضها لوقت معلوم ، فأمر بالشكر اذا اعطانا وبالصبر اذا ابتلانا فكان
ابنك من مواهب الله الهنية ومن عواريه المستودعة التي
يتمتع بها من يشاء الى أجل معدود ويقبضها لوقت
معلوم ، وقد متعك الله به في غبطة وسرور ، وقبضه منك
بأجر كبير ، فالصلاة والرحمة والهدى ، يا معاذ ان صبرت واحتسبت
فلا يذهب جزعك اجر ، فتندم على ما فاتك لو قدمت على ثواب مصيبتك؟
قد أَرْضِيتَ ربك ، وتنجزت مواعده ، وعلمت ان المصيبة قد قصرت عنك ،
واعلم ان الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن العزاء ، وتنجز
الموعد ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك) فكان هذه الرسالة لا شك في
وضعها ، ولا نعرف للنبي رسالة من هذا القبيل ، وليس من المعقول أبدا

ان يدعو النبي أحد كتابه ليملي عليه هذه الرسالة ، في أمر خاص لا يابه له المومنون ، وقد غاب عن المؤلف نفسه انه قال « ومن احسن التعمية ابلاغ في ايجاز » ومن احسن من النبي في هذا القول وفي غيره ، وزيادة على هذا كله ، ففي الرسالة من التكرار ما يربأ به النبي عليه السلام ، مثل « عواريه المستودعة يمتع بها من يشاء الى اجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم » فقد تكرر هذا بنصه في الرسالة ، فما احراه ان يكون من واعظ لبليد او متيلد والمبرد قد يقع في مثل هذه النسبة ، فقد يلفيق ، وهو لا يدري ، ابياتا من قصيدتين ، يجعلهما من قصيدة واحدة ، كما حصل منه في هذا البيت :

يا نافعاً من للفوارس احجمت عن شدة مذكرة وطمان

علم الله اني شعرت بنفوري من الشطرة الاخيرة والاولى ، فاتجهت الى البحث واذا بي اجد صاحب الاغاني ، يذكر قصيدتين لنفس الشاعر ، يرثي باحدهما ابنا له وبالاخرى ابنا آخر ، يقول في احدهما راثيا لابنه عامر :

عيني تجود بدمعها الهتان سحا وتبكي فارس الفرسان

يا عام من للخيال لما احجمت عن شدة مرهوبة وطمان

ويقول في اخرى راثيا لابنه نافع :

يا نافعاً من للفوارس احجمت عن فارس يعلو ذرى الاقران

وهي الرواية الصحيحة ، كما عند الاصفهاني في الاغاني ، اخبره بها محمد بن يزيد بن أبي الازهر ، حدثه بذلك الزبير بن بكار الذي حدثه عمر بن ابي بكر الموصلي عن عبد الله بن مصعب عن أبيه ، والاولى ، حدث بها ابن الكلبي عن أبيه ، وصاحب الاغاني في هذا الشأن مقدم على المبرد ، وان كان - كما قال بعض الفضلاء الطيبين - من مصادر

الاصفهانى ، فليس بلام ان يكون الرجل مصدرا فى كل ما قال ولو اخطأ
أو سها .

ومما يتصل بالخطأ فى النسبة ، ما وقع للمبرد ايضا فى كتابه هذا ،
من قصة الوباء الواقع فى العراق ، وتوفى به المغيرة سنة 50 وهو وال
فقد ذكر فى هذه القصة ، ابا موسى الاشعري الذى كان قد مضى على
وفاته سبع او ست سنوات ، وقصة ابي موسى مذكورة بالكامل لابن
الاثير وغيره ، وكانت فى طاعون عمواس بالشام ولم تكن فى طاعون الكوفة
بالعراق ، والمكان الذى صحف بهذه ، انما هو « دابق » قرية بشمال
سورية قرب حلب ، كما يقول ياقوت ، وليس مرج دابق كما يقول ، بعض
الفضلاء الطيبين الآخرين ، فالمرج انما اضيف اليه ، ولا يعقل ان يفر
الناس فى الطواعين الى المروج ، بل الى الاماكن العالية بالجبال ، كما ذكر
المؤرخون فى هذه القصة بالذات .

نكتفى بهذا فى ملاحظتنا على كتاب التعازي ، ونود ان يتنبه الى
الاختلافات الواردة فى نص الاشعار ، عما هي فى غير هذا الكتاب ،
مما تسبب بعضه فى كسر احيانا ، فلا شك ان هذا يتعمله الناسخ ،
لا المبرد رحمه الله .

محمد ابن تاويت

تطوان

إرتسامات حول مهرجان "ستروكا"

علي الصقلي

شرفتني وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فاناظت بي مهمة تمثيل المغرب فى مهرجان ستروكا الدواى الثالث عشر للشعر ، وذلك تلبية للدعوة التى وجهت الى بلدنا فى اطار العلاقات الثقافية القائمة بين المملكة المغربية والجمهورية اليوغسلافية .

ومهرجان ستروكا ، او كما يسمونه احيانا ، الامسيات الشعرية لستروكا ، ينعقد ، عادة ، فى بحبوحة الصيف من كل سنة ، بهذه المدينة الصغيرة ، المظلة على بحيرة او خريد ، فى أقصى جنوب مقدونيا ، فى الحدود الالبانية اليونانية .

ومقدونيا احدى الجمهوريات الست التى يتألف منها الاتحاد الفيدرالى لجمهورية يوغسلافيا الاشتراكية .

تأسس مهرجان ستروكا خلال صيف 1962 ، وظل ينعقد ، منذ ذلك الحين ، كل صيف دون انقطاع . وكانت الغاية من تأسيسه ، وما تزال ، هي تدعيم جانب الشعر وتقويته لدى شعوب الجمهوريات اليوغسلافية ، وخاصة مقدونيا ، وتقريبه من شعر بقية شعوب العالم . او بعبارة اخرى هي اقامة علاقة فكر وصداقة بين الادباء والشعراء اليوغسلافيين والمقدونيين وبين زملائهم في مختلف اقطار المعمور عن طريق الكلمة الشعرية التي قد تعتبر اسمى الوان التعبير بين الناس ، وانقاها واصفاها في دنياهم .

وقد دأب اتحاد الكتاب اليوغسلافيين على مزيد العون لجمعية الادباء المقدونيين المشرفة على تنظيم اعمال المهرجان سنويا منذ تأسيسه .

وقد انتظم لحد الآن في سلك المشاركين من الشعراء ممثلو اكثر شعوب العالم ، شماله وجنوبه ، ابيضه واصفره واسوده ! وهم يشاركون حسب برنامج مضبوط للايام الخمسة او السبعة المحددة - عادة - للمهرجان . ولا يقتصر الامر على تناشد الشعر وتطارحه بين الشعراء خلال المهرجان ، كما قد يتبادر الى الذهن من عنوانه ، بل انه يتجاوز ذلك الى طرح مشاكل الشعر الاساسية ومسائله ، والاستماع الى اهم الدراسات المتعلقة به منذ كان الى الآن ، من مثل : الشعر واللغة ، الشعر بين الاقليمية والعالمية ، الشعر والتجارب المعاصرة ، مستقبل الشعر .. وهي دراسات يهيئها بعض النقاد المدعوين خصيصا لهذا الغرض .

على ان هناك - فيما اعتقد - غاية اخرى لاقامة مهرجان ستروكا غير التي اشرت اليها سلفا ، وهي غاية لا يكاد يستشعرها من المشاركين في المهرجان الا من كان ، مثلي ، ينتمي الى بلد تجاهد لفته الاصلية وتجادل ، وسط خضم من التيارات العادية والمعاكسة ، تحتفظ لنفسها بالحياة ، في تحد لكل الزوابع والاعاصير ، ذلك ان مقدونيا وان كانت احدي الجمهوريات الست ليوغسلافيا ، وان كانت من اصغر هذه

الجمهوريات ان لم تكن اصغرهما، فانها تأبى الا ان تثبث باهم مقومات شخصيتها وكيانها ، وذلك عن طريق الاحتفاظ بلهجتها التي اخذت تعمل - منذ ثلاثة عقود او تزيد - على ان تجعل منها لغة « حية » لها مقومات وخصائص اي لغة حية .

ولعلها بالرغم من هذا الامد القصير قد بلغت في ذلك شأوا بعيدا، حيث أصبحت المقدونية - ضمن حدود الجمهورية الصغيرة - لغة المدرسة في مختلف مراحل التعليم ، ولغة النادي الثقافي والمعهد الفني ، والمتحف التاريخي و .. و .. متجاوزة بذلك البيت والشارع اللذين ظلت طيلة حياتها رهن محبسيهما .

وقد نتصور العراقيين التي واجهت المقدونيين وهم يقتحمون غمرة هذه المحاولة الجريئة التي لا تعدوا ان تكون في نظر البعض ضربا من اليأس ، محاولة خلق كيان لغة لم يسبق لها ان ضربت بسهم في الميدان الحضاري ، ولا كان لها أي اثر فيه ، غير ان ارادة المقدونيين كانت اكبر واقتوى من أية عرقلة ، فرأت المقدونية النور بعد مخاض ، لا شك ، انه شديد ، ثم بدأت مرحلة النمو ، معتمدة على ايمان اهلها بها ، وتفانيهم من اجل تقوية جذورها ، وارساء قواعدها ، وتطويرها بالشكل الذي تصبح معه قادرة على النهوض ، ما امكن ، بأعبائها ، جديرة بتأدية رسالتها . ولم يدخروا لذلك من جهد ، ماديا كان او ادبيا ، طيلة هذه الاعوام الاولى لجهادهم .

ولعله في هذا الصدد بالذات ، تقرر اقامة علاقات مع مختلف الاوساط الفكرية والادبية في انحاء المعمور ، قريبا من مقدونيا او بعيدا عنها ، ولعله ، في هذا الاطار ايضا ، وجد المهرجان الدولي للشعر الذي يستقطب ، عادة ، ادباء وشعراء ونقادا من مختلف انحاء العالم - كما اشرنا فيما قبل - ليعرفوا هذه اللغة وادبها ويعرفوا بهما .

والحق انهم نجحوا كثيرا في هذا الباب ، بدليل انه أصبح لمهرجان ستروكا ، او بالاحرى للادب المقدوني الفتى ، انصار وشعراء في اوربا وامريكا ، همهم ان يترجموا هذا الادب واليه ، وان يعرضوا حصيلة

اعمالهم خلال المهرجان ، بل ذهب بعض الشعراء الاجانب الى حد العكوف على دراسة المقدونية وادبها ، بغية التخصص في هذا اللون من الادب الاوروبي ، لمزيد التعريف به واذاعته مترجماً بين الناس، الامر الذى يحقق اُغلى أمل عن الادباء المقدونيين ، ويساعدهم على انجاز المهمة المنوطة بهم .

اذا عرفنا ذلك ، امكن ان نعرف السر الذى يكمن وراء توفير جميع الاسباب الضرورية وفوق الضرورية لنجاح المهرجان ، وتعاون جميع الفئات ، وعلى رأسها الساط المحلية والحكومية ، لهذه الغاية .

ولذلك فمن العسير وصف مظاهر الابهة التى احيطت بها الامسية الكبرى للشعر بستروكا ، وتعتبر من بين جميع الامسيات - اهم مجمع ومعرض للشعراء ، وحسبى ان اقول ، انها اقيمت ، بمحضر ابرز وجوه مقدونيا ثقافياً وسياسياً وادارياً ، على جسر كبير ، بمحاذاة بحيرة اوخريد ، زود بشبكة كهربائية من المصابيح الخاصة ، اعدت لهذه المناسبة ، لتخلل الأشجار القائمة على ضفتي النهر المتحدر من البحيرة ، فتستحم اشعتها المنعكسة على صفحة النهر مع القوارب الشراعية التى تتهاذى حاملة بما تسمع من اطيب الكلام ، وبما تحمله من عجائب الاحلام !

هذا بينما اصطف الجمهور الحاضر ، او بالاحرى تكدس - لانه كان يعد بالآلاف - عن يمين المنصة وشمالها ، وعلى طول جانبي النهر الممتد امام المنصة .

وشاركت السينما فى هذه الامسية ، فقدمت اُغلى ما لديها من الممثلين والممثلات ، ليتولوا هم قراءة نصوص الاشعار المترجمة الى المقدونية ، حتى يضاعف ذلك من امتاع الجمهور ، بل الجمهورية كلها عن طريق التلفزة الحاضرة ، وحتى يكون ذلك مظهر تقدير لاهمية المهرجان ، ولرسالة الشعر والشعراء .

وخلال هذه الامسية اعيد تقديم الشاعر التركي فاضل حسني

الى الجمهور - وكان قد سبق ، قبل يومين ، منحه جائزة المهرجان السنوية للشعر فى حفل خاص فصفق له كثيرا . وانشده بعض قصائده حول مقدونيا ، علما بأنه من اكبر العاطفين عليها ، فانشدها وكأنه كان يعاقر هذا الجمهور اقداحا من الصهباء وام يكن له بد من الانتشاء بها !

وفى آخر يوم من ايام المهرجان وزع الشعراء المدعوون فى كل انحاء مقدونيا ، جماعات جماعات ، سعيافى اتصال مباشر بينهم وبين عامة الجماهير المثقفة فى كل البلاد المقدونية ، حيث اقيم فى كل ناحية مهرجان محلي كان الشعراء خلاله يتناوبون على القاء قصائدهم ، ويجدون هناك من يتولى قراءة ترجمتها ، وتكون مناسبة للتعارف اولا ، وتبادل الراي حول الشعر وشؤونه ثانيا .

وهكذا كانت مقدونيا بحذافيرها ، فى يوم واحد ، على صلة مباشرة بالشعراء المدعويين تستمتع اليهم ، وتتغنى معهم ، وتحييهم تحية الوداع

بقي ان اقول : ان اختيار ستروكا لتكون مقرا دائما للمهرجان اختيار موفق ، نظرا لان كل ما فيها وما حولها هواء وماء وارض وسماء ، يؤذن بأنها جديرة بأن تكون كعبة للشعراء ، تتردد تحت سمائها انغامهم ، وتزهو فى ظلها احلامهم .

كما احب ان اذكر بطابعها الاسلامي الذى ما يزال قويا ، يتمثل فى مساجدها ذات القباب العالية ، والمآذن الشرقية الرشيقة ، الضاربة فى اجواء الفضاء .

ومع ذلك نتساءل مع شوقي الذى قال منذ اوائل هذا القرن :

مقدونيا ! والمسلمون عشيرة

كيف الخؤولة فيك والاعمام ؟!

تحيّة

من ثم .. من بلد النسرين والاس
ومن خمائل نشوى فى حمى فاس

اتيت ازجي تحايا الشعر عاطرة
أكرم بها ، كالخزامى ، طيب انفاس

قطفتها من عيون الفيد ، ناطقة
بما يكن الحشا من نيل احساس

من خمرة النور فى كأس الصباح ، وقد
تراقص الكون بين الخمر والكاس !

من عطر سوسنة الوادي تهيم به
هناك اشنيات اعراس وأعراس

من الندى فى مآقي الورد دمعتيه
ترقرقت وهو ، فى شوق لها ، حاسي

من النسيم وقد طافت مواكبها
على الرياض فهزت ناكس العراس

من وشوشات نخيلات تنغدها
نسائم الفجر فى عطف وايناس

❁ القى الشاعر هذه القصيدة فى مهرجان « ستروكا »

من خفقة النجم يحنو في مشارفه
على حبيبين باتا في جوى قاس

من لحن قمرية امسى يغازلها
خلف الفمائم ، همسا ، طيف نبراس

— * —

من ثم .. من بلد يشوي بواديه
شعب بغير الهوى لم يحد حاديه

للحب عاش ، ويمضي في مسيرته
بالحب ، تشحذه عزمها اغانيه

ما كان الا اخا رفقت اخوته
على الشعوب ، فسلها ما ترى فيه

ولم ينم قط عن حقد يبيته
الا لمن حام - ظلما - حول ناديه

شعب على الحق والايمان شرعته
قامت ، فمن ذا وذا تزهو امانيه

وليس يصبيه غير الخير منسكبا
كالفيت تحيا البرايا من هواميه

كلا ! ولا شافه غير السلام ، الم
ترفع على اسسه امجاد ماضيه ؟!

مطالعا بالاماني كل يائس
ويائس فاصابيا من اياديه
كالشمس تحب سناها الكون اجمعه
حتى يرى الكون في ابهى مجاليه
كذلك شعبي له الايام قد ظفرت
اكليل حمد سيبقي شذو شاديه



من ثم ... حيث زهت بالاخوة البدار
الى هنا .. حيث روض الفن معطار
تهفو الى سحره الاخاذ افئدة
ما زال يحدو بها شوق واصرار
تستلهم الحسن في ماء وفي شجر
واي حسن ولا ماء واشجار ؟!
وتنشد الفن في فكر وفي كلم
واي فن بلا هذين يختار ؟!
لكن اليس سوى الانسان سرهما
حقا ؟ فمعه وفيه السر ... اسرار !
الفن ومضة الهام ، ووحى هوى
طاغ ، وشعلة فكر ، دونها النار !!

الفن تسيحة ولهى مقدسة
وكم لها ، في حنايا النفس ، اغوار

الفن للمرء معراج تسلقه
لولا ما قدرت للمرء اقدار

والحسن ؟ ما الحسن الا النور مؤتلقا
في النفس مهما خبت في العين انوار

ليزه عالنا في كل منعطف
حسنا وفنا فتصفو فيه اقدار

على الصقلي

ستروكا

ما بعد التيه

ديوان شعر . مؤلفه حسن محمد الطربيق 15 x 17
سم . 116 صفحة . مطبعة كريماديس - العرائش
1974 . تقديم علال الفاسي .

اشكر لصديقي الاستاذ الصباغ تفضله باطلاعي على ديوان الشاعر
حسن الطربيق الجديد « ما بعد التيه » كما اشكر له انه اقترح علي ابداء
راي فيه .

وقد اقبلت - وانا المولع بقراءة ما تجود به قرائح شعرائنا - على
الديوان اقبال المفتبط المشوق ، فما كدت اتركه من يدي حتى آتيت
على آخر ما احتواه من قصائد ومقطعات تبلغ تسعا واربعين ، تتميز
جلها بقصر النفس .

واستطيع القول بأن الشعور الذي ساورني بعد الانتهاء من قراءة
الديوان انه ديوان « مخضرم » يمتاز بتعدد ألوانه ، وتنوع آفاقه ،

واختلاف مناحيه . فكما يتنوع مضامين واغراضا ، يختلف لغة
واسلوبا ، كما يتلون طرائق واشكالا ، فالشاعر - احيانا - سابح في اجواء
فلسفية ، وتأملات ذاتية شخصية ، فهو لذلك ، هاديء مطمئن ، مؤثر
للمرئ ، بعيد الاشارة ، مقتضب العبارة :

ترك النور مشرقا ومضى يـبـحث عن فجره وراء سرابه
يقطع البحر وحده لا رفيق معه غير كالح من ضبابه
وينادي وما هناك على الشا طيء نور يريه بعض شعابه

وهو ، احيانا ، ناغم على الحياة ، متبرم بها ، يراها مصدر الالام ،
ومنبع الاوجاع ، فهو لذلك ، ثائر غضوب ، مشائم متمرد :

انا الرافض الواجف اليوم ما عرفت سوى الليل مؤتمنا
انا ما عرفت سوى امل له كالح الرزء قد كفنا
على فقده الدمع قد هتنا واضنى الجوى القلب والبدنا
ولم احسن قى الليل الا الضنا كؤوسا والا الاسى والونى
ويقول من قصيدة اخرى :

لله ما اتعس الدنيا! وقد رحلت عنها ، بلا عودة ، كل العصافير
كل المنى أصبحت اصدااء اغنية منسية ، ليس فيها اي تأثير !
ما فى مداها سوى ليل يواكبها ولا سوى موطن باليتم مقمور

وقد يدفعه تبرمه الى ايثار الانعزال والانطواء على النفس :

امشي وحيدا فى الجبا هل والظلام بلا دليل
اطوي القفار واعبر الـ دنيا ولا اشفى غليلي

واظل اقطع فى مسيرى كل درب او مسيرى
وتأبى ثورته الا ان تحتدم اكثر فاكثر حين يتحدث عنى :
كانوا اذا قام للهيجاء معشرهم يفجرون دم الاعداء ودياننا

اولئك الذين صنعوا امجادنا فى « وادي المخازن » ، ويصنعونها
تلبية لنداء الصحراء ، متطلعين الى ان يكونوا جميعا مثال « الفدائي » .

والطريق ، فى اكثر الاحيان ، ملتزم هادف ، بل شديد الالتزام ،
لاسيما فى وطنياته التى تصطبغ كلها بصبغة دينية عربية ، واضحة
السمات ، بارزة الملامح ، وقصائده فى هذا الباب كثيرة ، تملأ حيزا كبيرا
من الديوان ، كما تشهد بذلك القصائد التى اشرت الى عناوينها قبل .
وقد تجده بعيدا عن كل قيد ، متحالا من كل رباط لا يعنيه الا ان يسرح
« مع البحر » فى ابعد الافاق .

يا بحر انت انا ، كلنا واحد ، ما غاب منى فيك منطرحا اراه !

وهو ، من جهة ، شاعر محافظ ، لكن فى ادنى درجات
المحافظة ، لغة واسلوبا ، مع اختلاف بين الرقة والسهولة ، وبين
الجزالة والقوة ، حسبما يقتضيه الحال .

تسمعه يقول :

الايك عبر الفضاء الفسيح شهابا وراء السحاب يسبح
الايك فى الليل خاطرة تعيد الى الميت كف المسيح

فتتمثل مع الشاعر ملكا فى حضن السماء ، تلفه ابراد السحاب ،

او قوة هائلة تضارع قوة المسيح فى احياء الموتى !

ويقول :

عاد الربيع فلا دنيا تماثله ورددت فرحة اللقيا عنادله

والارض قد لبست من وشيه حللا خضراء ، وانتشرت فيها خمائله
فتحيا مع الشاعر لحظة ابتسام الارض بعد طول عبوس ، على
صدى اناشيد العنادل ، فى اكناف الخمائل .

وتسمعه من جهة اخرى ينشد :

تمضي القرون ولا تفنى مزاياها اشعة المجد لاحت من سراياها
هي القلوب تسامى من منابعها حب، ففاضت به دفئا وتحاياها
فاذا ببوق من الماضي الفابر يدق بعنف فى اذنك ، متقدما
مواكب سراياها التى انطلقت تصنع الامجاد لهذا البلد العظيم ..

وكما نرى الطريق نائرا على الحياة وقيودها ، راغبا فى تجاوز
مقاييسها وحدودها نراه نائرا على المألوف من قوالب الشعر العربي
وأشكاله ، وبذلك يأبى هذه المرة فيما يظهر ! الا ان يكون
مع المجددين ، بل الملحقين فى التجديد ، وهنا نضطر للتوقف قليلا
لنرى - متأملين - الوجه الآخر للطريق ، ولنستشعر هذا البون الشاسع
بين لفته المتأنية ، واسلوبه المشرق الديباجة ، الحلو الجرس ، القريب
القصد ، من خلال شعره « المحافظ » ، وبين لفته واسلوبه من خلال
تجربته خارج اطار الاصاله الشعرية ، وبعيدا عن قواعد العمودية
الاصيلة ، هذه التجربة التى يظهر انه كان لها اثر العدوى عند الشاعر ،
فقد حملته - دون ان يفطن - على اثارة قلق الخليل بن احمد حتى فى
بعض قصائده العمودية .

ولست هنا بصدد دراسة وافية لمحتويات الديوان ، حتى اتناول
بالتحليل والمقارنة عمل الطريق فى كلا الاتجاهين الشعريين من خلال
ديوانه ، غير انى استطيع - مع ذلك - ان اؤكد له انه يفتقد كثيرا من
ميزاته ، كشاعر موهوب ، حين يلجأ الى هذا اللون من الشعر الحر ،
الذى يتلاشى فى اطاره - بادىء ذي بدء - الايقاع الموسيقى السليم ،

الذى لا غنى عنه لشعبنا العربي مهما ادعى متزعمو هذا الاتجاه توافره
فيه .

ولعل السيد الطريقى نفسه يستشعر ذلك ، على الاقل بالقياس
اليه ، بل يكاد ينكره ، ولذلك لا نجد له من نماذج « حرة » فى ديوانه
الجديد الا اربع قصائد من اصل تسع واربعين !! ولربما كان ذلك ما
حمل الرئيس الراحل الاستاذ علال الفاسي قدس الله سره على القول ،
فى مقدمة الديوان ، بأن « السيد الطريقى ما يزال يدافع عن الطريقة
العمودية حتى اليوم » ، وانه لا يرضى بغير الشعر العمودي بديلا « وان
اعترف له بأنه « يؤمن بضرورة تعايشه مع الشعر الحر » .

ولربما كان ذلك ايضا ما حمل الاستاذ عبد الله كنون على ان يشني
عليه بـ « التزامه بأدبنا الخالد من غير مبالاة بالاصوات المبحوحة التى
تتنادى بالتنكر لماضينا المجيد ، وحرطنا العتيد ، نزوعا الى الجديد والتجديد
فيما تزعم » .

لا اريد ان اسأل السيد الطريقى : كيف أثبت فى ديوانه راي
الاستاذين الفاضلين فيه كشاعر محافظ يعتز بمحافظته ، ثم اثبت
فى نفس الديوان ايضا ما ينم عن نزوعه الى الاتجاه المعاكس تماما ، وانما
اريد ان أؤكد - من جهتي - ان قضية الشعر الحر ، مهما طال حولها
الجدل ، وتقارع الفرقاء فيها الحجة بالحجة - هي قضية ذوق قبل كل
شيء ، والاذواق لا تناقش كما يقول التعبير الفرنسي ، ولذلك فمناقشتي
للسيد الطريقى فى هذا الباب تقوم على مجرد اعتبار كونه حمل نفسه
حملا على ان يحشر فى زمرة « الاحرار » ، دون ان يكون - حسب
شهادة عارفيه ومقرظيه - من الذين يميلون الى اتجاههم كل الميل .

على اني أهنيء الشاعر الطريقى على حسن استمداده ليخلق
احيانا فى ابعاد الافاق على اجنحة من الخيال الملهم ، الشيء الذى يعده
بميزيد من الاشعاع فى مستقبل الايام ، وذلك ، عندي ، احد معاني التجديد
الحق ، فاذا اضيفت اليه لغة منتقاة ، وسلامة فى الحس ، ورهافة فى

الذوق ، وخصب في التجربة، وسعة في الافق ، فقد تجمعت حينئذ
اهم الاسباب ليكون الشاعر مالكا زمام القول في اسمى درجاته ، وابعد
مداه .

ولعل الاخ الطرييق بالغ هذه الفاية باذن الله ، طالما هو عازم على
المضي بحزم واصرار في طريق اخصاب تجربته الشعرية ، التي يظهر جليا
انها تفنى وتختمر يوما بعد يوم ، كما يشهد لها بذلك ديوانه « ما بعد
التيه » .

على الصقلي

الرباط

الأدب والثقافة

كتاب للأستاذ محمد أبا حنيني

يقوم وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأديب الكبير السيد الحاج محمد أبا حنيني بمراجعة الأبحاث والدراسات والمحاضرات التي سبق نشرها في مختلف المجالات والجرائد المغربية كـ : « رسالة المغرب » و « العلم » و « الوداد » و « السعادة » وغيرها ، وأنيع بعضها في إذاعة المغرب ، خلال الثلاثينات والأربعينات ، وذلك بقصد إصدارها في كتاب .

وكما هو معلوم ، فالأستاذ أبا حنيني يعتبر رائد مدرسة أدبية أصيلة تمتاز بالعراقة المغربية الأندلسية ، والرؤية الشعرية المكيّنة في عالم خاص متميز بطبعه الإبداع والإشراق وجزالة ديباجة .

ومن الأكيد ان المعجبين بادب الاستاذ ابا حنيني سيستهجون بصدور هذا الكتاب الذي يضم نوعا فريدا من الادب ، كلما مر عليه الزمن زاده اشراقا وجدة . ومن المنتظر ان يصدر الكتاب عن احدى دور النشر المغربية.

الأسبوع الثقافي العربي بألمانيا

بتنسيق بين مكتب الاعلام في الجامعة العربية والناشر الالماني السيد « اردمان » نظم اسبوع ثقافي عربي بمدينة « توبنجن » الجامعية من 9 الى 15 شتنبر المنصرم يهدف الى التعريف بالوطن العربي وقضيته العادلة ، وباهتماماته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية من خلال ندوات ومحاضرات وعروض سينمائية وموسيقية ، قدمها جامعيون ومفكرون وصحفيون لمختلف البلاد العربية الى جانب المستشرقين الالمان .

ودشن أروقة معروضات الاسبوع الثقافي الامين العام لجامعة الدول العربية السيد محمود رياض بحضور رئيس الحكومة المحلية والناشر السيد « هورست اردمان » والسفراء العرب .

وقد اختصت كل دولة بجناح يعكس تراثها الحضاري وخطواتها الانمائية بالاضافة الى جناح خاص أعده مكتب الاعلام في الجامعة العربية يعطي أضواء عن الحضارات العربية .

وانطلاقا من حرص المغرب على أن يكون دائم الحضور في المهرجانات الثقافية المختلفة فقد أبت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الا أن تشارك في مهرجان « توبنجن » بعرض نماذج من التراث المغربي الأصيل .

وتميز الجناح المغربي بتنوع معروضاته ، حيث شمل نفائس من تراثنا المخطوط مثل المصحف الموحدي والعصر المريني الى جانب أنماط من ابتكارات صانعنا التقليدي ممثلة بالطرز على الجلد والنسيج والنقش والتطعيم على الخشب والنحاس الخ ...

ونال الرواق المغربي اعجاب المواطن الالماني متمثلا في حرصه الملح

على اقتناء منتوجات الصناعة التقليدية ، ووقوفه طويلا أمام مخطوطاتنا والاستفسارات والايضاحات عن بلادنا وابداء الرغبة في زيارتها .
كما ان الجوق الأندلسي اضاف في أسلوبه الأصيل في الاداء ومظهره المتميز ابلغ الاثر واصدق الاعجاب . ❁

معارض موسمية بوزارة الثقافة

توالي وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اقامة معارض موسمية بيهوها ، فقد نظمت معرضين أولهما : حول الخزف المغربي . والثاني حول الآلات الموسيقية المغربية . وقد سجل المعرضان نجاحا كبيرا واقبالا حافلا ، في انتظار ان تقيم الوزارة معارض موسمية اخرى .

مهرجان " ستروكا " الدولي للشعر

انعقد المهرجان الدولي الثالث عشر للشعر كما جرت العادة بمدينة « ستروكا » المطلة على بحيرة اوكرين الجميلة الواقعة في اقصى جنوب مقدونيا احدى الجمهوريات الست لدولة الاتحاد الاشتراكي اليوغسلافي ، فيما بين 22 الى 27 من شهر غشت المنصرم ، بحضور أكبر عدد من الشعراء ، الذين يمثلون اوريا بجميع اقطارها دون استثناء ، كما يمثلون القارات الأخرى تمثيلا متفاوتا ، تأتي القارة السمراء في أدنى درجاته .
وقد مثل المغرب في هذا المهرجان الشاعر علي الصقلي الذي عينته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية لحضوره . ويوجد ضمن هذا العدد مقال ضمنه الاستاذ الصقلي ارتساماته عن هذا المهرجان .

جولات في مغرب أمس

صدر في الأيام الأخيرة الجزء الثاني من كتاب « جولات في مغرب أمس » للأستاذ عبد المجيد بن جلون ، وقد صدر الجزء الأول منه منذ شهور، ويقول المؤلف في مقدمة هذا الكتاب : « تستند هذه السلسلة ... الى أربعة من

الكتب حتى الآن وضع اولها طبيب انجليزي هو « ارثرليرد » الذي زار المغرب سنة 1901 ، ووضعت ثانيهما كاتبة انجليزية زارته سنة 1901 ، وثالثهما من وضع كاتب امريكي عمل في قنصلية الولايات المتحدة بطنجة خلال السنوات التي سبقت فرض الحماية على البلاد هو « جورج ادمولد هولت » ، واخيرا وضع رابعها « سكوت لوكندر » وهو كاتب انجليزي زار المغرب بعد فرض الحماية عليه ، ايام كان المارشال « ليوطي » مقيما عاما لفرنسا بالمغرب في اعقاب الحرب العالمية الاولى .

ويضيف المؤلف : « والاسلوب الذي عالجت به هذه الكتب ليس ترجمة ولا تلخيصا ولا تقديما ، ولا نقدا ولا تحليلا ، ولكنه مزيج من ذلك كله على نحو يتلاءم مع القارئ المغربي في الربع الاخير من القرن العشرين » .

والحقيقة ان الاستاذ عبد المجيد اعطى في هذا الكتاب من فكره وثقافته واطلاعه الجهد الكثير ، باسلوب مشرق اخاذ بعيد عن الترجمة والحرفية في النقل والسرد والاقتفاء . مما اكسب الكتاب متعة وانسيابا قصصيا في الاحداث التاريخية والاجتماعية التي مر بها المغرب آنذاك . فقد وفق المؤلف توفيقا بعيدا في اخراج هذا الكتاب على هذا النحو المرضي الذي يستحق عليه التهنئة ، الى كونه يعد مرجعا مهما ومفيدا لبعض عهود تاريخ بلادنا .

ومن المنتظر ان يصدر في نفس السلسلة الجزء الثالث عن « المغرب قبيل الحماية » والجزء الرابع عن « المغرب بعد الحماية » . نرجو للسلسلة كامل التوفيق ، وللمؤلفها دوام النجاح والتقدم .

قصص للأطفال لمحمد الصباغ

اتفقت « دار الكتاب اللبناني » ببيروت مع السيد محمد الصباغ على طبع « سلسلة قصص للأطفال بسمة » وتتضمن هذه السلسلة عشرين

قصص ، ستصدر كل قصة منها مطبوعة على حدة ومزينة بكثير من الصور الطفولية ، ومن المنتظر أن تصدر هذه السلسلة في أواخر شهر نوفمبر المقبل .

كما ستصدر في هذا الشهر عن « دار الكتاب » بالدار البيضاء لنفس المؤلف قصة طفولة بعنوان : « عندلة » وقد سبق لهذه القصة أن نشرت مسلسلة في جريدة العلم خلال سنة 1968 .

رسالة إلى كتاب مجلة « المناهل »

بعث وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأستاذ السيد الحاج محمد أبا حنيني برسالة الى نخبة من الكتاب المغاربة يدعوهم فيها للمساهمة بالكتابة في مجلة « المناهل » .

وكان للرسالة الوزيرية صدى اعجاب ، لما امتازت به من رقة في التعبير ، وبلاغة في المعنى . وقد ألح علينا بعض كتاب مجلة « المناهل » أن ننشر مقتطفات منها ، تعميما لطرافتها في الاوساط الأدبية .

وهذه مقتطفات منها :

« . . . تعتزم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اصدار مجلة دورية بعنوان « المناهل » ، تأمل أن تكون صفحاتها مستقرا للابتكار والانتفاع ، وتود الوزارة اقوى ما تكون الودادة ، أن تتحقق المقاصد من الابداع والبحث ، والدرس والتقويم والتثقيف ، والأخذ والعطاء ، والنفع اصدارها والغايات بالتقاء الشباب والكهول ، الشعراء والكتاب والباحثين والدارسين والاساتذة والطلبة واشترآكهم بأحسن ما تجود به القرائح في اعداد « المناهل » ، اعدادا يتيسر معه وضعها بين أيدي القراء في شكل يخلق الترغيب والتشويق .

وان أبعد ما تطمح اليه الوزارة ان تصبح المجلة أداة تؤدي خير اداء ، الرسالة التي تدعو الى اصدارها ، ومصدرا من مصادر المعرفة يعرف احسن ما يكون التعريف ، بإبداع المبدعين من الشعراء ، وابتكار المبتكرين من الكتاب ، وعلم الفطاحل من العلماء .

والوزارة حريصة بعد هذا كله ، على ان تتوالى أعداد المجلة دائبة الحضور ، متصلة الظهور ، بين مختلف مصادر العرفان ، وموارد الثقافة ، متنسمة من المستويات ما يقوم برهاننا على غزارة المواهب والملكات ، ونفاسة عصارة الأفئدة والعقول .

واذا كان حرص الوزارة على ان يتداول باتصال واسترسال مجلة « المناهل » ظمأ المرغدين الى العطاء ، وظمأ الصادين الى الارتواء ، فان الأمل وطيد ان تتوافر لهذه المجلة بالاستيقاق المتبادل بين الكتاب والقراء ، اسباب النباهة ، واسباب انتشار الصيت ، واسباب البقاء .

وانطلاقا من هذه الرغائب والآمال ، ومما صح عندي لديكم من ضلعة وكفاية واقتدار على التبصر والتنوير ، فاني أرجو ان تسهموا بحظكم المرموق في اخراج مجلة الوزارة من حيز التفكير الى حيز التحقيق ، واشباع نهم المتطلعين الى آثاركم ما تيسر لكم مد صفحاتها بوافر انتاجكم ومستطابه ... »

فترة استراحة

من بين التقاليد التي يختص بها العمل المسرحي ان كل البرنامج تشتمل على (بياض) يأخذ من مدة العروض نسبة تتراوح ما بين عشر دقائق وربيع الساعة ، يتمكن خلالها الممثل من العودة الى نقطة الصفر ، ويستغلها الفني لمراقبة التقنيات ، بينما يغتنم الجمهور الفترة ليربح فكره ونظره ويسبح بخياله في ربوع ما شاهده من المسرحية .

واذا كانت الاستراحة بين فصلين تستغرق بضعة دقائق، فمن الطبيعي ان تأخذ الاستراحة بين موسمين — بناء على قاعدة النسبية — اسابيع

يرتاح طوالها رجال المسرح ويستنشقون نقاوة الصيف ليعودوا في مطلع الموسم الجديد الى خوض المعركة الفنية بدم جديد .

الا ان اسرة الفن بالمغرب لم تعمل بهذه العادة هذه السنة ، وكان افرادها من موسيقيين ومسرحيين ورسامين ، ادركوا الفراغ الذي يخلقه في الاقاليم توقفهم في عطلة الصيف ، لاسيما والجماهير تتفرغ للراحة والتجول في ربوع البلاد لتتقات من افنانها وكنوزها .

وهكذا ، وبايعاز من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، شرع فنانونا في اعداد وتحقيق برامج مسرحية وموسيقية تناسب موسم الصيف وتتلون بجوه في اسلوبها وتركيبها .

وقد كان اقبال الجماهير واستحسانها للعروض في المستوى المناسب، ففي عيد الشباب وتخليدا للذكرى ميلاد عاهلنا المفدى ، قدم مسرح محمد الخامس سلسلة من السهرات اشتملت برامجها على مسرحيتين ، الاولى بعنوان « النشبة » والثانية بعنوان « درهم الحلال » ، كما تضمنت عروضاً للبالاي ومنوعات للتسلية قدمتها فرق من الاتحاد السوفيتي ومن فرنسا

وفي شهر غشت حيث تحتفل طفولتنا بعيدها الذي يصادف عيد ميلاد سمو ولي العهد ، اعدت مجموعة « صندوق العجب » مسرحية ترويية للأطفال بعنوان « مدينة الالعاب » .

وقد صادفت المسرحية نجاحا كبيرا واستحسن الاطفال شكلها ومضمونها . ومن جهة اخرى فقد استقبل مسرحنا الوطني فرقة اجنبية مختصة في مسرح الاطفال ، حلت بالمغرب لنفس المناسبة حيث قدمت عروضاً شيقة بالرباط والجديدة وخريبكة لفائدة أبناء عمال الفوسفاط .

وتلبية للرغبة التي عبر عنها المسؤولون في مختلف الاقاليم قامت مجموعة من الموسيقيين والمطربين بمرافقة فرقة « الملح » في جولاتها عبر

المملكة ببرنامج « أضواء المدينة » الذي أقبل عليه المواطنون وأعجبوا به
أيما إعجاب .

واستمرت الحفلات الفنية حيث شملت كل المدن طيلة الموسم الصيفي،
الشيء الذي استحسنه المواطنون وصفقوا بحرارة لهذه المبادرة التي
أظهرت بكيفية واضحة أن الجمهور المغربي يلعب دوره كجمهور واع في
موسم الصيف ويرحب بالحفلات بحماس يفوق حماسه في فصل الشتاء .
وهذه المظاهرة تجعلنا نفكر في إعادة النظر في تحديد الفترة الزمنية للموسم
المسرحي ، والتخلي عن المفهوم الغربي للموسم .

كتاب الورد في الآداب الإنسانية لمصطفى القصري

يوجد الآن تحت الطبع بـ « الدار التونسية للنشر » كتاب جديد من
تأليف الأستاذ مصطفى القصري بعنوان « الورد في الآداب الإنسانية » يقع
في 400 صفحة تقريبا .

وبما أن موضوع الكتاب طريف وثيق وجديد في موضوعه ، فقد
أحببنا في هذا الباب أن نعطي للقارئ عرضا موجزا عنه قبل صدوره .

ويشتمل الكتاب على أربعة أجزاء .

الجزء الأول : بحث علمي وفني وتاريخي

الجزء الثاني : الورد في الأدب الفارسي

الجزء الثالث : الورد في الأدب المغربي

الجزء الرابع : الورد في الأدب العربي

(1) أما الجزء الأول فيحتوي على الفصول التالية :

بحث تاريخي يحاول استكشاف الورد الأولى من خلال ما ذكره العلماء والمؤرخون اليونان والرومان فقد اثبت التاريخ أن الورد بصفة مؤكدة عرفت منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

وهذا الفصل يكون بحثا تاريخيا يكاد يكون شاملا لما ذكره الأقدمون عن منابت الورد الأولى في الأرض .

ويتطرق الفصل الثاني الى ما ذكره الأدباء والشعراء الأقدمون عن الورد في أساطير الحضارات القديمة من يونانية ورومانية وشرقية .

ويليه الفصل الثالث وهو خاص بذكر الورد في الأدب والتاريخ اليوناني والروماني وما جاء في وصفها عند شعراء وكتاب وأدباء كبار

وهناك فصل آخر يستعرض فيه المؤلف ما ذكره الأقدمون في منافع الورد والعلاج به عند اليونان والرومان والعرب .

كما أن هناك فصلا شيقا أورد فيه المؤلف ما جاء عن الورد في تعبير المنام ، خصوصا ما ذكره خليل بن شاهين الظاهري في كتابه « الإشارات في علم العبارات » وما أوردته عبد الغني بن اسماعيل الشهير بابن النابلسي في كتابه « تعطير الأنام في تعبير المنام » ويختتم الجزء الأول بفصل شيق كذلك أورد فيه المؤلف ما جاء عن الورد في قصص ألف ليلة وليلة .

(2) أما الجزء الثاني « الورد في الأدب الفارسي » فهو مقسم الى دراسة عن الورد في الأدب الفارسي ومغازيه وأبعاده وما أوحى للشعر من معاني الجمال ، والى مقطوعات لمختلف شعراء الفرس مرتبة حسب مواضيع معينة كالربيع والجمال ، والبلبل ، والوردة ، والورد في الشعر الصوفي والأمثال والعبر والحكم .

وقد ترجم المؤلف بنفسه عن الفرنسية — الا النادر — ما جاء عن الورد في الأدب الفارسي الى اللغة العربية .

(3) وقد خصص المؤلف الجزء الثالث من الورد في الآداب الغربية فترجم بنفسه الى العربية أشعارا ومقطوعات وقصائد كاملة عن الادب الفرنسي والانجليزي والاسباني والالمانى .

(4) ويأتى الجزء الرابع ليتوج كل ما سبق في فصول عديدة متنوعة عن الورد في الادب العربي وقد استهله المؤلف ببحث استوفى الموضوع من حيث اللغة ، فأورد ما ذكره علماء اللغة العرب ، وما جاء في أمهات الكتب عن أصل الكلمة ومفهومها .

ثم أورد المؤلف بحثا آخر عن ذكر الورد في القرآن والحديث ، وما ذكره المفسرون وأهل السنة ، ثم يأتى بعد ذلك مقدمة للورد في الادب العربي ، يذكر فيها المؤلف عناية العرب بالورد ، ويحلل من خلال الادب العربي ، مختلف الأبعاد التي تتبين من خلال الانتاج الادبي العربي منذ ذكر الورد لأول مرة في هذا الادب على لسان عمر بن أبي ربيعة المخزومي الى ابتداء عصر الانحطاط .

وهذا الجزء الرابع قسمه المؤلف الى أبواب عديدة أورد فيها حصيلة من الانتاج العربي في عصوره الزاهرة (أبو نواس ، عبد الله بن المعتز ، ابن الرومي ، علي بن الجهم ، ابن زيدون ، ابن خفاجة ، ابن حمديس ، القاضي الفاضل ، وغيرهم كثير) .

وهذه الحصيلة واردة في الكتاب حسب مواضيع عدة قد يطول سردها فهنا مثلا باب في حسن التشبيهات وباب في بدائع البديهيّات ، وباب في الديارات ، وباب في مجالس اللهو والمنادمة ، وباب في المدح ، وباب في المعركة الأدبية التي قامت بين خصوم الورد وأنصارها والتي شنّها الشاعر ابن الرومي في بيتين طائيين ، وفي مقطوعة دالية يتهم فيها مقارن الخدود (الورد) بالعين (النرجس) بالذوق الفاسد ونورد هنا المقطوعة الصوفية السامية في بساطتها والتي أنشأها الشاعر التركي يونس أمري (من القرن الثالث عشر الميلادي) وقد ترجمها الى العربية المؤلف عن نص فرنسي

انهار الفردوس هذه .
تجري مسبحة بحمد الله
والبلبل يرتل ترنيماته المرسلة
التي يسمع فيها المؤمن ...
صوت الله
الفصون في الجنة
تهمس باسم الله .
والوردة لا تبخل بأريجها :
انها تنشر اسم الله

الجواهري في سهرة شعرية

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية سهرة شعرية بمسرح محمد الخامس ، ألقى فيها الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري قصيدتين رائعتين هما : « تحية » و « الصحراء في فجرها الموعود » .

وقد شارك الجوق السيمفوني للمعهد بمقطوعتين افتتح بهما السهرة، أولاهما للموسيقي الايطالي « روسيني » بعنوان « افتتاحية » ، والثانية « الأطلس » لمصطفى بنيس .

وكانت ترنيمات الناي تتخلل الانشاد الشعري ، كما كانت تعرض الصور الثابتة عن الصحراء المغربية وأوجه حياتها ومظاهرها الاجتماعية ، أثناء انشاد قصيدة « الصحراء » .

حضر هذا المهرجان الشعري وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأستاذ السيد الحاج محمد أبا حنيني ، بالإضافة الى بعض الوزراء الآخرين، والسلك الدبلوماسي العربي ، والملحقين الثقافيين والصحفيين ، وقد فصت

قاعة محمد الخامس على سعتها بجمهور غفير من رجالات الأدب والفكر والثقافة والصحافة .

وقد سجلت هذه السهرة الانشادية نجاحا كبيرا ، وكان لها صدى بعيد في المحافل الثقافية والأدبية ، وتلقى وزير الدولة في الثقافة عديدا من التهاني بنجاح هذه السهرة التي افتتحت بها الوزارة نشاطها السنوي .

الملتقى الرابع للآثار والمباني التاريخية والمتاحف

تلبية للدعوة التي وجهها السيد وزير الاعلام والثقافة بالجزائر ، الى السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية لايفاد وفد يمثل المغرب في الملتقى الرابع للآثار والمتاحف والمصالح التاريخية ، الذي عقد بمدينة تلمسان فيما بين 2 و 9 شتمبر ، عين السيد وزير الثقافة وفدا لتمثيل المغرب في هذا الملتقى يتركب من السادة :

أحمد الصفريوي ، نعيمة الخطيب ، جودية حصار . وقد شارك هذا الوفد في الملتقى المذكور الى جانب مؤتمرين من أقطار المغرب العربي الثلاثة . وكان موضوع المؤتمر ينحصر في دراسات ما يلي :

- 1 — مشاكل ترميم المدن المغربية .
- 2 — مساهمة البحث الأثري في معرفة التاريخ المغربي
- 3 — العملة الإسلامية .
- 4 — الدور التربوي للمتاحف .
- 5 — متطلبات الحياة العصرية والقيم التقليدية .

وخلال هذا اللقاء عقدت ندوة صحفية تحدث فيها رؤساء الوفود عن فعالية عقد مثل هذه اللقاءات والآثار المتوخاة منها للتعريف بوضعية العلوم الأركيولوجية والاثنوغرافية بالأقطار الثلاثة .

تنسيق الأنشطة الثقافية

أثناء الاجتماع الذي انعقد بأحدى مصالح الوزير الأول خلال شهر يوليو 1974 ، والذي حضره ممثلون عن مختلف الوزارات التي تساهم بنصيبها في النشاط الثقافي ، تقرر في هذا الاجتماع ان يعهد الى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بتنسيق مختلف الأنشطة الثقافية المنصوص عليها في المعاهدات والاتفاقيات التي تربط المغرب بالدول الشقيقة والصديقة . ونتيجة لذلك ، تالفت بمقر وزارة الدولة في الثقافة لجنة دائمة مهمتها تنحصر في تنسيق هذه الأنشطة مع مختلف الوزارات ، كما تقرر ان يؤسس في كل وزارة مكتب يعنى بالشؤون الثقافية .

إحداث مكاتب للأطفال

قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالتعاون مع وزارة التعليم الابتدائي والثانوي ، إحداث مكاتب للصغار في المدارس التطبيقية التابعة لمدارس المعلمين التي يبلغ عددها 18 مدرسة .

وتوالت عدة اجتماعات بين ممثلي الوزارتين المذكورتين اختيرت فيها الكتب الصالحة للأطفال .

وسيقوم بالإشراف على هذه المكاتب — التي ستفتح أيام الجمعة — مجموعة من المعلمين ، والمعلمات العاملين بهذه المدارس .

وقد جلبت وزارة الدولة في الثقافة من بعض البلدان العربية كميات من كتب الأطفال التي رأتها صالحة لهذه المكاتب .

أيام ثقافية

خلال الموسم الثقافي الحالي ، تعتزم وزارة الدولة في الثقافة ، تنظيم أيام ثقافية لصالح هذه المؤسسات :

- 1 — مدارس التكوين التابعة للمديرية العامة للأمن الوطني .
- 2 — مدارس تكوين التلاميذ الضباط للقاعدة الجوية بمراكش .
- 3 — مدارس تكوين تلاميذ الضباط للأكاديمية الملكية البحرية بمكناس .
- 4 — الثانوية العسكرية بالقنيطرة .
- 5 — ثانوية أزرو .

وخلال هذه الأيام الثقافية الخاصة بهذه المؤسسات ، ستلقي محاضرات في مختلف أوجه المعرفة ، بالإضافة الى حفلات مسرحية وموسيقية ، واقامة معارض لعرض القطع الأثرية ، وأخرى لعرض المطبوعات والمخطوطات ، وسيقوم بعض الإخصائيين بالقاء عروض حول محتويات هذه المعارض .

جائزة المغرب لسنة 1974

أعلنت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية من جائزة المغرب لسنة 1974 في بلاغ هذا نصه :

تعلم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عن جائزة المغرب لسنة 1974 التي صدر بشأنها في الجريدة الرسمية عدد 3230 بتاريخ

1974/9/25 ، قرار يحمل رقم 75.474 بتاريخ 17 شعبان 1394
(5 شتنبر 1974) ، وتشتمل جائزة المغرب على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول :

أ — جائزة المغرب للعلوم الانسانية والاجتماعية وتشتمل على :

- (1) الفلسفة والدين والأخلاق وعلم النفس وعلوم التربية .
- (2) علم الآثار القديمة والتاريخ والجغرافية البشرية والجهوية .
- (3) علم الاجتماع والانتربولوجيا والانتوغرافيا والفلكور وعلم الموسيقى .
- (4) العلوم القانونية والعلوم السياسية والعلوم الاقتصادية والعلوم الادارية .

الصنف الثاني :

ب — جائزة المغرب للعلوم الرياضية وتشتمل على :

- (1) الرياضيات وعلم الفلك .
- (2) الفيزياء والكيمياء .
- (3) البيولوجيا والطب .
- (4) علم الحيوانات وعلم النباتات والعلوم الزراعية .
- (5) علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والهندسة المدنية

الصنف الثالث :

ج — جائزة المغرب للفنون والآداب وتشتمل على :

(1) المسرح والشعر

(2) القصة والمقالة

(3) النقد

(4) التراجم والتحقيقات الصحافية والرحلات

(5) الفنون التشكيلية والفنون التقليدية

وقد حدد مبلغ كل جائزة من الاصناف الثلاثة الآتية الذكر بـ 13.000 درهم تمنحها لجنة مؤهلة وخاصة بكل صنف من الاصناف المذكورة اعلاه ، كما حدد عدد المؤلفات التي يمكن أن يجازى عنها سنويا في مؤلف واحد لكل صنف من الجوائز ، ولا يجوز منح هذه الجائزة لعضو من أعضاء لجنة التحكيم أو تخويلها مرة ثانية لنفس الكاتب الذي أحرز عليها الا بعد مضي 5 سنوات .

ويجب على المرشحين لهذه الجائزة أن يراعوا الشروط الآتية :

(1) أن يكونوا مقيمين بالمغرب منذ سنة واحدة على الأقل أو أن يكونوا غادروه بعد أن أتموا فيه بالفعل مدة سنتين على الأقل بدون انقطاع.

(2) أن يقدموا مؤلفات لم يسبق طبعها أو نشرت منذ أربع سنوات في 31 دجنبر من سنة « الجائزة » على أبعد تقدير .

ويجوز للمرشح أن يقدم على الأكثر مؤلفين اثنين من صنف واحد أو ثلاث مؤلفات من أصناف مختلفة .

ويجب عليهم أن يوجهوا طلبا بترشيحهم الى السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بصفته رئيسا للجنة التحكيم وأن يضمنو طلبهم :

خمس نظائر مطبوعة اذا كان المؤلف قد سبق نشره او خمسة نظائر مكتوبة بالالة الكاتبة اذا كان المؤلف لم يسبق طبعه ، وتبقى النظائر الخمسة المطبوعة او المكتوبة بالالة الكاتبة كسبا للوزارة المكلفة بالثقافة .

نسخة موجزة من عقد الولادة ، وشهادة تسلمها السلطة الادارية المختصة تثبت توفر شروط الإقامة المذكورة سابقا .

نسخة من سجل السوابق العدلية .

كما يمكن أن يتم تقديم اقتراح لفائدة مؤلف لم يرشح نفسه أو لفائدة أرملة مؤلف هالك أو لايتامه القاصرين . ويجب أن يكون هذا الاقتراح مضمنا في رسالة مكتوبة ومدعما بأسباب ومشفوعا بايداع نظائر المؤلف كما سبقت الإشارة إليه ، ويؤهل أعضاء اللجنة التحكيمية وحدهم لتقديم اقتراحات من هذا القبيل .

ويقتل باب الترشيح في هذه السنة يوم الجمعة 29 شوال 1394 الموافق 15 نوفمبر 1974 في الساعة السادسة مساء .

الغائل

فهرس

صفحة	
	خطاب تنويه ملكي
9 -	تقديم : محمد الصباح
13 -	الشريف الاديسي اعظم جغرافي اتى بعد
	« بطليموس » فى القرون الوسطى عبد الله كسون
23 -	اعتراف وضراعة محمد العربي الخطابي
26 -	نظرات فى القصة عبد المجيد بن جلون
43 -	القصر الكبير اول حاضرة فى المغرب عبد العزيز بن عبد الله
58 -	واخرجها من الجنة (قصة) عبد الكريم فلاب
84 -	الموحدون ثورة سياسية وملهية د. عباس الجاراري
122 -	المحراء فى فجرها الموعود (شعر) محمد مهدي الجواهري
128 -	من مظاهر وحدة الثقافة فى دول المغرب العربي : الخطيب ابن مرزوق د. محمد ابن شقرون
145 -	المزمار « اسطورة » مصطفى القصري
151 -	من آثار المؤرخ الاديب ابي الوليد ابن الاحمر « نثير الجمان فى شعر من نظمنا واياه الزمان » عبد القادر زمامة
175 -	اتجاه فى الاطلاع عبد الكبير الفهري الفاسي
180 -	ابن سيده المرسي « دراسة فى حياته وآثاره » د. داريو كابانيلاس رودريكي ترجمة وتعليق : حسن الوراكلي
195 -	فى ما وراء الفيحاء (شعر) حسن الطرييق
198 -	انصاف ابن خلدون من تهمة التهجم على العرب د. عثمان عثمان اسماعيل
216 -	الادب المغربي على عهد الدولة العلوية د. محمد الاخضر
226 -	ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد عبد الرحمن الفاسي
239 -	مع المبرد فى كتابه « التعازي والمراثي » محمد بن تاويست
246 -	ارتسامات حول مهرجان « ستروكا » علي المقلبي
255 -	فى مكتبة المناهل : . . . ما بعد التيه علي المقلبي
261 -	الاعلام الثقافي .

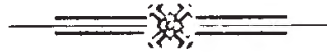
المناهل

تصدرها :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

زنقة غاندي - الرباط - المغرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



EL-MANAHIIL

Publication du

**MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES
CULTURELLES**

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél. : 318-91/92/93



ثمن النسخة : 2٤50 د.